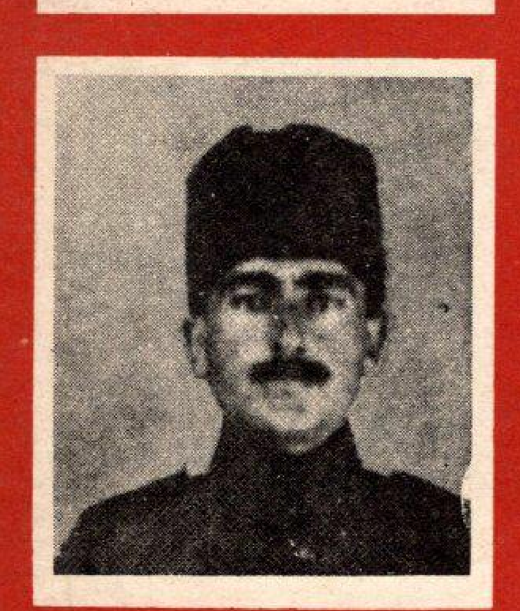
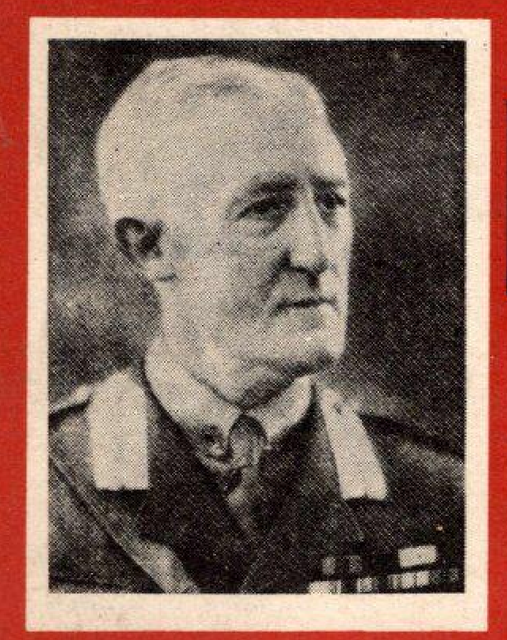
محمود شبيب





حرب - سياسة - مؤامرات



م. سرمد حاتم شكر

٢٦/ذو الحجة/١٤٤١هـ
١٦/٨/٢٠٢٠م

سرمد حاتم

محمود شبيب

جوانب مثيرة

من تاريخ العراق المعاصر

شركة التايمس للطبع والنشر المساهمة
شارع الرشيد - السنك - بغداد هاتف 8888957

جميع الصور والوثائق الواردة في هذا الكتاب تعـود الى جهود المؤلف الشخصية ولا علاقة لأي كان بها .

صـور الغلاف :

فيصل الاول

خليل باشـا

السير بيرسي كوكس

الى

والـدي الحاج شبيب العباس

صاحب الفضل الاول في دفعي الى هذا المعترك

الى

الأمي الذي فتـح عيون

ابنائه وبناته على النور



الجنرال «نكسون» القائد العام للمرحلة الاولى من الحملة البريطانية على العراق في صورة التقطت في العمارة عام ١٩١٥ ٠

مقدمــــة

بعد صدور كتابي « محمود سلمان ... طريق المجد الى ارجوحة الابطال» و «أسرار عراقية في وثائق انكليزية وعربية والمانية » ، وما لقيه من التشجيع والاقبال الواسع النطاق ، على المستويين الرسمي والشعبي ، ازددت تعلقا بكشف المزيد من غوامض تاريخ العراق والعرب المعاصر ، حتى وفقت الى انجاز هذا الكتاب الذي أرجو له ان يكون جديرا بالتوقع الذي يعلقه القراء علي وعليه .

والواقع ، فان الفترة التي تركز عليها البحث والدراسة تكاد أن تكون خافية الجوانب بشكل يفوق أية فترة اخرى منذ قدوم الجيوش الانكليزية الى بلادنا بعد اندلاع نار الحرب العالمية الأولى . فقد كان العراق تحت السيطرة العثمانية ثم احتله الانكليز ، فكان لابد من القاء الاضواء على اسرار الصراع السياسي والعسكري بين الجانبين والذي وصل ذروته بسقوط بغداد بأيدي الانكليز واقامتهم مختلف الادارات فيها ، واندلاع ثورة العشرين ، نتيجة لذلك ، والاساليب التي اقتفاها المحتلون لاجهاض الثورة عن طريق ما اطلق عليه اسم «الحكم الأهلي» .

في اواخر عام ١٩١٤ ، هجمت الجيوش الانكليزية ـ الهندية على البصرة ، وازاحت العثمانيين منها ثم حولتها قاعدة للعمليات العسكرية القادمة في بلاد ما بين النهرين . هناك جانب سياسي للموضوع ، ما هي مهمة السير بيرسي كوكس الذي رافق الجيوش الغازية ؟ كيف مارس نشاطه ومع أي من امراء وشيوخ ووجهاء المنطقة ؟ لمن اغدق الاموال ودفع الرواتب والمعونات ؟ لماذا قدمت المس « بيل » للعمل معه ؟ ما أسرار نشاطها الذي تركز على كسب الاعوان وابتياع ذوي النفوذ ؟

ان اسم « لورنس » يثير شعورا خاصا لدى كل عربي ؟ اذ لا يمكن تجاهل الدور الذي لعبه في أشعال ثورة الحجاز بقيادة الشريف « حسين » ضد الترك عام ١٩١٦ . ولكن الفصل الثاني من الكتاب يورد تفاصيل مهمة سرية جلبت « لورنس » الى البصرة حيث بذل جهده ، واعد أموال الامبراطورية الطائلة ، لجعل ميناء العراق منطلقا للثورة على الاتراك الذين كانوا يحاصرون الجنرال « طاوزند » وقواته في بلدة « الكوت » ، ولو أن المبعوث الانكليزي افلح في مسعاه ، لتغير مجرى تاريخ العراق والعرب كلية . لماذا جاء لورنس بالذات ؟ من هو العراقي المرشح لقيادة الثورة ؟ ما الذي حصل ؟ كيف قرر الانكليز ، بمشورة لورنس ، الاتجاه الى مكة بعد ذلك ؟

بعد استيلاء الترك على « الكوت » في أواخر نيسان ، ١٩١٦ ، اقتادوا مئات الضباط الانكليز والهنود أسرى الى بغداد . احدهم ، وهو طبيب ، يقدم لنا بالريشة والصورة ، وصفا فولكلوريا بديعا للمدينة من شتى المجالات ، وقد خصصنا له الفصل الثالث . ولم يكن احتلال بغداد من جانب الانكليز ، بعد ذلك ، أمرا اعتياديا بل أنه سمة لاتنسى في تاريخنا المعاصر ، لذا ركز الفصل الرابع على ادق التفاصيل ، التي لم يعرف معظمها حتى الان ، للجانب العسكري الذي انتهى بدخول الخيالة الانكليز عاصمة الرشيد من «باب المعظم» وعبور آخرين بالقفف من الكرخ الى الرصافة ورفعهم العلم البريطاني فوق « السراى » أو « القشلة » . ولم تقتصر على ذلك ، بل تناولنا الجانب السياسي الخطير ، والذي كان فيه « كوكس » و « بيل » بمثابة اللولب الفعال مستفيدين من خبرتهما القديمة مع «الاصدقاء» و «الخلان» .

نأتي الى الفصل الخامس ، وهو لطول الفصول ، انه يطرح لنا تفاصيل احداث مثيرة ، جرت في معظمها خلف الحجب ، قبل ثورة العشرين وفي غضونها وبعدها وعلى لسان شخصية ظلت مجهولة نسبيا ، بالمقارنة مع «لورنس»

و «كوكس» و «بيل» مثلا . انه الحاج «عبد الله فيلبي» الذي كان وراء «طالب النقيب» في اعداد نفسه لرئاسة النظام الجمهوري الذي كان يؤيد اقامته في العراق . كيف كان ذلك ؟ ما هو موقف مختلف الاطراف ... كوكس ، بيل، تشرشل ، لورنس ، فيصل الاول ، فيلبي ، طالب باشا ، كورنواليس جعفر العسكري ، نوري السعيد ، عبد الرحمن النقيب ؟ ما هي عاقبة الصراع ؟ نترك الحديث للحاج نفسه !

محمود شبيب



الفصل الأول

مع المس بيل[1] في البصرة

في صيف عام ١٩١٤ اندلعت نار الحرب العالمية الاولى بين دول التحالف الاوسط ؛ أي المانيا وامبراطورية النمسا والمجر ، وبين الحلفاء من انكليز وفرنسيين وايطاليين ومن شايعهم حتى دخول الامريكان الى جانبهم عام ١٩١٧ ، ولم تلبث الدولة العثمانية ،التي كانت تحمل لقب «رجل اوربا المريض» نظرا لوصولها الى حافة التفكك والانهيار أن دخلت الحرب الى جانب دول التحالف • ولسنا هنا بصدد سرد اسباب الصراع الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ البشرية ، فتلك مسألة متروكة للذين تعنيهم التفاصيل ، ولكن يمكن القول أن ما أقدمت عليه تركيا كان الذريعة التي استفادت منها بريطانيا لتحقيق اطماعها في العراق ، او بلاد ما بين النهرين كما كانت تعرف آنذاك لتنفيذ الخطط الموضوعة بهذا الشأن منذ أمد بعيد ، والتي عهد بها الى حكومة مستعمرة الهند ، جوهرة التاج البريطاني ، وذات الهيمنة المباشرة وشبه المباشرة على امارات الخليج العربي ومشيخاته •

لقب جديد

اتخذ العمل طابع السرعة والحسم ، ففي ٧ تشرين الثاني ١٩١٤ ، وصلت الحملة البريطانية بقيادة الجنرال «ديلامين» ميناء «الفاو» الصغير عند مصب

---

(١) المس (الآنسة) جير ترود بيل (١٨٦٨) المستشرقة البريطانية المعروفة التي كانت تجوب ارجاء الشرق الاوسط ، خاصة الاقطار العربية ، بحجة البحث عن الآثار • بينما هدفت ، في الواقع ، الى اقامة علاقات مع ذوي النفوذ في المدن وشيوخ العشائر تضمن تسرب الانكليز • اشتغلت مع قوات الاحتلال في البصرة ثم في بغداد سكرتيرة شرقية لدار الاعتماد ، لعبت اخطر الادوار في تاسيس المملكة العراقية وتتويج فيصل الاول • توفيت عام ١٩٢٦ ودفنت ببغداد في مقبرة الانكليز خلف كنيسة الارمن ، ساحة الطيران •

«شط العرب» في «الخليج العربي» واستولت عليه بسهولة ويسر • ومن ثم ترك «ديلامين» سرية من جنوده في «الفاو» وشق النهر مع معظم قواته متجهاً نحو ميناء «عبادان» الايراني ، حيث توجد منابع النفط ومؤسساته البالغة الاهمية بالنسبة للمجهود الحربي البريطاني ، فأنزل جنوده في منطقة «السنية» ، دون ان يتعرضوا الى مقاومة تذكر من جانب الاتراك • وقد بلغ من ضعف استعدادات هؤلاء وقلة خبرتهم درجة وجود شبه اجماع بين المؤرخين على ان قائدهم في « البصرة » لم يعلم بسقوط «الفاو» الا من الموظفين المدنيين الذين فروا منها للنجاة بانفسهم ، وهكذا ، دخل الانكليز «البصرة» بعد عدد من الاشتباكات مع خصومهم وذلك في ٢٢ تشرين الثاني من نفس العام •

ومع الحملة ، جاء السير «بيرسي كوكس»[٢] الذي عمل عدة سنين بصفة المقيم السياسي في الخليج العربي حاملا ، هذه المرة ، لقب الضابط السياسي الرئيس أو الكبير[٣] • وبسقوط البصرة ، ضمن الانكليز السيطرة على أعالي الخليج العربي ، وابعدوا الخطر عن «عبادان» وجنوبي ايران ، واستولوا على مخزن لسكة حديد بغداد ـ البصرة كان الالمان قد جلبوا محتوياته لغرض ربط المدينتين ، فاستفاد منه المحتلون في مد سكك اخرى طبقا لاهدافهم العسكرية ، والاخطر من ذلك ، فان «البصرة» والمنطقة المحيطة بها سرعان ما تحولت الى قاعدة لمزيد من العمليات الحربية ، الهادفة الى التوسع شمالا مع نهري «الفرات» و «دجلة» الى «بغداد» وما يقع الى الشمال منها أي باقي ارجاء العراق •

---

(٢) دخل «بغداد» مع القوات البريطانية في ١١ اذار ١٩١٧ كما سيأتي تفصيله، غادر العراق اواخر ذلك العام في مهمة الى ايران ثم عاد اليها بمنصب المندوب السامي اثناء ثورة العشرين •

(٣) Chief Political Officer



الفريق بيرسي زكريا كوكس : قدم للعراق للتعاون مع الاصدقاء والاحباب .

وعلى أية حال ، فقد استمر الانكليز في ملاحقة الاتراك ، فاحتلوا «العمارة» في ٧ حزيران ١٩١٥ ، و «الناصرية» في ٢٥ تموز و «الكوت» في ٢٨ ايلول ، وبذلك احكموا سيطرتهم على جنوبي دجلة والفرات والغراف المتفرع من الاول ، وفي ٢٣ تشرين الاول ١٩١٥ ، تلقى الجنرال «نكسون» القائد العام تخويلا من حكومة الهند بالزحف على بغداد ، فعهد بهذه المهمة الى الجنرال «طاوزند» ، الذي اخفق في حسم معركة «سلمان باك» الى الجنوب قليلا من بغداد والتي بدأت في ٢٢ تشرين الثاني تلك السنة . وخشية من ان يشن الترك هجوما مضادا ، وبعد ان ادرك «طاوزند» ان خطوطه الدفاعية قد طالت اكثر مما يجب ، وانه في واقع الامر ، عاجز عن الاستيلاء على بغداد ، رأى أن من الافضل الانسحاب بعيدا والتحصن في بلدة «الكوت» وذلك لحماية مثلث الكوت ـ الناصرية ـ البصرة ، فلاحقه القائد التركي «نور الدين بك» وتمكن من محاصرته في نفس البلدة في ٥ كانون الاول ، ثم عهد بقيادة الحصار الى «خليل باشا» اخر وال عثماني على بغداد .

مهمة الى حائل

من المناسب العودة قليلا الى الوراء حتى يمكن الربط بين الاحداث بشكل افضل . في كانون الاول ، ١٩١٣ انطلقت «بيل» في رحلة عبر الصحراء الشاسعة من «دمشق» جنوبا الى «عمان» ثم شرقا في قافلة من الأبل قاطعة منطقة هذه القبيلة او تلك مستعينة بمن تطلق عليهم في رسائلها اسم «رفيق»(٤) من كل قبيلة ، بعد ان تعطيه اجور اتعابه ، حتى حطت الرحال في مدينة «حائل» السعودية حاليا . كانت نذر الحرب ، التي قد تأخذ نطاقا عالميا ، واضحة

---

(٤) - Rafig - وهي ماخوذة من كلمة «رفيك» باللاهجة البدوية والكاف الفارسية .

للعيان ، كما أن رؤساء «بيل» كانوا قد وضعوا مسألة الاستيلاء على بلاد ما بين النهرين بنظر الاعتبار • لذا فان حماية ميسرة القوات التي ستزحف شمالا من «البصرة» لابد وان تحظى بأقصى قدر من الاهتمام مسبقا ، اما الميمنة ، فان بمقدورها التقدم بأمان تقريبا نتيجة لوجود الشيخ «خزعل» أمير «المحمرة» الذي يمتد نفوذه الى «العمارة» وربما ابعد من ذلك ، وباحتمال التقاء القوات الانكليزية بالروسية التي يتوقع لها ان تأتي عن طريق «خانقين» قادمة من ايران • ان حماية الميسرة كانت تتطلب اجتذاب «آل الرشيد»(٥) الذين يحكمون منطقة «حائل»(٦) من المدار العثماني الى المدار الانكليزي ، وتلك كانت مهمة «بيل» بالضبط ، لكنها لم تفلح في جهودها ، فعادت ادراجها الى «النجف» ثم «بغداد» و «دمشق» ، بعد ان التقت في منطقة «كربلاء» والصحراء غربيها مع «ليجمان»(٧) ، الذي كان منهمكا في ممارسة نشاط مكشوف ، وناجح ، مع عشائر البادية الغربية من العراق •

ثورة في الصحراء

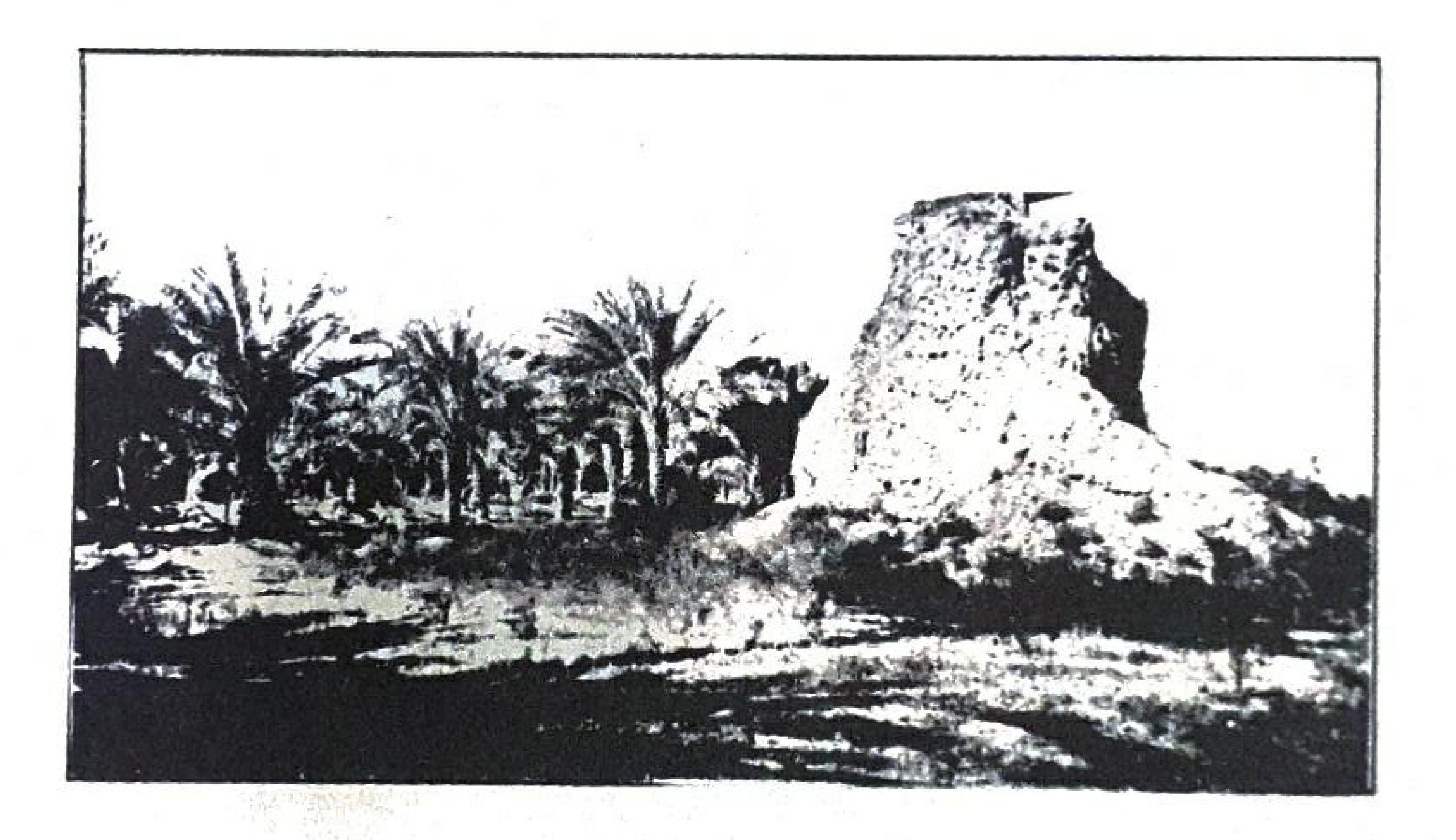
عندما قامت الحرب العالمية ، كانت «بيل» في «لندن» فتقرر ارسالها الى «بولون» بفرنسا للمشاركة في رعاية الجرحى والمرضى في ذلك القطاع من الجبهة الاوربية الغربية • غير ان منطق الامور ، وتطورات الاحداث ، كانت تطلب

---

(٥) بكسر الراء والشين •

(٦) استولى عليها الملك السعودي «عبد العزيز» عام ١٩٢١ •

(٧) ولد عام ١٨٨٠ ، لايقل اهمية بالنسبة للاستخبارات البريطانية في المنطقة عن «بيل» و «لورنس» • ساهم في قمع ثورة العشرين وقتله الشيخ «ضاري المحمود» في «خان النقطة» عام ١٩٢٠ • فر «ضاري» واعتقل غدرا عام ١٩٢٧ وحكم عليه بالاعدام ، ثم خفف الحكم لكن الشيخ توفي في السجن في اليوم التالي •



مدفع فوق رابية تركه العثمانيون في «الفاو» عند انسحابهم الى البصرة في ٧-تسرين الثاني ١٩١٤ .

الاستفادة منها ، ومن خبراتها السابقة ، في المنطقة العربية . وهكذا ، ومع اقتراب الموعد الذي تصوره الانكليز لاحتلال بغداد : « استدعيت « بيل » وارسلت الى القاهرة ، لقد شعر الدكتور ديفيد هوغارت[٨] ، الذي كان آنذاك على اتصال وثيق مع الكولونيل تي•أي•لورنس الذي سيقيض له ، فيما بعد ، ان يلعب دورا فعالا في الثورة في الصحراء[٩] ، ان معرفة جير ترود بيل بقبائل شمالي الجزيرة العربية ستكون مسألة لا تقدر بثمن . وعلى هذا ،وعن طريق تدخله ، ومعه الكابتن هول في لندن ، فقد اقترح على جير ترود ان توجه الى القاهرة فورا . وبالفعل ذهبت الى هناك في تشرين الثاني ١٩١٥»[١٠] .

وعلى الرغم من ان مهمة «بيل» في القاهرة ليست من اختصاص هذا الفصل ، الا ان سياق الامور يتطلب الاشارة اليها باقتضاب . في نيسان عام ١٩٢٧ ، أي بعد وفاة بيل ، القى الدكتور «هوغارث» الذي اصبح رئيسا للجمعية الجغرافية الملكية محاضرة امام الاعضاء عن سفرة «بيل» الى «حائل» قال فيها : « كانت رحلتها مغامرة رائدة لم تضع على الخارطة خطاً من الآبار

---

(٨) هو الذي ترأس «المكتب العربي» الذي تاسس في «القاهرة» عام ١٩١٦ لتنسيق فعاليات الاستخبارات الانكليزية في المنطقة العربية وضم «رونالد ستورز» و «لويد» و «لورنس» و «كورنواليس» و «يونغ» ، وغيرهم ممن حصلوا على الخبرة في هذا المجال . كانت «بيل» تعتبر نفسها عضوا في المكتب المذكور .

(٩) ثورة الشريف «حسين» في «الحجاز» والتي امتدت شمالا .

(١٠) Letters of Gertrade Bell, London, April, 1930, p. 295.
وهي الطبعة التي استندنا اليها ، وركزنا على الجوانب السياسية دون الشخصية . وهناك كتاب نافع اخر هو :

Elizabeth Burgoyhe, Gertrude Bell, London 1961.

لم تحدد ولم تعرف من قبل فحسب ، بل والقت الكثير من الضوء على تاريخ حدود الصحراء السورية أيام كانت تحت الهيمنة الرومانية والتدمرية والاموية ... ولكن من المحتمل ان اعظم النتائج قيمة هي المعلومات التي كدستها عن قبائل البدو القاطنة بين سكة حديد الحجاز من جهة (وصحراء) سرحان والنفوذ من جهة أخرى ، وخاصة حول جماعة حويطات التي اعتمد عليها لورنس بشكل بارز في غضون الحملات العربية عامي ١٩١٧ و ١٩١٨ .

مسافرة منهكة

« كانت اقامتها في حائل مثمرة من حيث المعلومات السياسية ، خاصة تلك المتعلقة بالتاريخ المعاصر والحالة السياسية لبيت الرشيد ، وكذلك علاقته الحقيقية والمحتملة مع ابن سعود . لقد اثبتت معلوماتها انها ذات قيمة عظيمة خلال الحرب عندما القت حائل نفسها الى جانب العدو (الترك) وكانت تهدد جناح الفرات ، واصبحت المس بيل من عام ١٩١٥ وما اعقبه مفسرة لجميع التقارير الواردة من قلب الجزيرة العربية .

«ولم يكن لدى المسافرة المنهكة القوى ، وهي تدون رسائلها ومذكراتها في بغداد في نيسان ١٩١٤[١١] ، اي شك في ان المعرفة والخبرة ، اللتين حصلت عليهما خلال الشهور الاربعة الفائتة ، ستصبحان ذات أهمية قومية . »

في أول رسالة لها من «القاهرة» قالت انها توفر المساعدة للدكتور «هوغارث» في ملء ملفات الاستخبارات بالمعلومات المتعلقة بالقبائل والشيوخ غير انها لم تلبث هناك سوى ستة اسابيع توجهت بعدها الى الهند في زيارة قصيرة ، لاستطلاع الامور ومن هناك وجهت الرسالة التالية :

مقر نائب الملك ، دلهي ، ١٨ شباط ١٩١٦ .

---

(١١) عندما اقامت فيها بعض الوقت عائدة من «حائل» في طريقها الى «دمشق».



الكولونيل ليجمان في مكان ما شمال غربي كربلاء : شيطان الصحـــراء الذي فتك به الشيخ ضاري ٠

... وطبقا للترتيبات الحالية ، فانني ساغادر دلهي في ٢٣ منه ، وامضي يوما أو يومين في لاهور ، ثم ابدأ الرحلة الى كراجي في ٢٧ منه ، أما ما سيحدث بعد ذلك فليست لدي أية فكرة عنه . أن نائب الملك متشوق الى أن أذهب الى البصرة وأمد يد المساعدة الى قسم الاستخبارات هناك ، غير ان كل شيء يعتمد على ماهية وجهات نظرهم وعما اذا كان بمقدوري ان اكون ذات نفع وفائدة ، وانا متعلقة بهذا الامر . انني اشعر ، كما قلنا في كثير من الاوقات ، ان افضل ما تستطيع عمله للناس هو ان تعطيهم الفرصة لان يوجدوا مكانا لانفسهم ، وقد فعل نائب الملك ذلك كثيرا .

وضع المستر غرانت(١٢) جميع سجلاته تحت تصرفي وامضيت وقتي في قراءة الملفات العربية وتعلمت الكثير منها . وفضلا عن القراءة ، فانني قابلت جميع الاشخاص ذوي العلاقة بالشؤون الخارجية الهندية وتحدثت معهم عن جزيرة العرب حتى اصابني الاعياء من الكلمة ذاتها واظن انهم هم كذلك . »

اهميـــة بغـــداد

وفي رسالة الى الكابتن «هول»(١٣) قالت : « قبل ان اتوجه الى البصـــرة تذكرتك وانت تمد اصبعك في باتجاه بغداد على الخارطة قائلا بأن النجـــاح الحقيقي في الحرب يعتمد على ما نفعله هناك . انك واحد مـــن الناس الذين يدركون مدى جدية وخطورة المسائل التي سنواجهها . لقد أمضيت انفـــع اسبوعين هنا وتوصلت الى شروط تفاهم مع وزارة الخارجية الهندية وقســـم الاستخبارات . من الجوهري ان تحافظ الهند ومصر على أوثق اتصال نظرا الى انهما تتعاملان مع جانبـــي نفس المشكلة»(١٤) .

---

(١٢) موظف في وزارة الخارجية الهندية مع العلم ان الهند كانت تدار من لندن.

(١٣) ورد عنه في هذه الطبعة من الرسائل (١٩٣٠) انه اصبح نائب الاميـــرال السير «ريجيلاند هول» .

(١٤) ساد عدم تنسيق وتفاهم بين السلطات الانكليزية في البلدين كما سيـــرد ذكره .

اتخذت «بيل» استعداداتها النهائية للسفر الى «البصرة» وهكذا كتبت الرسالة التالية[١٥] من «كراجي» في ٢٦ شباط : « امضيت الايام المتبقيــة في دلهي وأنا منكبة بحـــرارة على قراءة جميع ما لديهم من سجلات واستوعبت الاعظم اهمية منها • جاء رجل من سملا[١٦] لرؤيتي وامضينا يوما طويلا في مناقشة افضل السبل لتنسيق عمل الاستخبارات حتى تتجنب تغطية نفس الأمر مرتين من جانب مصر والهند • ان هذه المسألة في منتهى النفع وقد ارسلت مشروعي الى القاهرة لغرض اقراره وهذا ما اظن انني سأحصل عليــه • في الليلة المنصرمة تناولت طعام العشاء مع المستر غرانت ، وامضيت أمسية طويلة في مبادلته الحديث مما عاد علي بأحسن فائدة • انه يريد أن يقابلني عندما أعود وطلب مني أن اجلب معي تقريرا غير رسمي قد يساعد النائب الجديد للملك • وعلى هذا ، فاذا كان لدي شيء أقوله فينبغي أن أعود أدراجي لرفعه، غير ان الموضوع يعتمد على مقدار الفترة التي سيسمح لي بالبقاء فيها بالبصرة ، وكذلك على مقدار ما سيفسحون لي المجال لرؤيته أو سماعه» •

هـذه هـي البصرة

وعلى مياه شط العرب ، ومن السفينة التي جاءت بها الى العراق ، كتبت «الخاتون» تقول :

٣ آذار ، ١٩١٦ :

نحن على بعد نصف ساعة من البصرة التي قدمت اليها على ظهر ناقلة • انه لمن الممتع بشكل هائل ، بالنسبة لي ، ان ادخل البلاد من هذا الاتجـاه ، وهو أمر لم اقم به اطلاقا من قبل • لقد امضينا الصباح باسره ونحن نشــق طريقنا الى اعالي النهر وسط المشاهد الطبيعية لبساتين النخيل واكواخ العرب ،

---

(١٥) كانت «بيل» توجه رسائلها الى والدها وزوجة ابيها ، اذ توفيت والدتهـا وهي في الثالثة ، واخيها «موريس» وشخصيات بريطانية عديدة •
(١٦) مدينة هندية كبيرة ومعروفة •



المستر (السير فيما بعد) هنري دوبس : موضع اعتماد بيل العظيم •

بينما تزدهر الى جانبينا اشجار المشمش هنا وهناك في الحدائق غير الانيقـــة والمحاطة بجدران من الطين • انني مسرورة للغاية لأن تقع عيناي ثانية على كل هذا ، وأشعر ، رغم قبحه ، بانني كما لو كنت في بلادي بالذات • والآن ، فان امامي أن اعرف هل سيجدون لي عملا أو انهم سيطلبون مني العودة ادراجـي دون تأخير • •

نحن الآن في البصرة • هنا تقتضي الضرورة التعرف على صورة الوضع هناك ، خاصة وقد مضى ما يزيد على ثلاثة شهور منذ وقوع «طاوزند» في الفخ في الكوت : ١٧ آذار :

ما زلت مع آل كوكس غير انني اتناول طعام العشاء وأنام واتناول فطوري فقط هنا ـ ذلك انني أذهب للغداء في الباب المجاور ، حيث مقر القيادة العامة ، مما يوفر الوقت ويجنبني المتاعب • من المقرر ان استقر هناك في الاسـبوع القادم • ان السير بيرسي جذاب للغاية ، قارىء جيد وممتع ، غـير انني لا استطيع ، من قبيل اللياقة ، أن افرض نفسي عليهما وقتا اطول • لقد امضيت معهما اسبوعين في الواقع • ان المستر دوبس(١٧) ايضا موضع اعتماد عظيـم ، ولقد تنزهنا سوية على الاقدام ذات مساء •

ما زلت مستمرة في دراسة الهراء الذي حصلوا عليه هنا ، ولكن في الغـد سيأتي رجل لمقابلتي وتزويدي بالمعلومات • انه عربي من قلب جزيرة العرب، واتوقع أن اجري حديثا ممتعا الى حد ما معه • •

عالم الاثار السابق

ومن ثم تمضي «بيل» في شرح احوال «البصرة» بعد أن تحولت الى قاعدة عسكرية كبيرة وكذلك الجوانب الجديدة لنشاطها :

---

(١٧) من اقرب مساعدي «كوكس» • حل محله في منصب المندوب السامي في العراق عام ١٩٢٣ •

البصرة ٩ اذار ، ١٩١٦ :[١٨]

كم اتمنى لو أعرف مدى أقامتي في هذا المكان ، أو ما الذي سأقوم بـه فيما بعد ، وعلى أية حال ، فهناك قدر كبير من العمل الذي ينبغي القيام بـه . لقد شرعت فعلا في تصنيف المعلومات القبلية الثمينة للغاية والتي عثرت عليها في الملفات العائدة لقسم الاستخبارات ، واعتقد أن هناك عدة امكانيات واسـعة لاضافة المزيد الى ما تم جمعه بالفعل . انه بديع الى حد يفوق المألوف ،ومعرفتي السابقة الخاصة تأتي مناسبة من عدة جوانب باعتبارها تدقيقـا ، أو اطـارا للمعلومات الجديدة هذه . لا استطيع اخبارك كم يشعر المرء بالروعة في حالة الولادة ، اذا أردنا التعبير الصائب ، لادارة جديدة . ان كل شخص هنا شـفوق وعطوف بصورة تدعو للدهشة . لقد حصلت على مسكن الى جوار القيادة في البيت الكبير على النهر والذى يعود الى شركة غراي ، مكنزي وشركاهم ، وهذا مريح ومناسب للغاية ، ذلك ان كل ما علي القيام به اجتياز الجسر فـوق الخور[١٩] الصغير للتوجه الى عملي . تناولت طعام الغداء هذا اليوم مع جميـع الجنرالات ــ السير بيرسي ليك ، الجنرال كاوبر ، الجنرال أوفلي شو والجنرال موني . وكانت النتيجة السريعة لذلك أن قرروا نقلي مع خرائطي الى شرفة كبيرة فاخرة تقع خلفها غرفة باردة حيث اتخذ مجلسي واعمل طوال النهار . ان زميلي هنا هو الكابتن كامبل تومبسون ، عالم الآثار السابق[٢٠] ، لطيـف جدا وكريم ومسرور للاستفاده معي من تغيير الورشة[٢١] ، نظرا الى اننا كنـا

---

(١٨) الرسائل مرتبة حسب تاريخ وصولها وليس ارسالها .

(١٩) جدول صغير متفرع من شط العرب ياخذ بعض مياهه من البحر اي الخليج العربـي .

(٢٠) عمل كثير من رجال الاستخبارات من شتى الدول في ارجاء الوطن العربي والاقطار المجاورة بهذه الصفة ثم اتضحت حقيقتهم ومنهم «بيل» بالـذات و «لورنس» و «فرياستارك» وغيرهم .

(٢١) لاندري لم استخدمت صاحبة الرسائل هذا التعبير .



الكابتن لورنس (الى اليسار) مع الدكتور «هوغارث» رئيس المكتب العربي في القاهرة ١٩١٥ .

تقيم ذلك الشيخ في عرعرة يوم الكوكوشا[٣٢] مع (٤٥) رجلاً فقط [illegible]
وهو ترتيب غير مريح لكاوية على السواء .

ان البصرة تتعرض حالياً لشائعات [illegible] الاحساء ، وبعضها [illegible] يمكن ادراكه عندما نعلم ان عرب القبية [illegible] في [illegible] جيش [illegible] . [illegible] كوكس في الليلة [illegible] (اكثر [illegible] في بوشهر)[٣٣] [illegible] [illegible] العون للحصول على كل ما [illegible] من معلومات [illegible] يوسل [illegible] من العرب الذين قد [illegible] ، وعلى [illegible] انتقلت في التوصل الى نتيجة ما ، [illegible] تلك [illegible] ولا [illegible] [illegible] . ان الوضع يتطور بسرعة [illegible] في [illegible] حالة [illegible] ، وهكذا ما يدعو الى [illegible] والقلق . وعلى أية حال ، [illegible] الاحداث .[٣٤]

القسم [illegible]

تقرير سياسي - [illegible] ؟

البصرة ، ٩ نيسان ، ١٩٢٢ .

انتهى هذا الأسبوع [illegible] بوصول السير [illegible] ، مرسلاً [illegible] من [illegible] .[٣٥] [illegible] محادثات [illegible] [illegible]

---

(٣٢) العقيدة .

(٣٣) أبو حيشوه ، وهو ميناء ايراني على الخليج العربي .

(٣٤) اشارة الى تهديد وضع حكومته في الكويت .

(٣٥) تجمع المصادر التاريخية - ومنها الانكليزية - على ان [illegible] قد سعى الى الكويت وهو يحمل تفويضاً بالشروع في مفاوضات مع [illegible] حول تقسيم [illegible] له يهدف [illegible] في [illegible] . ولقد تبين لنا انه كان يحمل [illegible] منطقة اخرى في غاية الخطورة كما سيرى القارئ في الفصل التالي .

لحكومات الكون • انه ذاهب مع أعالي النهر غدا ، حيث مازالت المعركة محتدمة بشراسة هذه الايام •

لقد انتهيت تقريبا من وضع كتابي اليدوي عن العشائر ، بيد انني اريد الذهاب الى الناصرية قبل ان يوضع بشكله النهائي لانني اعرف أنه بحاجة الى التدقيق من هناك ، ومع ذلك فيجب ان انتظر حتى أرى نتيجة الكوت ».

كان هذا وقت الازمة الحرجة حقا بالنسبة للانكليز • ففي الجبهة الغربية ، أي فرنسا بالذات ، وصلت العمليات الحربية الى مرحلة جمود ، وتمركزت في الخنادق الدفاعية لطرفي الصراع ، أما حملة الانزال البحري ضد تركيا في «غاليبولي» المنطقة الجبلية قرب «الاستانة» بهدف الاستيلاء عليها فقد انتهت بالفشل الذريع • وعلى أية حالة فان «بيل» تعطينا ، في رسالتها التالية ، فكرة ممتعة عما يجري أمام انظارها عسكريا وسياسيا : مقر القيادة العامة ، البصرة ، ٢٧ نيسان ، ١٩١٦ :

لاشيء يحدث ، ويبدو انه ما من شيء سيحدث في الكوت ، انها مسألة ميؤس منها ، والسماء وحدها تعرف ما الذي ستكون عليه النهاية •

انني مدينة للوالد لارساله المعلومات الاحصائية عن الملاك المتدهور وكذلك المقال في الايكونومست عن الحملة في بلاد ما بين النهرين • انني أخشى ان الاخير (المقال) لايبتعد كثيرا عن الحقيقة ، غير ان اللوم يجب أن يوزع بشكل اكثر انصافا • لا أنوي الدفاع عن حكومة الهند ، لكن الانصاف يقتضي التذكير بأن ك(٢٦) قد استنزف الهند تماما من الجنود ، وكذلك من جميع المستلزمات العسكرية ، وبضمنها المستشفيات والاطباء عند بداية الحرب ، وان

(٢٦) اللورد «كتشنر» وزير الحربية الذي مات بعد ذلك بوقت قصير نتيجة لارتطام بارجته بلغم في المحيط الاطلسي •



جير ترود مع لورنس : قدومه كان مفاجأة .

الحملة فرضت عليهم[٢٧] من انكلترا • وعندما تطورت المسألة الى أمر خطير للغاية ـ أمر اكبر كثيرا من ان تتمكن الهند من معالجته حتى ولو كانت بيدها السيطرة التامة على جميع مصادرها ـ فلم ترسل القوات ، ولا المدفعية ، ولا وحدات الطبابة والمستشفيات ، ولا فيلق الطيران ولا أي شيء اخر في الوقت المناسب للاستفادة منه ، ولكن ربما كان الامر الاكثر خطورة هو ان جميع أفضل الجنرالات قد ارسلوا الى فرنسا أو غاليبولي لكي لا يعود الكثير منهم الى الابد •

قضى الامر

ومن الناحية السياسية ، فقد اندفعنا في هذا الموضوع بعدم اهتمامنا المألوف بمشروع سياسي شامل • لقد عاملنا بلاد ما بين النهرين وكأنها وحدة معزولة بدلا من اعتبارها جزءا من بلاد العرب ، وان شؤونها السياسية مرتبطة بشكل لا ينفصم مع المسألة العربية الاوسع والاعمق غورا والتي تمثل ، في واقع الحال ، مظاهرا مختلفة كلما نظرت اليها من نواح مختلفة ، ومع ذلك فأنها ، على الدوام ، كل لايتجزأ • كان يجب تنسيق الشؤون السياسية العربية وخلق سياسة عربية في الوطن ـ انها ما كانت لتوضع بنجاح الا في الوطن ، لم يكن هناك شخص للقيام بذلك ولا حتى مجرد التفكير بها ، وهكذا تركت لاصحابنا[٢٨] في مصر لكي يقلبوا الرأي بشأن مشروع أوسع وذلك في وجه معارضة شديدة من الهند ولندن ، وهو الذي سيشكل ، في رأيي واعتقادي ، وفي نهاية المطاف ، أساس علاقتنا مع العرب • حسنا ، كفى سياسة ، ولكن عندما يتحدث الناس عن خوضنا فيها فان الامر يثير اعصابي • نخوض فيها ! نعم اننا نقوم بذلك ـ نخوض خلال الدماء والدموع التي ما كان لها أن تسيل أبدا ، !

---

(٢٧) المقصود الحكومة الهندية ويستخدم الانكليز ضمير الجمع عند التحدث عن الحكومة •

(٢٨) تقصد المكتب العربي •

وبعد يومين فقط ، سقطت الكوت ، ولم تنفع فنون الحرب ولا السياسة ولا حتى الرشوة في انقاذها من القدر المحتم . هذه المرة ، لم تشأ «بيل» أن توجه اللوم لاحد وهي التي لا تأبه لاي كان !

لعبة غريبة

مقر القيادة العامة ، البصرة ، ٤ مايس ، ١٩١٦ :

لقد كان واضحا ان الكوت ينبغي أن تسقط ، يقوم اودري (هربرت)(٢٩) على ما اعتقد ، بمد يد المساعدة في تنفيذ اجراءات تبادل الأسرى اذ ان معرفته باللغة التركية نافعة للغاية ، لقد انحدر الاميرال(٣٠) الينا قبل قليل ، بيد انني لم اجتمع به حتى الان ، وهذا اليوم سيعود الينا قائد الجيش وهيئة اركان القيادة العامة ، وينبغي علي أن اعرف ماذا يريدون مني ، اذا فسحوا المجال أمامي ، فانني سأبقى نظرا الى ان العمل ممتع للغاية ، واعتقد ان بمقدوري انجاز قدر اضافي جيد من هذا النوع من الفعاليات التي أقوم بها ، وذلك اذا اطلقوا يدي . انني ، في الوقت الراهن ، منهمكة في اجراء اتصالات مع ابن رشيد الذي ينبغي أن يظل على الحياد ، الى حد ما ، اذا لم يكن بمقدورنا الحصول على المزيد(٣١) . انه لايبعد عنا سوى مسيرة اربعة ايام وقد أقر السير بيرسي كوكس ، بحرارة ، فكرة قيامي بارسال رسالة له . لعبة غريبة ، اليس كذلك ؟ ولكنك تدرك أن من المثير أن تكون لي يد فيها .

شعرت «الخاتون» بأنها اخذت بترسيخ قدميها في كل مجال فكتبت تقول :

---

(٢٩) الكابتن هربرت الذي رافق لورنس في مهمته الفاشلة الى «خليل باشا» وهو ينتمي الى قسم الاستخبارات ايضا .

(٣٠) الاميرال ويميس ، قائد القوات النهرية في المناطق المحتلة .

(٣١) لعلها تقصد امكانية جلبه نهائيا الى جانب الانكليز لئلا يبدو انهم لم يفقدوا الامل منه .



الانكليز يراقبون مواقع الترك من منظار منصوب فوق سلم متحرك .

• انني قد استدعى الى مصر ، حيث يلغطون من اجل اعادتي ، ولكنني مقتنعة بأن وجودي هنا اكثر فائدة • والواقع ، فانني اخذت اشعر بأنني نافعة فعلا ، ينبغي علي ان أعود أدراجي طويلا الى الوراء حتى اخبرك عن عدد الثغرات التي وجدتها أمام وجهي هنا وكان علي أن أسدها • واضافة لذلك ، فان الاهالي أخذوا بالتعرف علي وزيارتي حاملين معهم الانباء والاشاعات • واخيرا ، فانني اعتقد ان الامر الأكثر اهمية في كل هذا وجود ثغرة واسعة تتطلب جسرا بين بلاد ما بين النهرين ومصر(٣٢) ، ولي الأمل في ان اكون الشخص الذي سيعهد له بهذه المهمة • ان السير بيرسي يريدني ، ونظرا الى انني أكن له الاحترام والاعجاب الكبيرين وانسجم معه بشكل رائع ، فمن الأفضل ترك الأمور سائرة في طريقها دون اثارة احتكاك • انا اعرف هذا الشعب ؛ العرب ، لقد كنت على اتصال معهم بطريقة لم تتوفر لاحد غيري من المسؤولين ، وهذه العلاقة والصداقة الحميمة هما سبب كوني نافعة هنا وسبب رغبتي في البقاء •

ولكن اذا اصبحت حلقة الوصل مع مصر فمن المحتمل أن انضم الى دائرة السير بيرسي أيضا ، وهذا هو المكان الذي ينبغي أن اكون فيه ، ان عملي سياسي وليس عسكريا •

ماذا نفعل ؟

كانت الرسالة السابقة موجهة من «بل» الى والدها ، وقد عثر على رسالة اخرى الى زوجة والدها تقول فيها :

٨ مايس ، البصرة •

استقبلت بعض رجال ابن رشيد الذين سبق لي التعرف عليهم في حائل ،

---

(٣٢) لكي تزداد الصورة وضوحا ينبغي الاشارة ثانية الى ان مصر ، والمكتب العربي ، مرتبطان بلندن بينما يقع العراق ضمن اختصاص الهند •

وقد نقلوا لي اناه جميع اصدقائي مؤكدين انني ما زلت موضع كثير من الاحاديث • بعثت ، بواسطتهم ، رسالة طويلة الى الامير وعدة رسائل اخرى الى شتى اصناف الناس • انه سيكون نصرا عظيما لو استطعنا ربطه بعجلتنا •

والان ، فانني سأقوم بجميع اعمال الارتباط بين مصر والبصرة ، الامر الذي أعلق عليه الأمل في أن يحقق لي اتصالا اوثق مع السير بيرسي الذي سيزودني بالمواد بشكل عام» •

٢١ مايس ، البصرة :

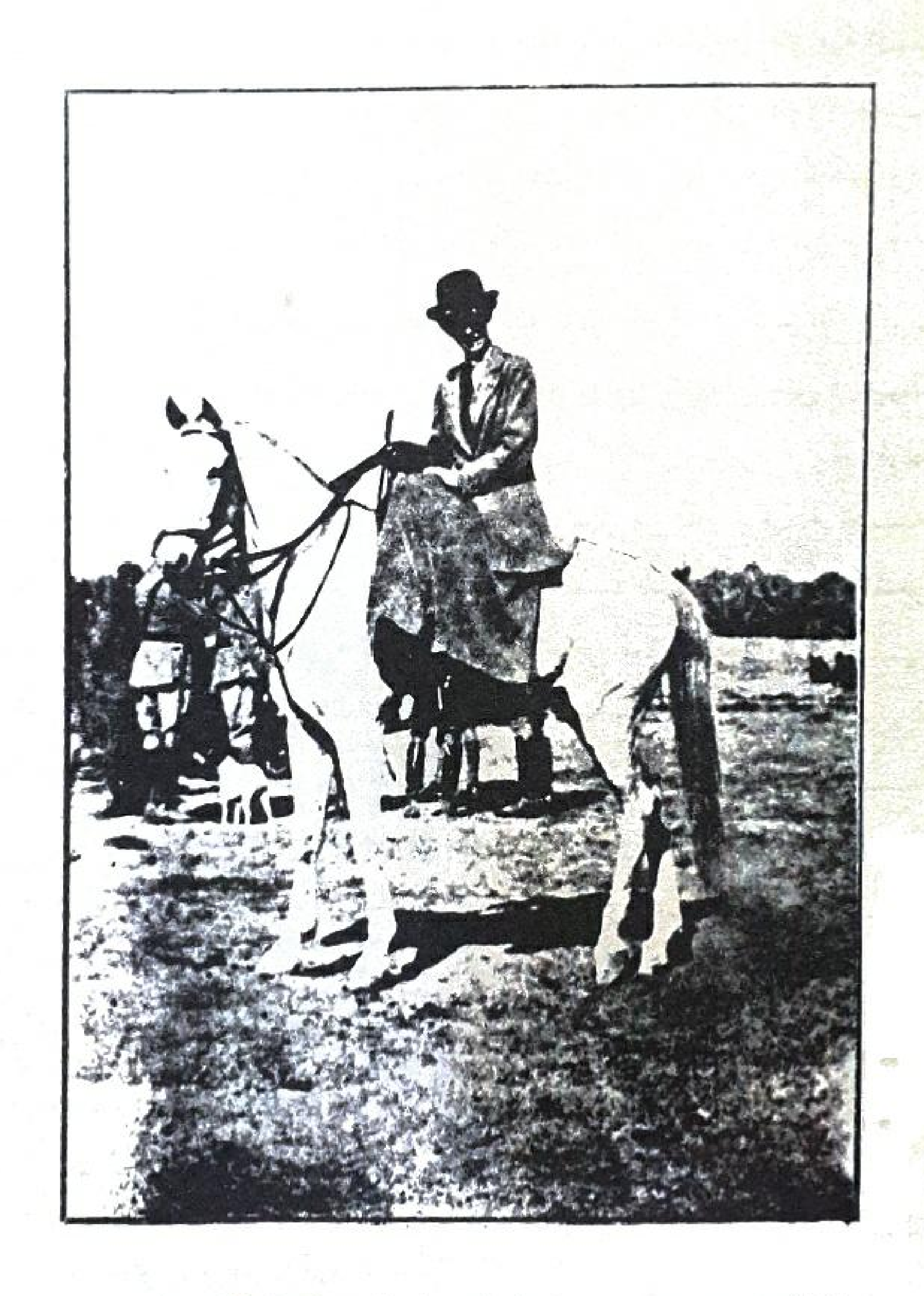
يقع طريقي عندما اخرج للنزهة على ظهر حصاني خلال احد معسكراتنا الكبيرة • يوجد هناك كل نوع من البشر والحيوانات والوسائل المتوفرة لخدمة الانسان ، جنود بريطانيون ، وجنود هنود من شتى الملل والنحل ، عربات تجرها الخيول والثيران والجواميس ، بغال ، سيارات ولوريات من احدث طراز ، ابل ـ اكواخ مشيدة من القصب ، واسلاك هاتف • وهنا وهناك ، تبرز فجأة برك من المياه فوق أرض كانت بالامس فقط موضعا لاستعراض عسكري ، وخلف كل ذلك تكمن مشكلة الحكومة ـ ما الذي سنفعله بالبلاد والشعب» •

٢٧ مايس ، البصرة :

لا اعرف ما اذا كانت ستحدث لدينا تطورات سريعة للغاية ، غير أن الامر لا يدخل في نطاق المستحيل• ان الوضع الان هادىء الى درجة سمحوا لي معها بالتوجه الى الناصرية» •

الطبخ والنفخ

لاول مرة تبتعد «الخاتون» عن «البصرة» في مهمة اخرى تتطلبها عملها الاستخباري • التقرير التالي يورد لنا معلومات بديعة عما قامت به بين



«الخاتون» على صهوة جوادها اثناء نزهة صباحية خارج البصرة •

النهر والهور[٣٣] :

اني هنا[٣٤] في طريق عودتي من الناصرية . كانت الرحلة ممتعة بشكل هائل ومثيرة الى اقصى حد . غادرت البصرة قبل اسبوعين متوجهة الى أعلى النهر في باخرة مع الجنرالين مكون وكوبر . الاول رفيق يجلب البهجة للنفس فقد كان مضيفي ووفر لي جميع الوجبات ، لذا لم يعد علي التفكير في الطبخ والنفخ بل اكتفيت باصطحاب خادم فقط مع اثاث الخيمة الخاص بي .

امضينا يومين في الصعود مع النهر ؛ ليلة نشق طريقنا في شط العرب العريض ، واخرى لنلقي المرساة في هور الحمار . انه لمشهد مدهش ، هذا الريف في وقت الفيضان . ان الناصرية في الوقت الحاضر جزيرة ، يبلغ طولها ثلاثة اميال وعرضها ميلا واحدا ، وهي محاطة بالنهر من كل جانب . جاء الجنرال بروكنغ ، القائد ، للترحيب بجنرالي وامضيت اسبوعا مقيمة مع الميجر هاملتون ؛ الضابط السياسي . لقد جئت في الاساس لرؤية رجل يدعى ايدي[٣٥] الذي يعرف عن القبائل اكثر من أي شخص في بلاد ما بين النهرين، فغرقنا في العمل سوية كل يوم من بعد تناول طعام الفطور حتى موعد الشاي[٣٦] . كنت اخرج للنزهة على ظهر حصاني في وقت مبكر كل يوم مع الجنرال ، وفي المساء يأتي الناس لرؤيتي أو انني اذهب لزيارة الوجهاء في البلدة .

. واخيرا ، غادرت وسط بريق المجد ، ذلك ان الجنرال بروكنغ استغل الفرصة فأصدر عفوا عن ثلاثة من الشيوخ كانوا رهن التوقيف قائلا بأنه فعل ذلك تكريما لي . توجهنا في البداية الى سوق الشيوخ ، التي تقع على فرع

---

(٣٣) نهر الفرات وهور الحمار .
(٣٤) في القرنة .
(٣٥) الكابتن ثم الكولونيل فيما بعد . مؤسس قوة الشبانة او فرسان المنتفك.
(٣٦) اعتاد الانكليز على ارتشاف الشاي في الساعة الخامسة مساء .

جنوبي للفرات ، هناك ضابط سياسي جذاب ؛ المستر ادموندس ، وهو شاب صغير جدا ولكنه ذكي الى حد كبير - ورئيس البلدة اللطيف للغاية[٣٧] والـــذي اجريت معه حديثين طويلين تعلمت منهما الكثير عن البلدة والصحراء» .

فـــوضى واهمـــال

وبعد عودة «جير ترود» الى البصرة بوقت قصير عينت مراسلة رسـمية للقاهرة ، وبذلك اصبحت عضوا في «قوة الحملة الهندية» أي جيش الاحتلال ، وسرعان ما عبرت عن سخطها على الاوضاع والاساليب التي تدار بها امـــور الحملة ، فكتبت تقول بلهجة شديدة :

البصرة ، ١٧ حزيران :

«انك لا تعرف مدى صعوبة عملي هنا ، ومع ذلك فانني ما زلت مسـرورة لوجودي ، أما فيما يخص الجزء الذي لا يعنيني ، فانه ما زال سيئا الى درجـة تستحق الغضب ، فالثلج لايكفي ، وناموسيات الوقاية من البعوض لاتفـــي بالغرض ، وهناك نقص في ارزاق الطعام في الجبهة ، انه نقص وعدم كفايـة هائلة ذات اثار بعيدة . ولا اظن انه كانت هناك حملة مثل هذه منذ حـــرب القرم»[٣٨]

---

(٣٧) - «وقد زار ايضا حاكم الناصرية ، سوق الشيوخ ، ووجد ان كل مـــا يخص الحكومة لم يمس بيد ولم يكن هناك مشاغب كثيرة في ايام الثـورة وذلك لان الحاج حسن حمداني الذي كان وكيلا للحكومة هناك منع وقـوع الاضطـــراب» .

جريدة العراق ، العدد ٢١٦ ، في ١٤ شباط ١٩٢١

(٣٨) ١٨٥٣-١٨٥٦ . اندلعت في جنوب شرقي اوربا بين روسيا القيصريـة من ناحية ، وتركيا وانكلترا وفرنسا وسردينيا من ناحية اخرى ، وتعـود الاسباب الى المسألة الشرقية التي ظلت دون حل وتطلعات روسيا فـــي اراضي الدولة العثمانية . امتازت الحرب بالاحوال السيئة التي مر بهـا الجنود والجرحى وحتى القتلى الذين تركوا في العراء . من نتائجهـــا الايجابية ظهور التمريض الحديث .



البصرة ١٩١٦ : يبدو الخور الذي ورد ذكره في رسائل «بيل» .

لقد عاد جورج (لويد)،(٣٩) من العمارة توا وهو يروي قصصا عجيبة عن الفوضى التي مازالت تتحكم في اجراءات النقل ، وانني لاجرؤ على القول ان من الصعب ، ان لم يكن من المستحيل ، توجيه اللوم بشكل صائب • غير ان المهارة الانسانية في التنظيم وبعد الرؤية الانسانية نادرا ما ابتعدتا عن حملة مثل هذه ، ذات يوم سأردد على مسامعك روايات عنها ، وحينئذ لن تصدق ما أقول ، ولا يمكن لاحد ان يصدق ذلك الا اذا رأى بأم عينيه كيف تسير الامور • لا اعتقد ان حكومة الهند ستنجو من اللوم ـ وينبغي الا يفسح المجال أمامها للخلاص منه ، غير اننا دفعنا ثمن هذا الاهمال وقلة البصيرة بالدم والتعاسة وبأرواح لا يمكن استعادتها » •

ويبدو ان الفوضى والتقصير لم يقتصرا على المضمار العسكري ، بل امتدا الى الميدان السياسي •

٩ تموز ، البصرة :

ان الصعوبة الحقيقية هنا هي اننا لانعرف بالضبط ما الذي ننوي عمله في هذه البلاد ، هل بمقدورك اقناع شعب بان يأخذ جانبك عندما تكون غير واثق في النهاية من انك ستكون هنا لتأخذ جانبه ؟ لا عجب اذن ان يترددوا ، وهناك حاجة الى اقناع فعال ومؤثر لجعلهم يعتقدون ان جانبك وجانبهم متوافقان • اننا محرومون من عناصر الاقناع الهام » •

ابن رشيد والحبل

وبغتة تنفجر «بيل» غاضبة وينتقل سخطها الدفين على عسكريي وسياسيي بلادها الى ثورة جارفة ضد ابن الرشيد ! نعيد الى الذاكرة انها لعبت دورا في محاولة دفعه الى المحافظة على حياده ، على الاقل ، ونتيجة لاقرار كوكس فقد وجهت رسالة الى الامير ، ولكن ما من شيء تستطيع هي أو غيرها عمله بقادر

---

(٣٩) شغل منصب المندوب السامي في مصر في اواخر العشرينات •

على التأثير فيه ، ويبدو انه لم يحمل نفسه حتى عناء الرد على الرسالة. يالطويل! مضت «الخاتون» الى القول :

« لم نفلح في شد الحبل في رقبة ابن رشيد ، لقد عملنا كل ما نستطيع عمله ، ونال المغفرة مرارا وتكرارا ، بيد أنه لم يرغب في الاصغاء الى انغام مزاميرنا[٤٠] . اننا لا نريد مقاتلة عرب الصحراء ـ حسنا ، لم نقم بذلك حتى الان ، ولكن السبب وحده يعود الى كون ابن رشيد ليس قويا بما فيه الكفاية ليهاجمنا ، الامر متروك له . انه جاهل واحمق بشكل يفوق الاعتقاد ، ولي الأمل في ان شمر سيقطعون العقدة بانفسهم قبل وقت ليس بطويل ويختارون اميرا اخرا ، انه امر ليس بعيد الاحتمال ، ذلك انهم يعرفون انه ضعيف العقل والجسم ومجنون»[٤١] .

« ولكن الذي يشغل بالي اكثر من اي شيء اخر ليس المشاكل الملحة الناجمة عن الحرب ، بل ومشاكل ما بعد الحرب ايضا ، وانا لا ادري اي اسلوب ستقتفيه لايجاد حلول لها ، وعلى اية حال ، فليس هناك ضرر من التفكير بها وهذا ما افعله الان » .

لقد وصلت انباء طيبة من الجبهة مع بدء الاستعدادات لمعاودة الزحف .

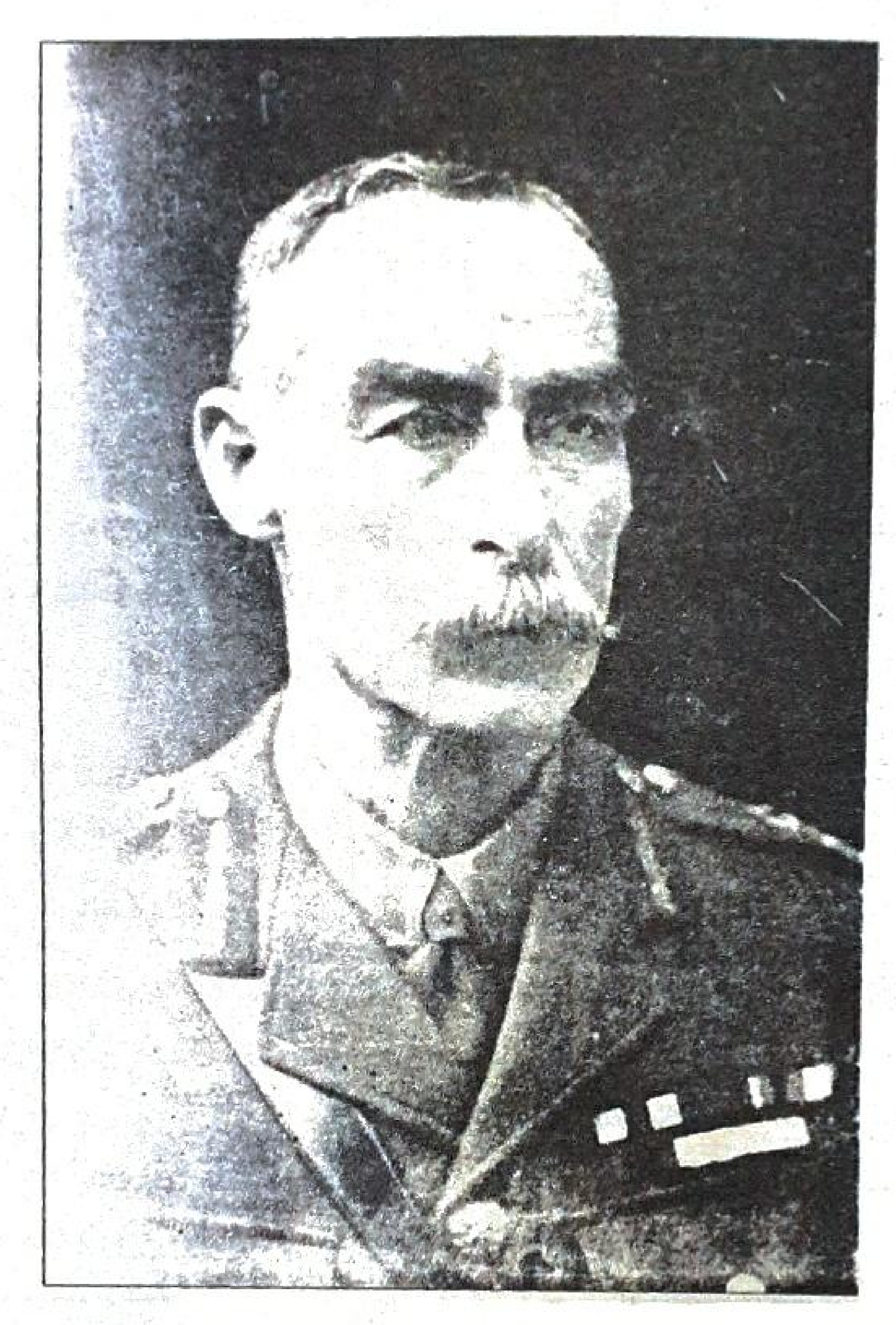
١١ اب ، البصرة :

« يوم امس كان لدينا شخص في غاية اللطف من الدائرة السياسية . انه

---

(٤٠) من اغرب التعابير السياسية . هل ان ابن الرشيد ثعبان هندي حتى يرقص على موسيقى الحواة ؟

(٤١) الى هذا الحد وصل حنق «بيل» . ويبدو ان اخفاق شمر ، وبالتحديد العائلة الحاكمة ، في ازاحة ابن الرشيد هذا كان من بين العوامل التي ادت، فيما بعد ، الى القضاء على وجود العائلة باسرها في حائل . اما شمر فهي قبيلة بدوية يقطن بعضها في السعودية وبعضها في العراق وسوريا . وعرفت امارتهم في جبل شمر باسم امارة شمر او امارة ال الرشيد .



الجنرال بيرسي ليك القائد العام للمرحلة الثانية من الحملة البريطانية على العراق : طار من منصبه بسرعة البرق !

طبيب ابل مشهور في الصحراء ، وقد سمعت عنه في طول الجزيرة العربية وعرضها ، وهو يعرف كل رجل في الصحراء ويعرفه كل رجل ، وبمقدوره الذهاب الى اي مكان بأمان تام ، وذلك بفضل قدرته على معالجة مرض الجرب من اي نوع كان ، لقد نقل الينا اشد الاشاعات تشويقا عن الصحراء ، ورجل مثل هذا كنز كبير فيما يتعلق بجلب الانباء او نقل الرسائل . اعتقد انه لم يعد امام الترك وقت طويل في بلاد ما بين النهرين ، ويبدو ان الحكومة العثمانية قد تفككت وتلاشت في كل مكان ، باستثناء بغداد وعدد قليل من القصبات الاخرى . ان العشائر تفعل تماما ما يحلو لها ولا توجد اية محاولة لكبح جماحها أو السيطرة عليها . لقد سمعت من الجبهة ان الامور تحسنت بدرجة عظيمة ، الحمد للسماء ! اننا نمر الان بأسوأ وقت في هذا الصيف ، ولكن عندما أعود بذاكرتي الى تموز فانني أشرع في التساؤل عن كيفية استطاعة الجيش اجتيازه ، لقد كان مرعبا . .

عدم استقرار

انه لمن المثير حقا أن نعرف رأي «بيل» في استقرار الحكم في العراق ،حتى في ظل الاحتلال البريطاني ، اذ تقول :

١٩ اب ، البصرة :

« حدثت هزة عنيفة اخرى في ملاك الموظفين هنا . ان المراكز العليا في بلاد ما بين النهرين تبدل بسرعة مذهلة تبعث على الدوار ، كما ان المناصب الرفيعة الاخرى غير مأمونة ولا يبدو ان هناك من يستطيع الاحتفاظ بها أمدا طويلا . انني لا اريد ، بأي حال من الاحوال ، ان اصدر حكمي على الحكمة من وراء هذا التبديل بالذات غير انني كنت اعتقد دوما ان الرجل الحالي(٤٢) يفتقر

(٤٢) اللفتنانت ـ جنرال (فريق) سير بيرسي ليك ، القائد العام للجيش الانكليزي في العراق بدلا من الجنرال «نكسون» الذي عزل من منصبه اثناء حصار الكوت في اوائل ١٩١٦ ، وبهذه الهزة التي اشارت اليها «بيل» اصبح الجنرال «مود» قائدا عاما .

الى الهمة الشخصية . لقد كان طيبا للغاية معي بيد أنك لن تستطيع مطلقا اقامة اية صلة انسانية معه ، ولا اعتقد ان ذلك بمقدور اي انسان اخر» .

غير ان هذه التطورات لم تمنع «الخاتون» من ممارسة نشاطها بطريقتها الخاصة :

٢٧ اب ، البصرة :

« انطلقت في الاسبوع الماضي قاطعة مسافة قصيرة على السكة الحديد ، ٢٥ ميلا في الصحراء ـ انها سكة حديد الناصرية ـ ووجدت نفسي وسط مخيم كبير لقبيلة شمر ، ففتحت أذني لسماع جميع اشاعات الصحراء وتقولاتها بالطريقة المألوفة . كان من الغريب ، حقا ، أن اسافر مدة ٥٠ دقيقة بالقطار لاجد نفسي في عالم اخر . لقد وصل الجنرال مود ، قائد جيشنا الجديد ، توا . تعرفت عليه ، لا اكثر ولا اقل .

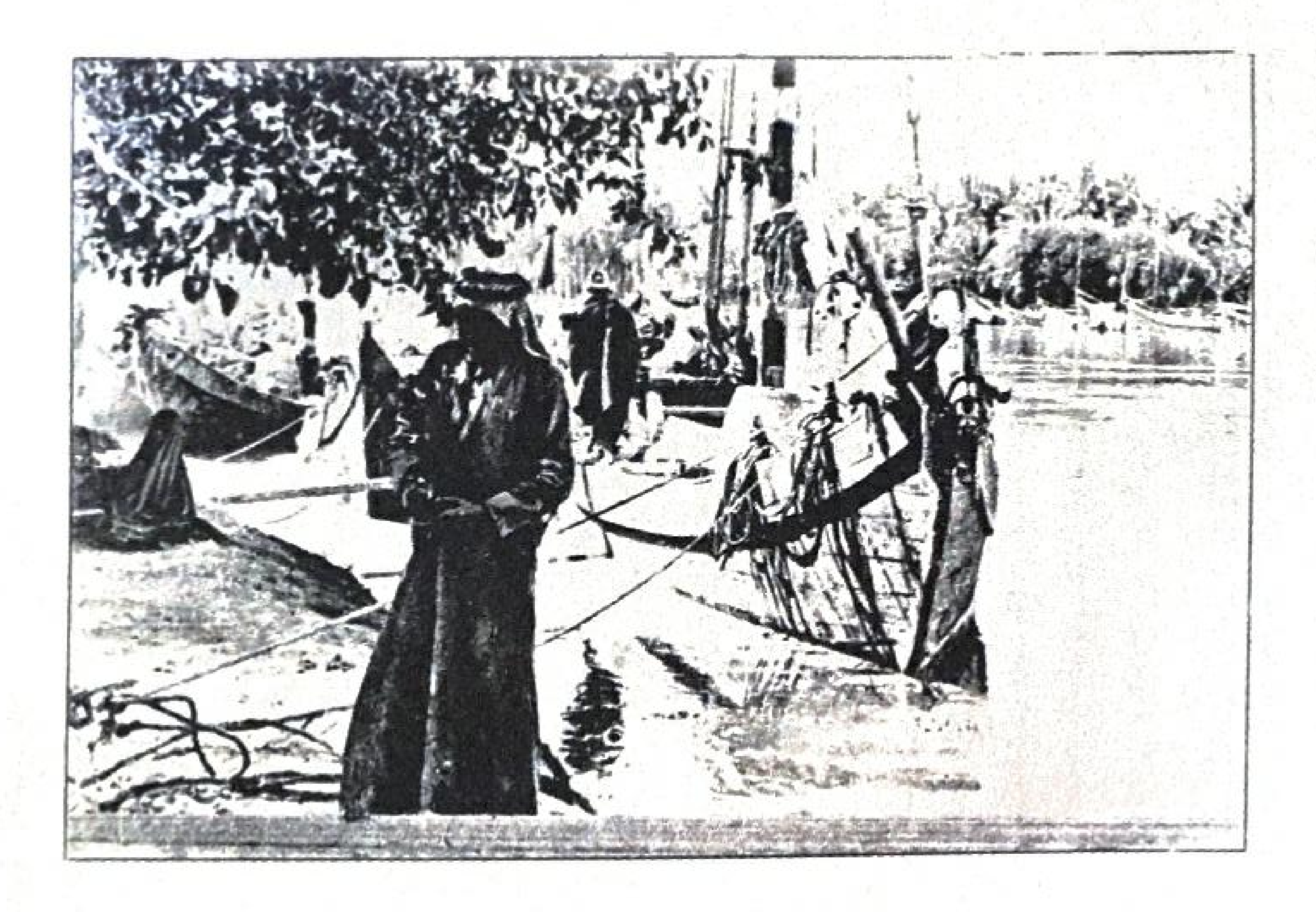
ما زلت متعلقة بعملي الى اقصى قدر ، واعبر عن الشكر البالغ لحصولي عليه» .

السولاب يدور

لم تلبث «بيل» ان وقعت طريحة الفراش بسبب مرض اليرقان . فلما شفيت منه ، عادت الى المستشفى مصابة ، هذه المرة ، بحمى ذباب الصحراء ،وفي غضون ذلك ، اخذت الاستعدادات للزحف شمالا ، نحو «بغداد» بالتكامل . لذا فما ان تماثلت للشفاء حتى كتبت تقول :

٤ تشرين الثاني ، البصرة :

« وفي الدائرة السياسية ، بدأت بجني ثمار الجمع والتصنيف الطويلين والبطيئين للمعلومات ، وهو عمل ما زلت غارقة به دوما . انهم يحيلون لي جميع البرقيات والتقارير التي تتدفق من الالوية مرفقة بالتماسات بابداء ملاحظاتي عن الناس ، والقبائل والاماكن الوارد ذكرها فيها . ومن حسن



الناصرية في صورة الى الجنوب منها ١٩١٦

حظي ، فانني استطيع العثور على معظمها وادراجها . انه امر يسبب لي الغبطة البالغة. والواقع ، فمن الاشياء البديعة ان يكون المرء عصا في دولاب ، بشرط ان يساعد على دوران الدولاب ، لا عرقلته» .

لنستمر .

١٦ تشرين الثاني ، البصرة :

« امضيت خمسة ايام رائعة بعيدا عن البصرة . صعدت مع النهر الى القرنة، واتخذت منها مقرا لقيادتي[٤٣] . انني اقيم في قاربي النهري ، بيد انني امضي سحابة النهار في منزل الضابط السياسي بالنيابة . لقد قابلت عددا لا يحصى من الشيوخ وحصلت على كل المعلومات التي اردت التوصل اليها .»

تسير عمليات الدراسة واستطلاع الامور والاتصال بذوي الاهمية والنفوذ على قدم وساق ، ذلك ان «الخاتون» لا تعرف طعم الهدوء والاستقرار .

٢٣ تشرين الثاني ، البصرة :

« في الواقع ، انني لا اكتب من البصرة ، بل من مكان ما على شط العرب اسفل القرنة ، بعد الذي بدا لي ، اذا استعادت ذاكرتي ما مر بها ، وكأنه سفر هائل ، غير انني سأتحدث من البداية . غادرت البصرة ، ليلة السبت بالسيارة الى ما نطلق عليها اسم ـ محطة القطار الكائنة في نهاية الخط ـ ، فوجدت قطار الليل يأخذ اهبته للرحيل وقد شدت به شاحنة صغيرة من اجلي . جهزت هذه بسرير خيمة ، وكرسي ومصباح مدير المحطة . ومن ثم انطلقنا بعيدا حوالي الساعة السادسة في طريقنا الى اعماق الصحراء . واذا ما قيض لي ، يوما ما ان اعود الى هذه البلاد واسافر الى بغداد بقطار البصرة السريع ، فانني سأتذكر ، وانا اتناول وجبتي الفاخرة في عربة الطعام ، كيف رحلت على الخط لاول مرة في شاحنة للحرس ، واقتصر عشائي على لسان معلب ، وزبدة

---

(٤٣) عجيب.. مقر قيادة لامرأة !

معلبة واجاص معلب على ضوء مصباح مدير المحطة ، اما ما حدث بعد ذلك ، فأمر لا اعرفه ، ذلك انني سرعان ما هجعت في فراشي . وباستثناء الشعور عدة مرات ، وبشكل غير واضح ، بتوقف القطار في الصحراء الشاسعة المزينة بأضواء النجوم ، فانني لم ادرك شيئا على وجه التخصيص الا بعد ان زحف الفجر من خلال نافذتي الضيقة ، فاستيقظت لاجد شاحنتي جامدة خارج معسكر كبير حول محطة للسكة الحديد في قلب بلاد العرب ، اذا اردنا التعبير المطلوب .

كان هذا الريف كله موطن آل السعدون والمؤئل الصحراوي للعائلة الحاكمة في جنوبي بلاد ما بين النهرين ، والتي قدمت من مكة في القرن الرابع عشر ، فتضاعف عدد افرادها الآن بشكل هائل واصبحوا ارستقراطية العراق العظيمة . انهم يقدمون الى هنا في الربيع مع قطعان ابلهم ، ذلك انهم ليسوا مجرد ملاك اقوياء للارض على طول الانهار ، بل انهم البدو الحقيقيون والقبائل الرحالة في المتاهات المكشوفة .

الشيخ الصديق

في الساعة الثامنة ، جاءت سيارة الجنرال بروكنغ وهي تجري على مهل ومعها سيارة حمل . ومن ثم تخبطنا فوق اجمات العشب اليابسة ، التي مزقتها حرارة الشمس بعد ان كانت مغمورة بمياه الفيضان في الربيع ، متجهين نحو الخميسية ، حيث استقر بعض جنودنا منذ أن قدم ابن رشيد في مغامرة عسكرية غير نظامية في الصيف الفائت . والخميسية واحدة من الاسواق في قلب الجزيرة العربية ، لذا فان الذي يسيطر عليها انما يتحكم في القبائل كما اكتشف ابن رشيد بعد ان دفع الثمن . ابنية مشيدة من الطين ومكان صغير قذر ؟ هذه هي الخميسية التي تسقى من قناة صغيرة من الفرات تسير داخل البلدة ثم الى الساحة المحاطة بأسوار ، حيث تنزل القوافل عندما تنحدر من جبل الشامية .

شققت طريقي بالسيارة الى داخل معسكرنا مباشرة حيث اصطحبت



ابن سعود (في الوسط) عند قدومه الى البصرة اواخر ١٩١٦ وبيلو كوكس الى يساره ثم خزعل شيخ المحمرة بينما يسير شيخ الكويت وامير البحرين الى يمينه ٠

الجنرال تيدسيل ، القائد ، وطلبت منه ان يأخذني في جولة داخل البلـــد • وهناك اجتمعنا مع شيخ الخميسية ، وهو صديق لي ، وبناء على دعوته الملحــة توجهنا الى منزله حيث ارتشفنا فنجانا من القهوة • كان لديه ضيف ، الشيــخ حمود من عشيرة الظفير ، احد اصدقائنا من البدو ، فاتخذنا مجلسنا برهة مــن الوقت ونحن نصغي الى احدث واخر اخبار الصحراء والتي قمت بترجمتهـــا للجنرال • لم التق بحمود من قبل ، رغم انه واحد من الشيوخ الذي سمعت عنهم كثيرا عندما كنت عائدة من حائل» •

ريشـــة طويلـة

بعد زيارة خاطفة للناصرية بناء على دعوة من الجنرال «بروكنغ» كتبـــت تقول :

٢٥ تشرين الثاني ، البصرة :

« انني اعود ادراجي لمواجهة احداث في منتهى الاثارة بالنسبة لي هنا ان السير بيرسي يمضي قدما في تنفيذ خططه الرامية الى عقد دوربار(٤٤) بديـع لشيوخ العرب في الكويت ، ومن المقرر ايضا ان يقوم ابن سعود بزيارتنا هنا • انني ادرك اهمية ما سيحصل وهذا هو السبب في عودتي على عجل من الناصرية، ان المسألة ، بأسرها ، تستحق ان تكون ريشة طويلة في قبعة السير بيرسي •

« انني منهمكة في العمل الى اقصى حد اذ يتدفق الشيوخ ورجال القبائل ووجهاء المدن على طوال النهار وكذلك صانعو الخرائط ، وكل هذا ممتـع للغاية ، بيد انني اتمنى لو كان لدي مزيد من الساعات في اليوم ••

الاول من كانون الاول ، ١٩١٦ ، البصرة :

« امضينا يوما ممتعا بشكل غير معهود مع ابن سعود ، وهو واحد من أشد

---

(٤٤) - durbar - كلمة هندية كانت في الاصل تعني : حفلة رسمية يقدم فيها الرعايا عهد الولاء لامير هندي ، ثم صارت : مجلس يقدم فيـه الامراء الوطنيون (اي الاهالي) عهدا بالولاء للعاهل البريطاني •

الشخصيات التي قابلتها في حياتي اثارة للانبهار والدهشة • انه بديع عندما يتطلع المرء اليه ؛ فطوله يتجاوز ستة اقدام ونصف اضافة الى قدر هائل من قـــوة الشخصية والتحكم في الذات • اصطحبناه في القطارات والسيارات ، أرينــــاه الطيارات والمتفجرات الشديدة ، والمدافع المضادة للطائرات ، والمستشفيـــات ومخازن القاعدة العسكرية ، وكل شيء ، كان مليئا بالتعجب لكنه لم يصـــب بالذهول ، وجه عددا لايحصى من الأسئلة وعبر عن تعليقات تنم عن الذكــــاء والفطنة • انه رجل كبير» •

أهذا الوصف الشاعري هو كل شيء ؟ ترى لماذا جاء ابن سعود للبصرة وما علاقته بالانكليز ؟ تترك الاجابة للمس «بيل» ذاتها التي تقول في مذكـــرة رفعتها الى السكرتير السياسي لوزارة الهند في لندن عن طريق السير بيرســـي كـــوكس :

خبـز البـؤس والفاقة

« ان الزيارة التي قام بها ابن سعود للبصرة في ٢٧ تشرين الثاني كانـــت ظاهرة عرضية في الحملة على بلاد ما بين النهرين لاتقل روعتها بالنسبة للذيـــن شاهدوها عن الاهمية التي اكتسبتها في رأي اولئك الذين درسوا مجرى السياسة العربية • وذلك يعود الى ان تاريخ شبه الجزيرة العربية طوال القرن المنصرم قد تركز حول الخصومة والمنافسة بين اميري شمالي نجد وجنوبيها ؛ ابن رشيد وابن سعود •

وعندما كان ابن سعود ، الممثل الحالي لبيت سعود صبياً في الخامســـة عشرة ، وصلت سطوة آل الرشيد ذروتها ، ذلك ان الامير محمد العظيم قد أبعـد آل سعود الى المنفى بعد ان احتل عاصمتهم ، الرياض • وطوال احد عشر عامـا عاش عبد العزيز على خبز البؤس والفاقة ، ولكن في عام ١٩٠٢ رأى شيـــخ الكويت ، وهو شخصيا على عداء مع ال الرشيد ، في الامير الشاب سلاحا يبعث



شكسبير المعتمد السياسي لدى الكويت ١٩١٥ : الكابتن الصديق .

على الأمل فاعطاه فرصته، وبقوة تقارب ثمانين فارسا ، مجهزين من قبل الكويت ، انقض عبد العزيز على الرياض ، وباغت حامية ابن رشيد ، وذبح ممثله ، واعلن ارتقاءه الشخصي دست السلطة .

الكابتن الصديق

لم ينته الصراع بالاستيلاء على الرياض ، ففي معارك تجددت عاما بعد عام ، استعاد عبد العزيز اراضي آبائه وحقق لنفسه شهرة ملأت الصحارى بالاصداء . وطوال عام ١٩١٣ ، دفعته طاقته التي لا تعرف الراحة او الهدوء ، الى مجالات ذات اهمية سياسية أوسع . فاستولى على مقاطعة الاحساء من الاتراك وطرد الحاميات العثمانية واوجد له موقعا على ساحل الخليج (العربي) . كان بالفعل قد أقام صداقة شخصية مع الكابتن شكسبير ، وكيلنا السياسي في الكويت . ولم يكن هناك أي شك في ان ظهوره على الساحل لابد وان يدفعه ، في خاتمة المطاف ، الى الاتصال المباشر مع بريطانيا . غير انه قبل ان تتم التسوية الصعبة بشأن علاقته المطلوبة مع الاستانة ، فان اندلاع الحرب مع تركيا قد انقذنا من جميع التزاماتنا التي تقضي باتخاذ موقف محايد .

وفي شتاء ١٩١٤-١٩١٥ ، شق الكابتن شكسبير طريقه ثانية الى داخل نجد وانضم الى ابن سعود ، الذي كان يزحف شمالا لرد هجوم ابن الرشيد الذي دبره الترك وساندوه . التقت القوتان حوالي نهاية كانون الثاني في اشتباك غير حاسم اصيب في غضونه الكابتن شكسبير ، الموجود باعتباره غير مقاتل ، بجراح اسفرت عن موته ، غير ان اعماله عاشت بعده . فبعد أقل من عام على ذلك ، اجتمع ابن سعود مع السير بيرسي كوكس ، الضابط السياسي الرئيس في الاراضي المحتلة والوكيل السياسي الرئيس في الخليج ، وعقد اتفاقية رسمية مع بريطانيا . ولقد ثبتت علاقته الوثيقة معنا علنا في دربار للشيوخ العرب عقد في الكويت في ٢٠ تشرين الثاني حيث انعم عليه بوسام قائد الفرسان لامبراطورية الهند .

معونة شـــهرية

وفي تلك المناسبة التي لاتنسى ، وقف ثلاثة من الرؤساء العرب الاقوياء ، شيخ المحمرة ، وشيخ الكويت وابن سعود ، حاكم نجد ، وقفوا جنبا الى جنب في صداقه واتفاق، واعلنوا موالاتهم للقضية البريطانية •وفي خطاب ارتجالي غير متوقع ، اشار ابن سعود الى أنه بينما سعت الحكومة العثمانية من اجل تمزيـــق الأمة العربية واضعافها ، فان السياسة البريطانية تهدف الى توحيد قادتهـــا وتقويتهم[٤٥] • ويجب ان الضابط السياسي الرئيس قد عاد بأفكاره ، وهـــو يصغي الى الكلمات التي ستكرر وتناقش حول نار كل مخيم ، الى سنوات العمل الصبور في الخليج وادرك انها كانت طيبة ••

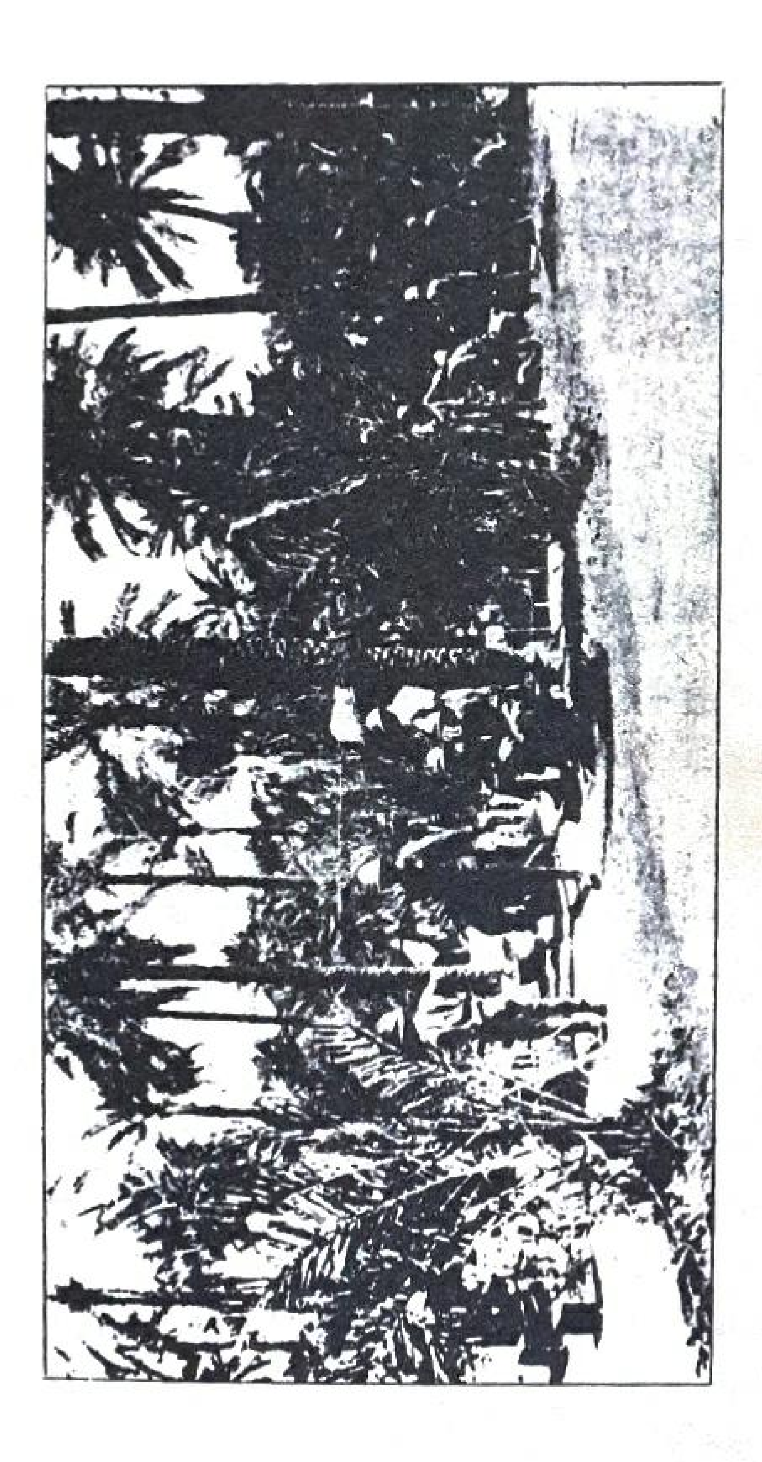
على أية حال ، لم يكن هذا كل شيء : «تقبل ابن سعود دعوة الســـير بيرسي لزيارة البصرة ، باعتباره ضيفا عليه وعلى القائد العام • كانت تلك اول تجربة له بالسفر الى الخارج ، وبالتالي فأنه تأثر بمشهد ذلك القدر الهائل من معدات الحرب الحديثة ، وفي ذات الوقت ، فمن الجائز أن يكون اكثر تأثـــرا بالحقيقة التي مفادها ان افضل مضيفيه معرفة واطلاعا كانت مجرد أمرأة ، جير ترود بيل ، لاغيرها •

اما الحصيلة العملية لهذا الشهر من الاتصالات على مستوى عال ، فقـــد كانت اتفاقية يحصل ابن سعود بموجبها على معونة شهرية مقدارهـــا ٥٠٠٠ر٥ جنيه استرليني ، الى جانب اربعة مدافع رشاشة و٠٠٠ر٣ بندقية مع كميـــات وفيرة من الذخيرة ، على اساس الادراك انه سيحافظ على قوة تعدادها ٠٠٠ر٤ رجل تظل عاملة في الميدان ضد ابن رشيد وتهاجم عاصمته[٤٦] •

---

(٤٥) نستطيع ان ندرك الطبيعة الحقيقية لهذه السياسة من المصير الذي حـــل بشيخ المحمرة بعد الحرب •

(٤٦) Philby, Harry St John, Sa'udi Arabia, London Bear, 1955. P. 274.



الجنود الانكليز والهنود في سوق شعبي اقيم على عجل باحد بساتين « البصرة » بعد احتلالها .

الفصل الثاني

شاب وسيم في مهمتين سريتين

في ٢٩ اذار ، ١٩١٦ ، هبطت البرقية التالية على مقر قيادة الحملة البريطانية على بلاد ما بين النهرين وهي تحمل توقيع السير «وليام روبرتسون» ، رئيس هيئة الاركان الامبراطورية العامة : «افتحوا الخط ١٤٨٩٥ بالشفرة، منتهى السرية ، وموجه لك (القائد العام) شخصيا • من المقرر ان يصل الكابتن لورنس الى البصرة حوالي ٣٠ اذار قادما من مصر للتشاور معكم ومعرفة ما اذا كان بالمستطاع شراء واحد من القادة الاتراك لجيش ما بين النهرين مثل خليل باشا أو نجيب[١] لغرض تسهيل انقاذ طاوزند • لهذا الغرض ، أنت مخول بصرف اي مبلغ لا يتجاوز مليون جنيه • نظرا لعدم توفر شخص مناسب من الاهالي بالسرعة المطلوبة فان لورنس يتوجه وحيدا ولكن من الجائز العثور على وسيط ملائم في البصرة» [٢].

وقع هذا النبأ المباغت وقع الصاعقة على القادة العسكريين للحملة ، ولم يقتصر ذلك عليهم بل امتد الى السير «بيرسي كوكس» الذي اعتبر العملية اكثر أذى بالنسبة لهيبة بريطانيا من استسلام الحامية • ومما زاد من حيرة المسؤولين العسكريين والسياسيين في المناطق المحتلة من العراق ان البرقية لم توضح ما اذا كان المبلغ موجها للاستعمال الشخصي من جانب «خليل باشا» ، أو الى عمه «أنور باشا» وزير الحربية ، او للحكومة التركية • وفي الحالة

---

(١) مساعد «خليل باشا» ، وكان يحل محله في قيادة القوات التركية عندما تكون لدى الاخير مشاغل او عند حصوله على الاجازة بعيدا عن ميدان القتال•

(٢) PRO, FO, 882/13.
وتعني دائرة السجلات العامة / وزارة الخارجية (البريطانية) •

الاخيرة فانه كان سيستخدم لاطالة امد الحرب ضد دول الحلفاء ، ومع ذلك ما كان هناك من شيء يقف في وجه «لورنس» الذي التزم جانب الصمت التام حول مهمته •

ذهـول

جاءت الفكرة ، في البداية ، من اللورد «كتشنر» وزير الحربية و «الجندي الاول في الامبراطورية» على حد تعبير احد المصادر البريطانية ، وانه هو الذي اصدر تعليماته بهذا الصدد الى الجنرال «روبرتسون» • ومما اثار حنق كل الذين عرفوا بالامر ، وذهولهم ، ان «لورنس» كان ضابطا صغيرا في «المكتب العربي» بالقاهرة اذ لم تتجاوز رتبته «نقيب» كما انه لم يتجاوز الثامنة والعشرين •

غادر «لورنس» القاهرة في ٢٢ اذار الى «السويس» حيث استقل سفينة اتجهت به عبر «البحر الاحمر» الى «البصرة» ، حيث كانت المس «بيل» أول من يلتقي به مما سبب له السرور • لكن موقف الاخرين منه بدا له غريبا ،ويبدو ان البرقية الموجهة الى القيادة العامة ، او فكرة عامة عنها على الاقل ، قد تسربت بشكل او بآخر ، اذ يقول : «أبدى البريطانيون المقيمون اقوى معارضة لقدومي، وكان اثنان من الجنرالات من الطيبة بحيث اوضحا ان مهمتي (التي لايعرفان عنها شيئا في الواقع) كانت غير مشرفة بالنسبة لاي جندي (وانا لم اكن كذلك) »(٣)•

قد يتصور القارىء ، من سياق الاحداث ، ان المهمة السرية الوحيدة التي جلبت «لورنس» الى العراق كانت محاولة انقاذ «طاوزند» ورجاله عن طريق

---

(٣) T. E. Lawrence, Seven Pillars of Wisdom, London, Cape, pp. 59-60.

على الرغم من ان «لورنس» يحمل رتبة «كابتن» اي «نقيب» فانه كان يرى ان طبيعة عمله سياسية وان الرتبة تقديرية وكان يرتدي البدلة العسكرية احيانا •



لورنس : حاول اشعال نار الثورة ضد الترك من العراق

الرشوة . لكن الواقع غير ذلك ، فقد كانت في خبايا دماغه ، مهمة سرية اخطر من هذه بكثير ، ولو ان النجاح حالفه فيها لما كان بحاجة للذهاب الى «الكوت» ولربما جلب ذلك معه تغيرا لايمكن التنبؤ به ، ليس في العراق وحده ، بل في المنطقة بأسرها ! لقد جاء «لورنس» بأمر عظيم !

كسب الزمن

من الافضل ، عند هذه المرحلة ، ترك «لورنس» يتحدث : «ولقد تبين لي، من خلال زيارتي هذه ، ان الظروف مواتية للشروع في تنفيذ حركة عربية مناهضة للاتراك . كان سكان النجف وكربلاء ، البعيدون عن مؤخرة جيوش خليل باشا ، ثائرين ضده ، كما كان الجنود العرب في جيشه يجهرون بالكراهية لتركيا . وكان باستطاعة قبائل الحي(٤) والفرات ان تبدل مجرى الحوادث في العراق اذا هي شعرت بشيء من العطف والتفهم لأمانيها ، ولو نشرنا وعدا مماثلا لذلك الذي اعطيناه للشريف (حسين) ، وحتى لو اعلنا نفس البيان الصادر فيما بعد في بغداد المستولى عليها(٥) وتابعناه ، لكان قد انضم الينا ما يكفي من الرجال المحليين المقاتلين لشن الغارات على خط المواصلات التركي بين بغداد والكوت .

وبعد عدة اسابيع من هذه العمليات ، فان العدو يكون ملزما اما برفع الحصار والتراجع ، أو أنه نفسه سيتعرض ، خارج الكوت ، الى حصار اقسى من حصاره لطاوزند داخلها . كان بالمستطاع ، وبسهولة ، كسب الزمن لتطوير هذا المشروع ، ولو أن القيادة في بلاد ما بين النهرين قد حصلت من وزارة الحربية على ثماني طائرات اخرى لزيادة النقل اليومي من الطعام الى حامية الكوت ، لطالت مقاومة طاوزند الى امر غير محدود . كان دفاعه حصينا بالمقاييس التركية، ولم يفرض عليه الاستسلام الا بفعل الاخطاء الفادحة في الداخل والخارج»(٦).

---

(٤) على نهر «الغراف» المتفرع عن «دجلة» باتجاه «الناصرية» .

(٥) يقصد البيان الصادر عن الجنرال «مود» بعد دخوله بغداد في ١١ اذار ١٩١٧ ، وستاتي تفاصيله كاملة .

(٦) ويقصد داخل «العراق» وخارجه .

الاكـــرم الافخـــم !

لقد دقت ساعة الشروع بالعمل . هنا تبرز مشكلة يواجهها كل مــؤرخ ينشد الحقيقة . ذلك ان «لورنس» لم يتطرق في كل ما كتب ، على كثرته ، الى تفاصيل ما قام به ولا الاشخاص أو الجهات التي ارتأى انها المناسبة لانجـــاز هذه المهمة ، بل اكتفى بالاشارة العابرة(٧) . ومن حسن الحظ أنه يوجد شاهد واحد ، وواحد فقط ، هو «سليمان فيضي»(٨) الذي يكشف لنا النقـــاب ، في مذكراته ، عن سر مذهل فات سائر المؤرخين اذ يقول : «في الساعة التاسعة من صباح الجمعة ٧ نيسان ، ١٩١٦ ، بينما كنت جالسا في مكتبي التجاري دخــل علي رجلان احدهما المدعو الياس يلدا من اهالي البصرة ، وثانيهما شـــــاب مصري لم أعرف اسمه ، وقدما الي الكتاب التالي :

البصرة ٧ ابريل ١٩١٦

لحضرة الأكرم الافخم سليمان فيضي أفندي المحترم

أسعد الله اوقاتكم . بعده ارجوكم تشرفون الى محلي اليوم نومــرة ٦ درب الاعوج(٩) في العشـار لاجـل المواجهـة ودمتـم .

C.C. More, Capt.
General Staff, Intelligence.

دائرة الاخبـــار العسكرية

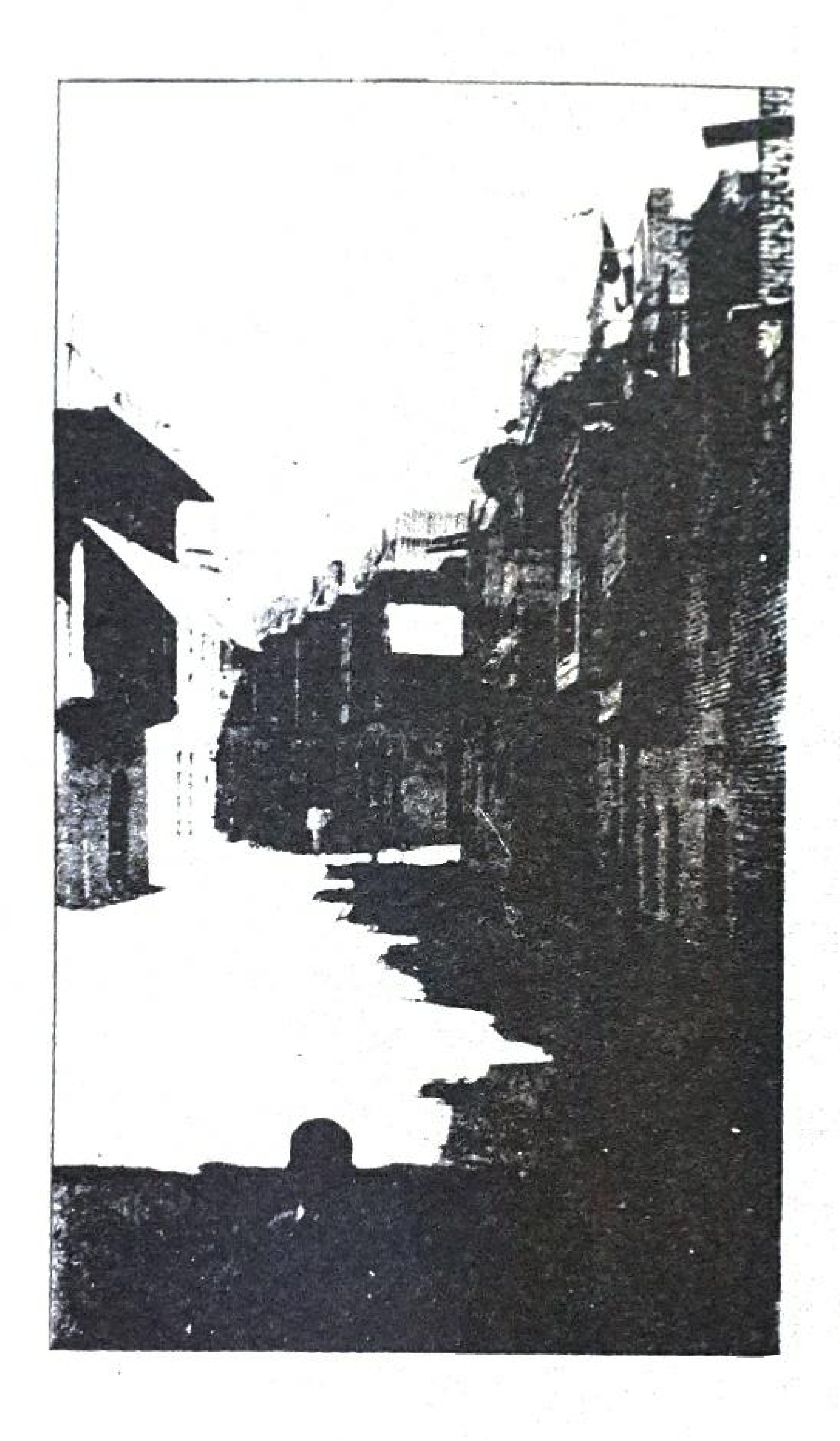
والكابتن مور هذا كان قبل عهد الاحتلال قنصلا لبريطانيا في الكويـــت ،

---

(٧) ان الذي حدا بنا الى وضع هذا الفصل عثورنا مؤخرا على برقية موجهة منه الى المكتب العربي ومنها نسخة الى وزارة الخارجية ، وستأتي التفاصيــل فيمــا بعــد .

(٨) ١٨٨٥–١٩٥١ ، من مواليد الموصل ، تلقى تعليمه فيها وفي بغداد ثــم في اسطنبول . كاد ان يصبح ضابطا لولا فصله ظلما حسب رأيه . انتمى الى مختلف الجمعيات والتنظيمات القومية العربية السرية . استقر فـــي البصرة وصار من اهلها . مارس الوظيفة والصحافة والتجارة ، صار عضوا في مجلس المبعوثان العثماني ومجلس النواب العراقي ثم اعتزل .

(٩) أي : الدار رقم ٦ ، الشارع الاعوج .



«درب الاعوج» في البصرة وتبدو دائرة الاخبار العسكرية الى اليمين وفوقهـــا العلم البريطانـــي .

ولم تكن لي به معرفة سابقة ، فلا غرو ان يثير كتابه هذا مخاوفي في زمن كان فيه الرجال يساقون الى السجن والمنافي سوق الاغنام الى المجازر •

بهـي الطلعة

توقفت العربة امام بناء قديم ، فترجلت وزميلاي ودخلنا الدار • فطلبا مني الانتظار برهة في فنائها ريثما يشعران الكابتن بحضوري • وما أسرع ما خرج هذا فاستقبلني بالترحاب ، ثم ادخلني الغرفة •

كانت الغرفة فسيحة ، صفت في جانب منها بضعة كراسي حول طاولة صغيرة ، ووضعت في الجانب الاخر منضدة الكابتن مور • وكان واقفا بجوار الطاولة ضابط اخر بهي الطلعة برتبة كابتن ، يحلي كتفيه بشارات الاركان القرمزية ، افتر ثغره عن ابتسامة عريضة غير متكلفة • قدمني الكابتن مور اليه ثم قدمه الي قائلا :ــ اقدم اليك الكابتن لورنس الذي طلب تنظيم هذه المقابلة الخاصة والتي اعتقد انها على جانب من الخطورة والاهمية •

فتقدم لورنس وصافحني مصافحة تنم عن صداقة اكيدة خالصة ، وراح يرحب بي ويعبر عن اشتياقه الشديد للتعرف بي ، وتلهفه لهذه المقابلة ، كل ذلك بلهجة مصرية متقنة تكاد لاتدرك اللكنة الاجنبية فيها الا بعد لأي •

اما انا فقد زايلني الكابوس الذي استولى على مشاعري في الطريق الى هذا المكان ، وبدأت الطمأنينة تتسرب الى نفسي تدريجيا ، وباشارة من لورنس غادر الكابتن مور الغرفة واغلق خلفه الباب ، فبقينا نحن الاثنين وحدنا •

لم تكن الثورة العربية قد نشبت في الحجاز حتى ذلك الحين ، ولم اكن اعلم من امر لورنس شيئا ، فقد كانت اعماله واتصالاته في الحجاز والجزيرة العربية تحاط بالكتمان قبل نشوب الثورة • اما الشهرة التي اكتسبها لورنس ، واخباره العجيبة ، ومغامراته الجريئة ، فقد ذاعت بعد الثورة المذكورة في ١٠ حزيران عام ١٩١٦ ، اي بعد مقابلتي له بشهرين •

وبعد انفرادنا في الغرفة جرت بيننا المحادثة التالية اسوقها الى القـــارىء الكريم بأمانة • ورغبة مني في الاختصار فسوف أرمز الى لورنس بالحرف «ل» والى اسمي بالحرف «س» :

ل ـ اني وصلت البصرة هذا الصباح قادما من مصر لغرض الاتصال بـك شخصيا ، لذا طلبت حضورك الى هنا حال وصولي •

س ـ اشكرك ، وارجو ان تسامحني اذا سألتك عما اذا كان احدنا قـــد تشرف بمقابلة الاخر قبل اليوم •

ل ـ كلا ، لم يسبق ان تعرف احدنا على الاخر ، ولكني اعرفك جيــدا ، أو بالاحرى اعرف عنك الشيء الكثير ، خاصة عن اعمالك •

س ـ كيف ولماذا عرفتني ؟ ثم ما الذي تعنيه بأعمالي ؟

ل ـ اعني اعمالك السياسية ، قلت اني أعلم كل شيء عنك فأرجـــو ان تخبرني بالحقيقة كاملة ، حدثني عن جمعية العهد[١٠] ومدى قوتها •

س ـ لاتوجد جمعية بهذا الاسم أو غيره ، كما واني لم اسمع عن وجود أية جمعية في البصرة منذ الاحتلال •

ل ـ ارجو الا تخفي عني شيئا •

س ـ تأكد انه لم يبق لتلك الجمعية أو لغيرها أثر في عهد الاحتـــلال ، كما وانني شخصيا نفضت يدي من كل موضوع يمت الى السياسة بصلة ، وقد حصرت جل همي في اشغالي التجارية واموري الخاصة •

---

(١٠) تاسست هذه الجمعية على يد «عزيز علي المصري» عام ١٩١٣ وانخرط في صفوفها جماعة من الضباط والطلبة العرب وامتازت بكثرة العراقيــين ونشاطهم فيها • وبينما ورد في منهاج الجمعية ان غايتها الســـعي وراء الاستقلال الذاتي للعرب عن الدولة العثمانية ، او اقامة اتحاد فدرالي بين العرب والترك ، فان بعض المصادر تقول انها هدفت الى تحقيق الاســتقلال العام للعرب • كان للجمعية فرع في بغداد واخر في البصرة •



لورنس متنكرا بزي امرأة شركسية قبل انطلاقه للتجسس خلف الخطوط التركية اثناء القتال في جبهة الشام ٠

ل ـ الم تكن قبل الحرب نائبا معارضا للاتحاديين في مجلس النواب العثماني ؟

س ـ نعم كنت •

ل ـ الم تكن منتسبا الى حزب اللا مركزية وجمعية العهد ؟

س ـ نعم كان ذلك قبل الحرب اما الان ••

ل ـ الم تعمل على بث الفكرة القومية العربية في العراق لا سيما في الموصل ؟

س ـ نعم هذا صحيح •

ل ـ أخا لك لاتزال حذرا مني ، فلكي أزيل هذا الحذر ابلغك تحيات بعض اصدقائك ، الذين طالما اثنوا على كفاحك في سبيل القضية العربية ، وأطروا جهادك في مضمار القومية ، مما حدا بي الى مقابلتك والاعتماد عليك لانجاز مهمتي الخطيرة ، اما اولئك الاصدقاء فهم عزيز علي ، والسيد رشيد رضا ، ورفيق العظم ، وحقي العظم ، وحسن خالد الصيادي •

هذا تواضع

س ـ اشكرك على ثقتك بي ، كما اشكرهم على حسن ظنهم وجميل ثنائهم ، اني في الحقيقة لم اقم بعمل يستحق الذكر •

ل ـ هذا تواضع • على كل فاني ارجو ان تكون الان في غاية الاطمئنان ، وان لا تخشى بأسا • اني أثق بك واصدق كل ما تقوله ، فأخبرني عن جمعياتكم وعن مدى قوتها • انك تعلم اننا اعداء الترك ، وزيادة على ذلك فاني اعاهدك على كتمان المعلومات السرية التي سوف تدلي بها الي •

س ـ تأكد انه لاتوجد الان في البصرة أية جمعية ، وكل ما ذكرته كان قبل الحرب •

ل ـ ما مدى اتصالك بعزيز علي ؟

س ـ لم يسبق لي ان قابلته ، وانما تجمعني واياه رابطة المبدأ . عرفته قبل ان يعرفني لصيته الذائع . اما هو فقد عرفني يوم سجن في الاستانة وحكم عليه بالموت ، فكان فريق من اصحابه ، وبعض اقربائه ، ولفيف من اعضاء جمعية العهد والضباط العرب يجتمعون في داري بالاستانة لتدبير امر نجاته ، حتى يسر الله أمر خروجه من السجن وسفره الى مصر .

ل ـ كيف ومتى عرفت السيد رشيد رضا ورفيق العظم وحقي العظم وحسن خالد ؟

س ـ تعرفت بالسيد رشيد رضا حينما زار البصرة قبل خمس سنين ، ثم التقينا مرارا في مصر . اما الاخرون فقد تعرفت عليهم اثناء زيارتي لمصر في طريقي الى الأستانة . هذا علاوة على الاتصال الكتابي والمراسلة المستمرة التي كانت بيني ، بصفتي سكرتيرا للجمعية الاصلاحية ولحزب الأئتلاف وبينهم بصفتهم اقطاب الفكرة القومية .

ل ـ ما هي علاقتك بياسين الهاشمي .

س ـ انني اعرفه مذ كنا طلابا في المدرسة ، ثم توثقت صداقتنا عندما ذهبت الى الموصل عام ١٩١٣ لغرض تأسيس جمعية اصلاحية فيها ، ولبث الفكرة القومية العربية بين ابنائها . وكان ياسين في ذلك الوقت قائدا لحامية الموصل ، وكان هو الاخر متحمسا للفكرة ، فكان يعينني في مهمتي ويسهل لي الاجتماع بالضباط العرب سرا .

ل ـ أتدري اين هو الان ؟

س ـ كـلا .

ماذا عن الشريف ؟

ل ـ انه في أدرنة قائدا لحاميتها . وقد ارسلته الحكومة الاتحادية الى



عزيز علي المصري (الوسط) اثناء محاكمته في القاهرة عام ١٩٤٢ بتهمة محاولة الهرب الى العراق للمساهمة في ثورة مايس ١٩٤١ : مؤسس جمعية العهد وقطب الضباط العرب .

هناك بعد ان افتضح امر انتمائه الى جمعية العهد •

س ـ لم اكن اعلم بذلك •

ل ـ اتعرف نوري الشعلان ؟

س ـ كــلا •

ل ـ ماذا تعرف عن محمد النجيفي من اهالي الموصل ؟

س ـ اعرفه فهو من وجهاء الموصل •

ل ـ انه اتحادي اليس كذلك ؟

س ـ حينما كنت في الموصل علمت انه اتحادي ، كذلك كان الكثيرون غيره •

ل ـ هل تربطك بالامير عبد العزيز السعود معرفة أو صداقة ؟

س ـ عرفته شخصيا منذ سفرتي الى نجد بصحبة السيد طالب النقيب • لقد نزلنا في ضيافته ولقيت منه محبة وتوددا ، حتى انه فاتحني اكثر من مرة طالبا بقائي في خدمة امارته ، فاعتذرت •

ل ـ هل تعرف الشريف حسين شريف مكة ؟

س ـ نعم قابلته مرتين او ثلاثة في مكة سنة ١٩١٠ اثناء وجودي لاداء فريضة الحج •

ل ـ هل تعرف أحدا من اولاده ؟

س ـ تعرفت على الشريف فيصل نائب جدة في مجلس النواب العثماني حين كنت نائبا عن البصرة ، ورأيت الشريف عبد الله في مكة والاستانة دون ان يحصل بيننا تعارف •

ل ـ اتدري اين الشريف فيصل الان ؟

س - كــلا .

ل - انه الآن في الشام .

س - لي اصدقاء كثيرون هناك مثل محمد كرد علي واخوانه ،وشكيب ارسلان ، وفوزي العظم ، وشكري العسلي ، وعادل ارسلان ، وبديع المؤيد ، وعبد الحميد الزهراوي ، وسليم الجزائري ، وفارس الخوري ، ومحمد بيهم، وسلام علي سلام ، واحمد طبارة ، والشيخ عباس الازهري ، وبشير القصار ، وعبد الغني العريسي ، وطه المدور ، وعمر حمد ، وعبد الكريم قاسم الخليل ، وغيرهم(١١) .

ل - هل تعرف عبد الرحمن باشا اليوسف ؟

س - نعم .

ل - كيف ترى وضع الضباط العرب في الجيش العثماني الآن ؟

س - اعتقد ان اكثرهم غير مرتاح من الترك .

عاضدني !

ل - هل تعلم السبب الذي حدا بي الى القدوم الى البصرة لمقابلتك ؟

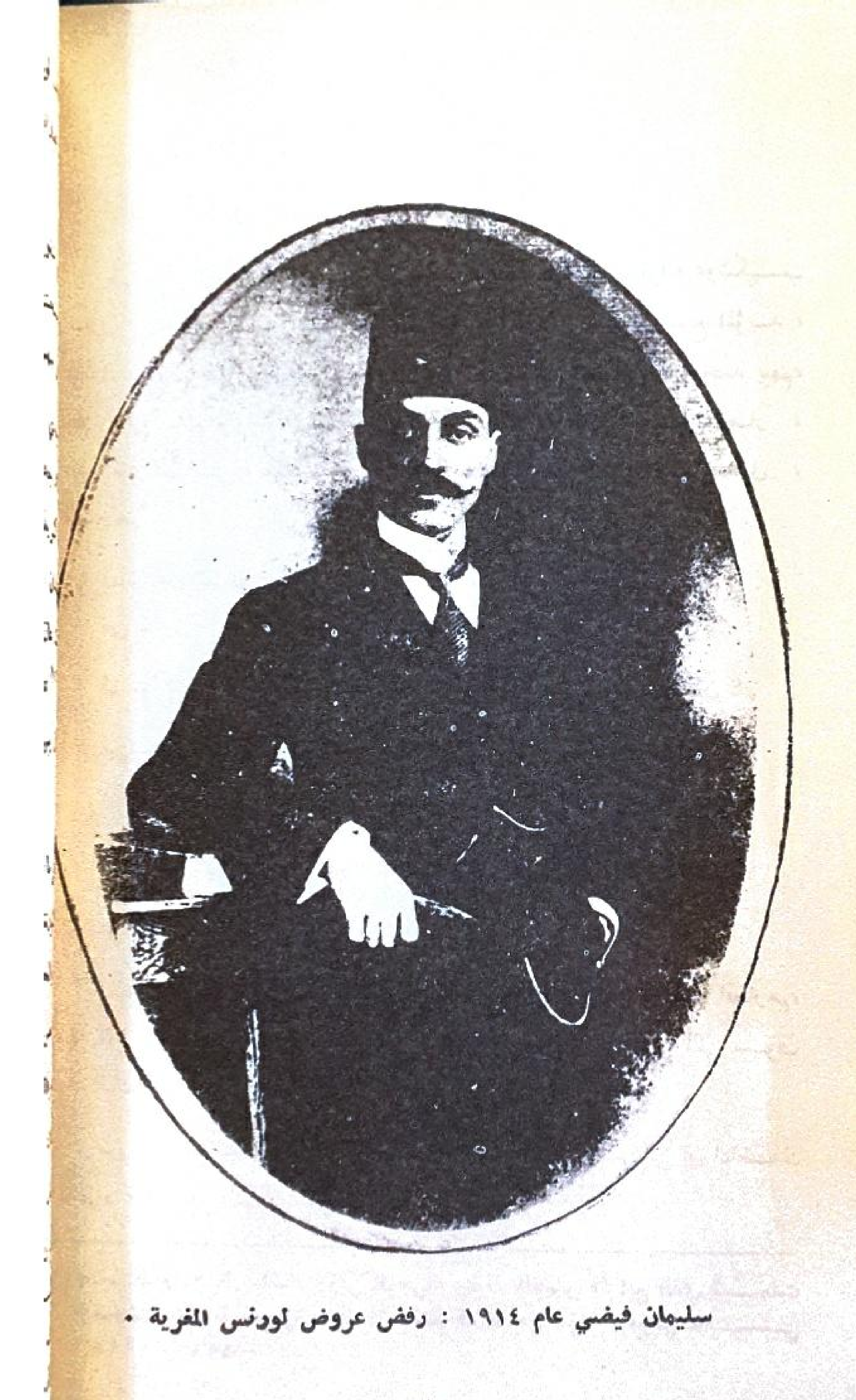
س - لا ابدا .

ل - غاية جليلة ، فيها استقلال بلادك وسعادة العرب في مختلف اقطارهم، وفيها تقدمك معنويا واستفادتك ماديا اذا عاضدتني وانجزت المهمة التي سوف اعهد اليك القيام بها .

س - حبذا سعادة البلاد واستقلالها ، ولكن كيف يتسنى لي ان اعاضدك وانا فرد ، وما هو العضد الذي ترتجيه مني يا ترى ؟

---

(١١) استطاع «جمال باشا» وزير البحرية وقائد الجيش الرابع الذي شملت سلطته بلاد الشام والحجاز ان يعدم قسما من هؤلاء وغيرهم عامي ١٩١٥ و١٩١٦ .



سليمان فيضي عام ١٩١٤ : رفض عروض لورنس المغرية .

وهنا اعتدل لورنس في جلسته ، واطرق قليلا كمن يستجمع شتات افكاره ليصوغ عبارات الحديث الخطير الذي سوف يدلي به ، ثم تابع حديثه قائلا :ــ

ل ــ اني شغوف بحب العرب ، مفتون بسجاياهم ، حريص على كل ما ينفعهم ، وقد سنحت لي الفرصة الان لتحقيق امنيتي بتقديم خدمة عظيمة اليهم، وخاصةالعراقيين منهم ، بأن اعمل على انالتهم استقلالهم .

انها يا سيدي فرصة ذهبية ، ذلك ان اكثرية الشعب الانجليزي لا ترتاح الى استعمار بلاد جديدة بعيدة عن الجزر البريطانية ، وهذه الاكثرية الشعبية تسند حزب الاكثرية في البرلمان ، فمن الواضح اذن لا تفكر الحكومة البريطانية في استعمار البلدان التي سوف تصبح تحت الاحتلال البريطاني بعد الحرب ، وهي بدون شك عازمة على افساح المجال للشعوب العربية كي تتمتع باستقلالها وتنال حقوقها(١٢) ، بشرط ان يساهم العرب انفسهم في الحصول على ذلك الاستقلال ، وان يبرهنوا على رغبتهم فيه .

خذ البنك !

وهناك على ما اعتقد وسيلة واحدة لتحقيق ذلك ، الا وهي الثورة ، فاذا اعلن العرب الثورة على الاتراك وحاربوهم بجانب الجيوش البريطانية فسيكون لهم الاستقلال والحرية ، اما اذا قبعوا في دورهم ، آملين ان تمنحهم بريطانيا الاستقلال بعد نصرها ، فذلك امر غير معقول ، خاصة وان بريطانيا مسؤولة امام حلفائها عن تصرفاتها تجاه الشعوب الخاضعة للحكم العثماني . اذن فلابد من الثورة لتنال البلاد العربية استقلالها ، وقد فوضتني الحكومة البريطانية لاشعال تلك الثورة وبذل ما يلزم لها من المال والسلاح وغير ذلك ، كما خولتني حق اتخاذ جميع الطرق والوسائل التي تكفل نجاحها . واني قد اخترتك لتقوم بمهمة

---

(١٢) كلنا يعرف مدى وفاء بريطانيا بعهودها ووعودها للعرب بعد الحرب العالمية الاولى خاصة ما حدث لفلسطين .

اذكاء نار الثورة ، بعد الذي علمته عنك من رجال القضية العربية البارزين في مصر . فان اقدمت فانك واجد كل ما تحتاج اليه من وسائل هذه الثورة ، فأضع تحت تصرفك البنك بكل أمواله ، وسيمدك الجيش بما تشاء من السلاح . فهيا الى العمل في سبيل القضية العربية وفي سبيل استقلال بلادك وحرية قومك .

س ـ انك غير موفق على ما اظن في اختيارك اياي للقيام بمثل هذا العمل الجبار . فأنا رجل متحضر لا تعضدني عشيرة ، وانا متوسط الحال ليس لي نفوذ الاثرياء وسطوة الاقطاعيين . انك بحاجة الى رجل ذي نفوذ عظيم وشهرة واسعة بين الناس ، وانا لست بهذا ولا ذاك . اضف الى هذا شعور العداء الذي يكنه العراقيون لبريطانيا بعد الذي لمسوه من معاملة سيئة وازدراء مشين على ايدي رجالها العسكريين .

ل ـ ربما كنت الواهم يا سيدي فيما ذهبت اليه ، فليس النفوذ والثروة هما كل شيء في الموضوع ، وسيكون المال الذي وعدتك به كفيل بسد احتياجك وعامل على جذب الجمهور اليك . أما النفوذ الذي ذكرته فليس أهون من تدبير أمره ؛ ذلك بأن تنصب لك خياما عديدة في جهة من البصرة ، وتلحق بخدمتك عددا كبيرا من الحرس والخدم والتابعين ، وتهيء الزاد للوافدين والضيوف ، وتجزل الهدايا وتمنح العطايا للانصار والمؤيدين ، حينئذ سيقبل عليك الناس أفواجا أفواجا ، ويلتف حولك الاعراب ، فتصبح رئيسا مطاعا وسيدا لجيش كبير . اما ما ذكرته من كره الشعب العراقي للانجليز فليس بذي بال ، وهو شعور مؤقت سيزول حتما في مدة وجيزة .

لا نريد طالبا

س ـ ان خطتك قد تنجح على شرط ن يقوم بها رجل اخر ، ولعل السيد طالب باشا النقيب يستطيع ان ينجز هذه المهمة على الوجه الاكمل ، فلماذا لا تفاوضه في منفاه بالهند ؟



طالب باشا النقيب ببزة التشريفة الشاهنشاهية الهمايونية الخاقانية العثمانية: لا يريد الانكليز التعاون معه في هذه المرحلة ٠

ل ـ ان الحكومة تفضل بقاء السيد طالب في الهند • فأرجو ان تعتمد على نفسك وان تثق بمقدرتك ، واعلم ان للاخلاص والمقدرة اهمية اعظم بكثير من النفوذ والمال •

س ـ لقد أبنت (بينت) رأيي بصراحة بأنني لا استطيع القيام بهذا الامر ، فابحث عن غيري ، ولك مني الارشاد • اذهب الى احمد باشا الصانع وفاوضه لعله يقبل ، فهو ذو كلمة مسموعة في البصرة وذو علاقات متينة بعشائر المنتفك•

ل ـ ان المقدرة والعلم يؤهلان المرء للقيام بأخطر المهام • فأرجو ان توافق على قيامك شخصيا بهذا الواجب المقدس دون ان ترشدني الى احد سواك •

س ـ قد يكون للمقدرة والعلم المقام الاول في تقدم الرجال عندكم ، اما هنا فالناس يلتفون حول ذوي الالقاب واصحاب الجاه العريض والغنى الفاحش •

ل ـ دعنا من الجدل ، واقدم على الامر اقدام الواثق من الفوز ، ولك من المال الذي أضعه تحت تصرفك عونا واي عون •

س ـ لايخفاك اني امارس التجارة في الوقت الحاضر ، ولي مع سائر انحاء الهند والخليج علاقات تجارية واسعة • افلا تتصور مقدار الاضرار التي سوف تلحق بي وبعملائي لو اني اقدمت على هذا العمل •

ل ـ تفضل وقدر الاضرار التي تتصور انها ستلحق بك ، فأدفعها لك شيكا على البنك حالا •• كعربون • ان الثروة التي تنتظرك لو أقدمت على العمل لعظيمة جدا ، وما ارباح التجارة بالنسبة لها الا كقطرة في بحر •

س ـ هب اني نلت ثروة عظيمة • افلا تظن ان الترك سوف ينتقمون من أبي وأخوتي واقربائي في الموصل ، وربما اصاب السوء اصدقائي ومعارفي فيها ايضا • ان الترك لا يغفرون لي مثل هذا العمل ، ولا اهلي الذين سيذهبون ضحية اقدامي عليه •

ل ـ ان من يطلب الاستقلال لبلاده ، والمجد لشعبه ولنفسه يهون عليه مقتل ابنائه في سبيل ذلك •

وهنا اعتدلت في جلستي ، وعزمت على ان اصارحه بوجهة نظري الحقيقية:

س ـ اريد الان ان اصارحك بالحقيقة كاملة ، اذا ضمنت لي السلامة وكتمان الحديث .

ل ـ اني أرجو ان تصرح بكل ما يجول في خاطرك ، ولك عهد بكتمان السر .

س ـ اني شخصيا لست أرى مبررا الى الانتقام من الترك ، اذ ليس بيننا وبينهم عداء ، وانما العداء مستحكم بينهم وبينكم فحسب .

ل ـ عجيب ما تقول . اليس الترك اعداءكم ؟ ألم يستعبدوكم القرون الطوال ؟ ألم تحاربوهم بالسنتكم واقلامكم ؟ أما انتظمتم في جمعيات سرية وتآمرتم على حكمهم وودتم لو اخرجتموهم من دياركم ؟

س ـ لاتعجب مما قلت . فالترك لم يستعبدونا بالمعنى الصحيح ، لقد كان العربي والتركي سواسية امام القانون وكانت ابواب الوظائف الحكومية ومراتب الجيش مفتوحة للجميع ، فبأمكان التركي ان يرقى في المناصب حتى يصبح واليا أو وزيرا وكذلك العربي ان هو اثبت اهلية وجدارة ، ولم يكن بين الموظفين في البلاد العربية غير القليل من الاتراك ، اما الاكثرية فقد كانت من ابناء البلاد . اما نضالنا في السر والعلن ضد الحكومة العثمانية فكان في نطاق الشؤون الداخلية ، ولغرض الحصول على بعض الحقوق المشروعة التي كانت الحكومة قد انكرتها على الشعوب العربية ، وللمطالبة بالاصلاح الداخلي بعد ان عم الخراب الدولة من اقصاها الى اقصاها . فكفاحنا والحالة هذه كان أشبه باختلاف بين ورثة ، كل يطالب بحصة اكبر . واني استطيع ان الخص نقاط الخلاف الرئيسية بين الترك والعرب في : عدم عنايتهم بالمعارف في البلاد العربية، واستعمالهم اللغة التركية في المحاكم والدواوين الرسمية ، واستغلالهم موارد الاوقاف في بلادنا لاصلاح الاستانة وفي بعض الامور الثانوية الاخرى ، فلو ان



صورة اخرى للورنس بملابس امرأة شركسية قرب «درعا» عام ١٩١٧

الترك تساهلوا في تحقيق هذه المطاليب لزال الخلاف بيننا وبينهم • وانه لو لم تفاجئنا الحرب لكانت البلاد العربية قد نالت اكثر مطاليبها بدون اللجوء الى القوة • فمثلا ان الحكومة الاتحادية يوم شعرت باتوائي فضح سياستها في الاحساء استرضتني باتخاذ اللغة العربية لغة رسمية في محاكم العراق وذلك قبل نشوب الحرب العالمية بأشهر •

ل ـ اذن انت تحب الترك مع انهم لو ظفروا بك لأعدموك •

س ـ تأكد اني لا احبهم مطلقا ، بل وأنقم عليهم اكثر من ذي قبل بسبب اشتراكهم في الحرب وجرهم المصائب والويلات على بلادنا •

ل ـ لو علمت ما صنع الترك باخوانك السوريين لما ترددت في الانتقام منهم • ومهما يكن من امر فأنتم معشر العرب ترزحون تحت نير الحكم العثماني ، ولابد لكم من تدبير حل لنيل حريتكم واستقلالهم •

مكيدة انجليزية

واستطرد لورنس يقول بلهجة مشجعة :

لا تستصعبن الاقدام على العمل ، فانه هين ونجاحه مضمون ، واذا شئت فباستطاعتي ان اجلب الى صفك من تعتمد عليهم من الضباط العرب العاملين في القضية العربية ، وان أحدا منهم لن يتقاعس عن الانخراط في ثورتك لو دعوته الى ذلك • اكتب اليهم وانا اتعهد بايصال كتبك • وثمة طريقة اخرى تمهد امامك السبل لغزو جبهات العدو : المال ••• ابعث الى القائد الفلاني (وهنا ذكر اسمه) بصرة من الذهب فيغمض عينيه قليلا ، حين تكون قواتك مندفعة صوب خطوطه ••

س ـ أما القائد فلا اعرفه ، واما الضباط فلن يصدقوا ما يجيء بكتبي ، ظنا منهم بأنني كتبتها مكرها ، وان هي الا مكيدة انجليزية •

ل ـ ما رأيك لو ختمت الرسائل بختم الاصلاحية[١٣] الذي بحوزتي الان • هل يا ترى يبقى لديهم ادني شك في صحة الرسائل ؟ ثم هناك الاصطلاحات السرية والاشارات الخاصة بالجمعية ، الجأ اليها ليطمئنوا الى كتبك •

س ـ لو اسلمنا جدلا بانهم آمنوا بدعوتي ، فقدموا الي واشتركوا معي في الثورة ، فمن ذا الذي يضمن مستقبلهم ، ويصون حقوقهم ، ويعيد اليهم مناصبهم التي ضحوا بها من اجل الثورة ؟

رأس شـرفـة

ل ـ اذا شئت فاني اقدم لك تعهدا رسميا ، وبموجب هذا التعهد تستطيع ان تعدهم بضمان مستقبلهم ومستقبل البلاد •

س ـ هب انني اختلفت مع الانجليز ، فماذا تفيدني الوعود ؟ غدا يقولون لي : اذهب الى لورنس فهو الذي تعهد لك •

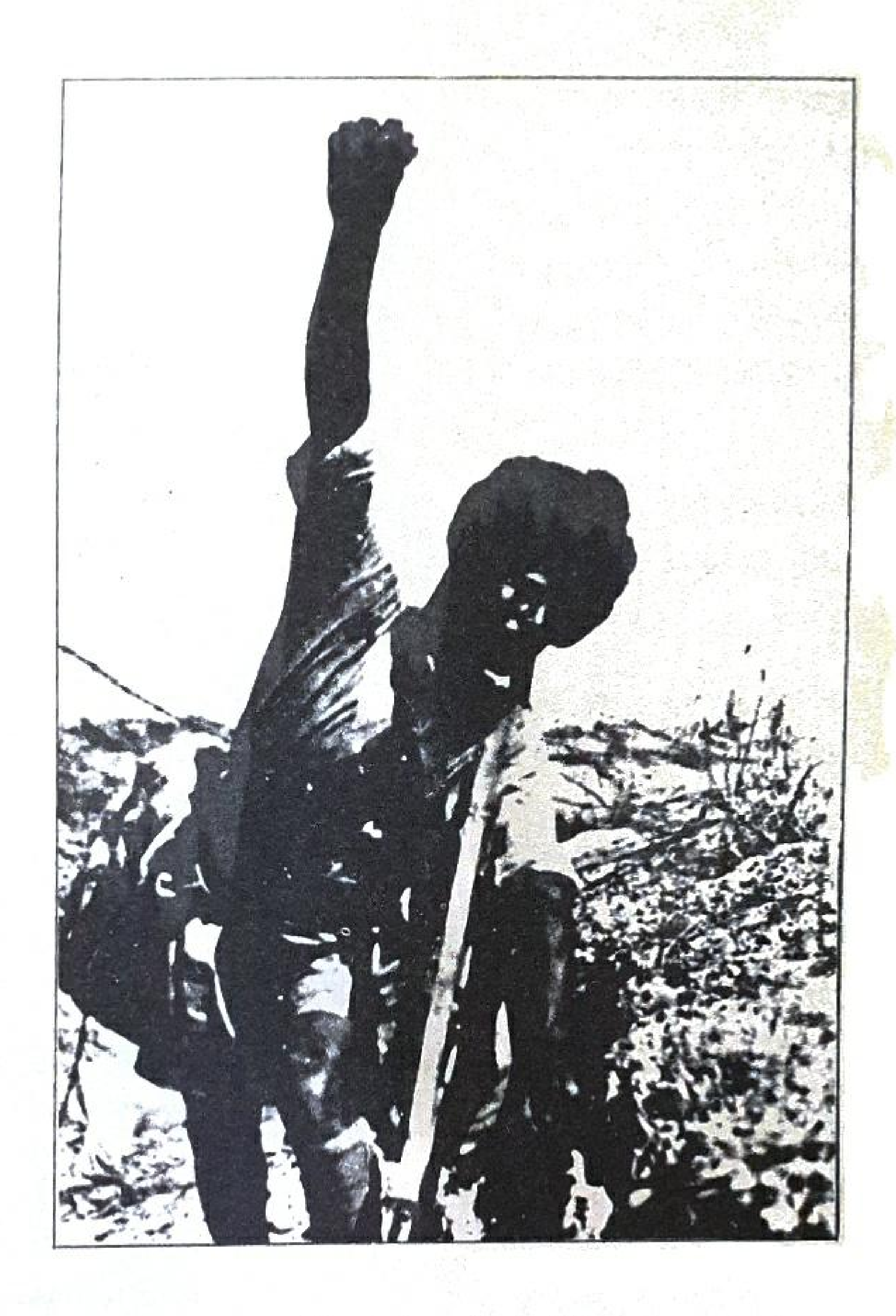
ل ـ اني اتعهد باسم الحكومة البريطانية ، وزيادة في تطمينك فسيوقع عليها السير بيرسي كوكس ممثل حكومة صاحب الجلالة •

س ـ لو فرضنا ان حكومتكم تتصلت من وعودها ،فماذا عساني افعل بتلك الوريقة التي تحمل توقيع ممثلها ؟ واي سلطة أراجع كي ارغم الامبراطورية البريطانية على تنفيذ احكام التعهد ؟

ل ـ انك سيء الظن في شرف الحكومة البريطانية وفي صدق عهودها •• ثق ان حكومتي اذا قطعت على نفسها عهدا وفت به •• ثم لا تنس ان العمل الذي عهدت به اليك انما هو لمنفعتكم ليس الا ، ولست اغالي اذا قلت ان بريطانيا في غير حاجة الى معونتكم الحربية •

---

(١٣) اسسها (طالب باشا النقيب) في البصرة عام ١٩١٣ واصبح « فيضي » معتمدا لها • انضم اليها اكثر الضباط العرب في ولاية البصرة ودعت الى اللا مركزية في العلاقة مع الدولة العثمانية •



جندي هندي يتأهب لقذف قنبلة يدوية على خطوط الترك حول الكوت

س ـ لقد اتفقنا في بدء الحديث ان نتكلم بمنتهى الصراحة ، فدعني أجيبك هنا بصراحة بأن مفهوم السياسة لدى السياسيين يعني (الغاية تبرر الواسطة) وان مفهوم الشرف السياسي لديهم يعني (المصلحة الحكومية) فلا غرابة اذن ان اسأت بكم الظن • لقد اخذت بريطانيا هذه البلاد بالحرب ، ولا يخفى على احد ما تتطلب الحرب من دماء واموال وتضحيات ، فكيف تريدني أؤمن على قولك بأن بريطانيا ستعيد هذه البلاد الى اهلها بمجرد انتصارها قائلة لهم :ـ هذه بلادكم خذوها وأودعناكم !•• أتراها تعمل كل ذلك لان سليمان ـ مؤشراالى نفسي ـ قام على رأس شرذمة ضد الترك !••

ل ـ ثق بأن مصلحتنا تقضي بطرد الترك من هذه البلاد واعطائها الى اهلها ، وما الثورة التي اريدها الا وسيلة لتحقيق ذلك • لقد قلت ولا ازال اقول بأن اكثرية الشعب البريطاني لا تريد استعمارا جديدا •

س ـ اذا كان الامر كما تقول ، فهذه مصر امامنا ، وقد مضى عليها سنوات وهي تناضل في سبيل استقلالها ، فلماذا تبخلون عليها به ؟

ل ـ ثق ياسيدي بان مصر سوف تنال استقلالها قريبا ، وان الحكومة البريطانية عازمة على ذلك •

ثلاثة ضباط

س ـ حقق الله ذلك • والان كيف توفق بين رغبة الشعب البريطاني في نبذ الاستعمار وبين الوضع الحالي في الهند والمستعمرات المجاورة لها •

ل ـ بقاء الانجليز في الهند أمر ضروري ، فالشعب الهندي لا يمكنه الاتفاق على حاكم واحد او على تنصيب ملك واحد • في الهند مذاهب متنافرة وراجات متنافسون • وفي اليوم الذي تتوحد فيه كلمة الهند ستتركها بريطانيا بدون تماهل •

س ـ قد تكون هذه الفكرة حديثة التخمر في اذهان الساسة الانجليز ، اما عقلي فمتردد في تصديقها ••

ل ـ دعنا من الهند ، ولنعد الى بحثنا الاصلي • فهمت انه يوجد بين الاسرى هنا بعض الضباط العرب ، فهم تعرفهم ؟

س ـ اعرف ثلاثة منهم وهم اصحابي : مولود مخلص ، وعلي جودت ، وعبد الله الدليمي •

ل ـ اذن فقد سهلت المهمة • اذا اقنعتهم فسيكونون في مقدمة العاملين معك•

س ـ اعتقد انهم لا يوافقون •

ل ـ ارجو منك ان تقابلهم الان وتقنعهم • ثم تعود الي في الساعة الخامسة في دار القيادة العامة فتبشرني بموافقتك على البدء في المشروع الخطير •

س ـ تأكد ان رأيي لن يتغير قط ، وليس بوسعي القيام بهذا العمل ولا بغيره ، كما اني معتقد بعدم موافقة الضباط المومي اليهم على مؤازرتي •

ل ـ اني لا اقبل لك عذرا ابدا • واني واثق من شهامتك واخلاصك لبلادك ، ومن رغبتك الاكيدة في سعادة قومك • فاترك الاصرار جانبا واغتنم هذه الفرصة الثمينة •

س ـ اما طوعا فجوابي الرفض ، واما اذا اردت الاكراه ، فربما فضلت النفي أو السجن •

ل ـ لايمكن ان يتحقق شيء بدون الرضى والعقيدة ، ولن اسلك معك سبل الاكراه • ارجو الان أن تذهب الى اصحابك الأسرى ثم تعود مساء لمقابلتي • ارجوك •• ارجوك والح في الرجاء •

بكل لطف

كانت الساعة قد جاوزت الثانية عشرة حين وجدت نفسي طليقا في طريقي الى مخزني ، فتنفست الصعداء ولكنه لم يكن صعداء بالمعنى الصحيح ، فالعرض الذي قدمه لورنس لي اقلق بالي وشغل فكري ، وهو وان لم يصدر منه اى تهديد أو وعيد ، الا اني كنت اخشى ان يلجأ اليهما اخر الامر اذا طال اصراري



السير بيرسي كوكس : ذكر فيضي انه لا يثق به

واشتد عنادي • وجدت كاتبي في قلق واضطراب ، ففرح بعودتي سالما ، وارسلته بطلب عمي ، وتوجهت توا الى الدار التي يقيم فيها الضباط الاسرى الثلاثـــة ، ورويت لهم الحديث بأكمله ، فلقيت منهم تصويبا لي واستحسانا لاجاباتـــي • وجلسنا نتداول في الامر ، حتى ازف موعد المقابلة الثانية ، فخرجت من بينهـم في الساعة الخامسة والدقيقة الاربعين قاصدا دار القيادة العامة •(١٤)

••• وفي الساعة السادسة دخل الكابتن لورنس فحياني ، ثم قبض عـلى يدي بكل لطف واصعدني الى الطابق الاعلى من الدار ، حيث اخذنا مكانينا في غرفة هادئة ودار بيننا الحديث التالي :

ل ـ لا شك انك جئت تحمل الي البشرى بالقبول •

س ـ كلا ، مع الاسف ، فاني لا زلت عند رأيي السابق •

ل ـ لماذا ؟ هل قابلت اصحابك الضباط ؟

س ـ نعم ، قابلتهم فاستصوبوا رأيي •

ل ـ اعتقد انك لو كنت مقتنعا لما عارضوك ، انهم يوافقون حتما متى رأوا فيك اقداما على العمل وأطمأنوا الى ثقتك بنجاحه •

س ـ أسمح لي أن أجمل لك رأيي النهائي • اني لا اوافق مهما حاولت، فلا تزعجن نفسك باعادة الجدل •

ل ـ يظهر أنك صعب المراس ، وان اقناعك لا يتم بجلسات قصـيرة ، وحيث اني قد عزمت على السفر الى جبهة القتال في علي الغربي هذه الليلـــة ،

---

(١٤) نشر هذا الفصل من المذكرات ، في البداية ، في ثمانية اعداد من جريـدة «صوت العراق» لسان «حزب النهضة» • وهـي الاعـداد ٥٥ و٥٦ و٥٧ و٥٨ و٥٩ و٦٠ و٦١ و٦٢ وتاريخ ١٠ و١١ و١٢ و١٣ و١٤ و١٥ و١٧ و١٨ تشرين الثاني ١٩٢٩ اي عندما كان «لورنس» والاشخاص الذين طلب من «فيضي» الاتصال بهم احياء ، مما يزيد من القيمة التاريخية الفريدة مـن نوعها لهذه الوثيقة •

فأرجو أن تقبل دعوتي لك بالسفر معي ، كي يكون لنا متسع من الوقت لتمحيص الموضوع ودراسته ، ولن تستغرق سفرتنا اكثر من ثلاثة أيام .

س ـ لو تكلمنا اسابيع فلن اتخلى عن موقفي ، فلماذا لا تدعني اعود الى داري حرا طليقا ؟

ل ـ ماذا يضيرك لو رافقتني الى ساحة الحرب ؟

س ـ كثيرا جدا ياسيدي ، فذهابي بصحبتك سيحمل الناس على الاعتقاد بانني جاسوس وفي هذا الكفاية لتحطيم سمعتي .

ل ـ لا أرى ما يخل بسمعتك . أما اذا كنت تعني الاضرار المادية التي تلحق بك من جراء غيابك عن البصرة فهذا ما استطيع ان اعوضك عنه اضعافا .

س ـ المال لا يصلح سمعة المرء ، ثق بأن دخولي الى دار القيادة اليوم جعل مني في نظر بعضهم جاسوسا أو عميلا فكيف بي اذا ذهبت الى جبهة القتال ؟

ل ـ الاولى ان ترسل بطلب فراش لك فتسير الى علي الغربي فورا ، ولا تلتفت الى ما يقوله الناس .

س ـ اذا ارسلت بطلب فراشي بنية السفر فليس الى علي الغربي ، بل الى معسكرات الاسرى في الهند .

فأجاب لورنس مهدئا ، وكأنه شعر بتضايقي من الحاحه :

ل ـ معاذ الله ان أكرهك على ذلك . اذا اسمح لي ان اودعك الان آملا ان اراك عند عودتي .

س ـ أرجو لك السلامة ، ولا تنتظرن أن تلقى تبدلا في معتقداتي عند عودتك . »(١٥)

---

(١٥) في غمرة النضال ، مذكرات سليمان فيضي ، بغداد ، شركة التجارة والطباعة ، ١٩٥٢ ، ص ٢٠٨ـ٢٢٥ . وقد اضطررنا الى الاسهاب في =



انور باشا : لم يتزحزح عن موقفه قيد انملة

مـــع خليـل باشـا

غادر «لورنس» البصرة على ظهر احدى السفن متجها الى مقر قيـــادة «جيش الانقاذ» جنوبي «الكوت» والتي وجدها فوق سفينة تجارية • تفاهـــم مع الجنرال «ليك» واصطحب معه يوم ٢٥ نيسان كل من الكابتـــن « اوبري هربرت» عضو البرلمان والذي ينتمي بدوره الى « المكتب العربي » والموجـود في العراق بمهمة خاصة ، واللفتنانت ـ كولونيل (المقدم) بيج ، مدير دائـــرة الاستخبارات في قوات الحملة ، حيث تقدموا من الخطوط التركية وهـــم يلوحون بشدة ، حسب تعبير لورنس ، بأعلام بيضاء الى ان جاء اليهم عـــدد من الضباط الاتراك حيث صرحوا لهم بالمهمة التي كلفوا بها • تم وضع مناديـل على عيون الانكليز الثلاثة ، وذلك من قبيل الاحتياط الامني بالنسبة للمواقـع العسكرية التركية واقتيدوا مسافة عشرة اميال غربي «الكوت» ثم اربعـــة الى الشمال منها حتى وجدوا انفسهم وجها لوجه مع «خليل باشا» الذي وصـــفه «لورنس» بانه في الثانية أو الثالثة والثلاثين من العمر ، وانه دقيق للغايـــــة ونشط وان كان غير ذكي أو فطن •(١٦)

عرض الثلاثة على القائد التركي ما يلي :

• يطلق سراح الجنرال طاوزند وجميع قواته المحصورة في الكـــوت فيوفدون الى الجانب البريطاني على شرط :

(١) ان يعطي الضباط والامراء (القادة) كلام شرف على ان لا يستخدمون ضد الاتراك طيلة الحرب •

= النقل لعدة عوامل منها ان المذكرات هي المصدر التاريخي الوحيد الذي عثرنا عليه عن هذه الواقعة الخطيرة ، وكذلك حتى تتكامل الصورة تمامـــا عند القارىء • اضافة الى طلاوة وطرافة اسلوب «فيضي» • اما ما فعلـه الانكليز به جراء موقفه هذا فيوجد في المذكرات التي يمكن العودة اليها •

(١٦) The Home letters of T. E. Lawrence, London, 1972, P. 324.

(٢) وان يسلم الجنرال طاوزند الاربعين مدفع الموجودة لديه بصورة سالمة الى الجيش التركي .

(٣) وان تدفع بريطانيا العظمى مليون جنيه انكليزي الى الجيش التركي . »(١٧)

رد القائد العثماني بانه سيرفع الاقتراحات الى «أنور باشا» الذي أجاب باللاسلكي أنه يرفضها جميعا ويصر على استسلام «طاوزند» وقواته دون قيد أو شرط . وبعد ان امضى «لورنس» وزميلاه ليلة في معسكر «خليل باشا» ، عادوا ادراجهم الى الخطوط الانكليزية . وعندما علم «طاوزند» بما حصل ، أقترح رفع الفدية الى مليوني جنيه وأوفد كلا من الكابتن «مورلاند» والكابتن «شيكشانك» العاملين معه الى مقر القيادة التركية ، فأتصل «خليل باشا» مرة أخرى بوزير الحربية في الاستانة . قال الاخير بأنه على استعداد للسماح للجنرال «طاوزند» وحده بترك «الكوت» مقابل تسليم اسلحته وذخائره كاملة وسائر من بقي على قيد الحياة من أفراد قوته المحاصرة مع المليوني جنيه من الذهب. ارفق القائد العثماني رد «انور باشا» مع رسالة شخصية منه بهذا المفهوم أيضا وبعث بها الى «الكوت» قائلا للضابطين الانكليزيين : « ليوفر سيدكما أمواله عليه ، فقد خسرت عشرة الاف رجل ! »(١٨)

انتهى أمر حامية «الكوت» ، ولم يشأ «طاوزند» ترك رجاله وحدهم للقدر والنجاة بنفسه ، أو ان أسياده لم يروا انه يستحق دفع هذا المبلغ الجسيم ، لذا فقد سار على رأسهم الى معسكر «خليل باشا» . أما «لورنس» فقد عاد أدراجه الى «البصرة» دون أن يحاول ، هذه المرة ، الاتصال مع

---

(١٧) الزعيم محمد امين العمري ، حرب العراق ، المجلد الاول ، بغداد ١٩٣٥ ، ص ١٤٣ .

(١٨) Philip Knightey and Colin Simpson, The Secret Lives of Lawrence, London, 1969, P 48 .


اللطائف المصورة

سقوط كوت الامارة وتسليم تونشند للعثمانيين



تقرير صحفي عن سقوط «الكوت» بأيدي الترك •

«يفضي»[19] بل اتجه الى «القاهرة» ومنها الى «الحجاز» حيث اتخذت الاحداث مجرى متيرا لم يكن في الحسبان .

---

(19) مذكراتي في صميم الاحداث ، ص ٢٢٦ . وفي اليوم التالي لمقابلتي «لورنس» مع صاحب المذكرات، بعث برقية الى «المكتب العربي» عثرنا عليها في وثائق وزارة الخارجية البريطانية نقتطف منها ما يلي ،وهو ينشر لاول مرة بالعربية : «لقد كنت ابحث عن حزب موال للقضية العربية ، فاذا بافراده لايتجاوزون ١٢ رجلا . كان الحزب يتالف في السابق ، من سيد طالب وبعض اتباعه ، اما اهل البصرة الاخرون فانهم اما من نجد ، لايهمهم غير امر قلب الجزيرة العربية ويمكن تصنيفهم مع العرب من الناحية السياسية ، أو فلاحون مهتمون باشجار النخيل ، أو من اصل فارسي .»

PRO, FO, 882/15, 8 April. 1916.

ثم اعقب ذلك ببرقية اخرى نقتطف منها ما يلي : «اذا اريد لسلطان تركيا ان يغيبعن المسرح ، فان الخلافة بالاتفاق التام بين المسلمين سوف تكون من نصيب عائلة الرسول ، التي يمثلها في الوقت الراهن شريف مكة (حسين) .»

PRO, FO, 882/15, 9 April. 1916.

الفصل الثالث

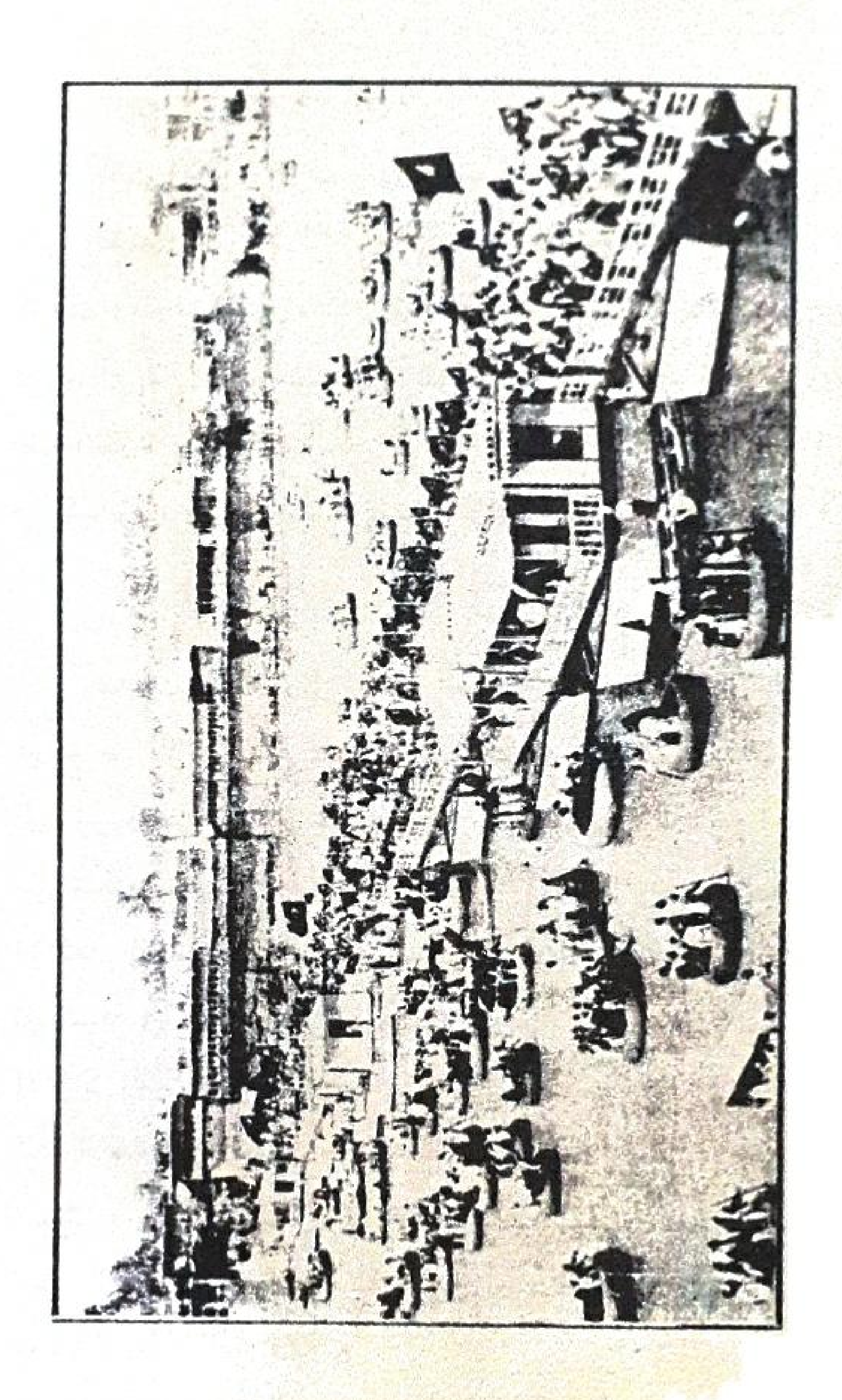
بغـداد بريشة اسـير انكليزي

في ٢٩ نيسان ، ١٩١٦ ، ارتفعت الرايات البيضاء فوق مدينة «الكوت» ، ومعها رفع الجنرال «طاوزند» يديه مستسلما للقائد العثماني «خليل باشا» ومعه ثلاثة عشر الفا وخمسمائة من الضباط والجنود الانكليز والهنود .[1] كـان الميجر «شارل باربر» طبيبا للقوات المذكورة سيق ، مع غيره ، الى بغداد التـي خرج منها بالانطباعات التالية قلما وصورة :

« بعد تركنا سلمان باك بوقت قصير ، اجتزنا مصب نهر ديالى الـــذي يتصل بدجلة على مسافة ثمانية أو تسعة أميال من بغداد حيث كان الاتراك قد أعدوا لهم مواقعا للتراجع اليها بعد سلمان باك ولكنهم لم يكونوا بحاجة الى ذلك مطلقا» ومن ثم اخذت ضفتا دجلة تحفلان ببساتين النخل والحدائق ــ اننا نقترب من المدينة السحرية . وفي الحال تقريبا ، وجدنا انفسنا أمام منازل منعزلـــة على النهر ، ثم المزيد منها حتى تحولت في نهاية الامر الى سلسلة متصلـــة ، مرة صف من المنازل المتواضعة ، وأخرى المزيد من القصور الاكثر خيلاء .

---

(١) عندما استسلم «طاوزند» واركان حربه ، جرى احتفال قرب «الكوت» مـن مشاهده المثيرة ان القائد الانكليزي نزع سيفه ومسدسه وقدمهما الى القائد التركي . وهنا حدثت مفاجأة ، فقد اعاد «خليل باشا» السيف والمسدس الى صاحبهما، مما ادى الى ترك اثر عميق على المؤرخين الانكليز الذين ما زالـــوا يرددون عبارات التقدير والثناء على «خليل باشا» . ساق الترك «طاوزنـــد» الاسير واركان حربه في سفينة خاصة الى «بغداد» حيث جرى التقاط الصور التذكارية . ثم نقل الانكليز الى «الاستانة» وظلوا هناك الى نهاية الحرب . والطريف ان « طاوزند» ساهم شـخصيا في مفاوضات الهدنة بـــين المسؤولين العثمانيين والمندوبين الانكليز والفرنسيين وانه كان من عوامـــل نجاحها .ومن المعروف انه تلقى في اسره معاملة حسنة لم يتوقعها هـــو بالذات !



جسر القوارب عند افتتاحه من جانب الوالي «ناظم باشا» عام ١٩٠٨

وعند النهاية ، انشق الافق ، وانتصب امامنا مشهد من المغاني والفلل (جمع فيلا) التي تطل طوابقها العليا على النهر وهي مستكينة في احضان حدائقها ذات النخيل واشجار البرتقال والكروم والتين والممتدة على ضفتي النهر الذي يشق طريقه الهوينا فيما بينهما •

كانت المنائر والقبب التي وقعت عليها انظارنا تعكس وهج شمس الصباح، ومن الطبيعي ان كل ذلك منظر بهيج بالنسبة لنا خاصة عندما يأخذ المر ظروف وصولنا بنظر الاعتبار • واخيرا ، وبينما كنا نغذ السير الى أمام ، اصبحنا على مرأى من جسر مشيد من القوارب وأخذنا بالابطاء مقابل أوسع مبنى تقع عليه انظارنا حتى ذلك الحين • لقد تعرفنا عليه على أنه مبنى المقيمية البريطانية في السابق ، وهناك القينا مراسينا استعدادا للنزول الى اليابسة •

حفل للدفن

صدرت الاوامر الى جميع الضباط بترك السفينة ، الضباط فقط ، وليس غيرهم من الرتب الاخرى ، وبدون حوائج • تم تنفيذ ذلك بسرعة وهرعنا الى البر ونحن نتساءل عما اذا كنا سنرى تجهيزاتنا مرة أخرى أم لا • وقفنا على شكل مجموعات لعدة دقائق ، أو تزاحمنا من أجل مكان ما في ظل الاشجار الصغيرة التي زرعت بمحاذاة الطريق الممتد الى السلالم الرئيسة المؤدية الى شرفة في واجهة المبنى • وبينما كنا نراقب ، باهتمام طبيعي للغاية ، محادثات الاتراك الذين بدا انهم يتخذون الترتيبات لتحركاتنا التالية ، اصطففنا طبقا لمبدأ الاقدمية في غضون دقائق قليلة • ووسط دهشتنا ، ان لم أقل بعض تسليتنا ، طلب منا السير على الاقدام ببطء شديد كما لو كانت سرعة السير في حفل للدفن الى داخل المدينة ، وعلى رأسنا العقيد الاقدم وفي مؤخرتنا «جيما دار»[٢] أقلنا رتبة •

---

(٢) ضابط هندي •

لم تكن تعوزنا غير البنادق المنكسة لاكمال الوهم باننا نسير في اعقاب مأتمنا • اخترقنا الحديقة الممتدة خلف المقيمية ، وانحرفنا الى أحد الشوارع الخارجية في المدينة ، ومن هناك وجدنا انفسنا وسط جمع بالغ الاهتمام من المتفرجين المأخوذين الذين يبدو أنهم نبهوا مقدما بوصول الانكليز الذين وقعوا في الاسر • وهكذا اكتشفنا اننا اصبحنا قبلة انظار جميع الناس ، وادركنا اننا سنعرض على الحشود باعتبارنا «النبأ السار» للانتصار التركي •

وبينما كنا نغذ السير الهوينا في منعطف الشارع ، وجهت بصري الى الخلف ، نحو الطابور المتموج من الضباط الانكليز والهنود ، فتبين لي أن ما اسره الاتراك لم يكن بالنزر اليسير ، لذا يمكن التماس العذر لهم جراء عرضهم لنا أمام رعاياهم غير المحبين جدا في مدينة بغداد القديمة • يالها من مسيرة تبعث على السأم والضجر بسرعة ميلين في الساعة أو أقل كنا نشق طريقنا عبر الشوارع التي ازدحمت بالناس الذين فتحوا احداقهم من فرط العجب والانبهار وحتى الذهول ، تلك الشوارع التي اخليت من المارة ووسائط النقل من جانب رجال الجيش المرافقين •

وجوه مليحة

من نوافذ الطابق الاول ، تمعن عدد من الوجوه المليحة باهتمام في هؤلاء «الانكليز» الاسرى ، وكان بعضها بالغ الجمال ببشرته البضة وجدائل الشعر الفاحم المتموج ، غير ان الناس لم ينبسوا ببنت شفة ، لذا فان صمتهم في وهج الشمس زاد من الطبيعة المهيبة للمسيرة • استنتجنا انه لابد من الاستمرار ، لذا لجأنا الى التدخين واخذنا بالنظر والتفرس بامعان في معالم المدينة ولقالقها !

كان الطقس بالغ الحرارة ، ولم يشعر أحدنا بالاسف عندما وصلنا ، بعد طول لأي ، الى الظل البارد للاسواق المقببة في قلب المدينة[٣] • كانت

---

(٣) يقصد اسواق الاقمشة وسوق السراي بجانب الرصافة التي اقتصرت المسيرة عليه •



احد دكاكين سوق الصفافير الذي اجتازه الضباط الانكليز الاسرى .

هذه ، مثلها في ذلك مثل بقية الطريق ، قد اخليت من المرور ، بينما ازدحمت دكاكينها ذات الابواب المشرعة بالتجار واصدقائهم وسط خليط لا حد له من البضائع المنوعة • بعد نصف ميل من ذلك ، خرجنا مرة أخرى الى اشعة الشمس القاسية واجتزنا نكتة المشاة ، ثم ابتعدنا عن المدينة ، مخترقين البوابة الشمالية(٤) بعد ان اجتزنا منحدرا من الميدان(٥) ، ومررنا ببحيرة متخلفة عن مياه الفيضان • وهكذا وصلنا ، في خاتمة المطاف ، الى ثكنة الخيالة ، هدفنا الاخير بعد ميلين ونصف الميل من شروعنا في المسير • »

أمضى صاحبنا وباقي الاسرى أربعة أيام في ثكنة الخيالة ، نقل الجميع بعدها الى محطة القطار حيث جرى تسفيرهم الى «المجهول»(٦) باستثناء أربعة من الاطباء بينهم «باربر» وثلاثة أو أربعة من الضباط الآخرين الذين حال وضعهم الصحي دون السفر • بعد ذلك تم تحويل الاطباء الى منطقة سكن اخرى بهدف العمل في المستشفيات التركية ببغداد حيث يقول الكاتب :

«كان المنزل الذي اقمنا فيه مناسبا كمستشفى مزودا بأسرة خشبية خشنة مغطاة بالافرشة ، جاهزة لاستقبال مرضانا(٧) عند وصولهم ، غير انه كانت تعوزه الادوية والمعدات التي لم نحصل الا على القليل منها عندما طلبنا ذلك • يعود المبنى الى «ايكول دي سين»(٨) الذي تديره راهبات الدومينيك الفرنسيات حيث يوجد ديرهن بجواره •(٩) كان منزلنا مشيدا من طابقين ، له سطح

(٤) باب المعظم وكان جزءا من السور المحيط ببغداد •

(٥) ساحة الميدان في قلب جانب الرصافة •

(٦) في الواقع ، نقل الضباط الاسرى الى «الاستانة» حيث بقوا الى نهاية الحرب العالمية الاولى وحلول الهدنة • وكلمة «المجهول» من تعبير الاسير •

(٧) من الجنود الانكليز والهنود الذين نقلوا الى بغداد بطريق البر •

(٨) مدرسة الممرضات بالفرنسية •

(٩) مازال مبنى الدير قائما ومهجورا في «عقد النصارى» بالرصافة •

مبسط وساحة وسطية تبلغ مساحتها حوالي ١٥ قدما مربعا ، تقع عندها الغرف الارضية ، ويرتفع منها سلم يؤدي الى الطابق الاول المحاط بشرفة • اما الغرف السفلى او «السراديب» فأنها على مستوى ثلاث درجات الى اسفل مستوى الساحة• وهذه يمكن العثور عليها في جميع البيوت البغدادية وتستغل في الطقس الحار للاقامة فيها ، ويجري تزويدها بالهواء النقي عن طريق مداخن (يقصد منافذ) طويلة تنتصب قممها فوق السطح على شكل طربوش او قلنسوة تجابه نسيم الشمال السائد ، في فصل الصيف عادة ، وهي اشد برودة من الغرف العليا بكثير•

يتقدم سطح المبنى قليلا عن باقي ارجائه ، الامر الذي يجعله يلامس جميع سطوح المنازل الاخرى المجاورة تقريبا ، وقد وجدناه ، عندما ارتقيناه عند المساء طلبا للنسيم ، مشغولا من جانب حشد من البغداديين (يهود وكلدانيين وسريانيين) وقد استقبلونا جميعا بالابتسامات ، عارضين علينا الفواكه والسكاير وهم متشوقون للترحيب بنا بعبارة : صباح الخير ، كيف حالكم ؟

ازقة ضيقة

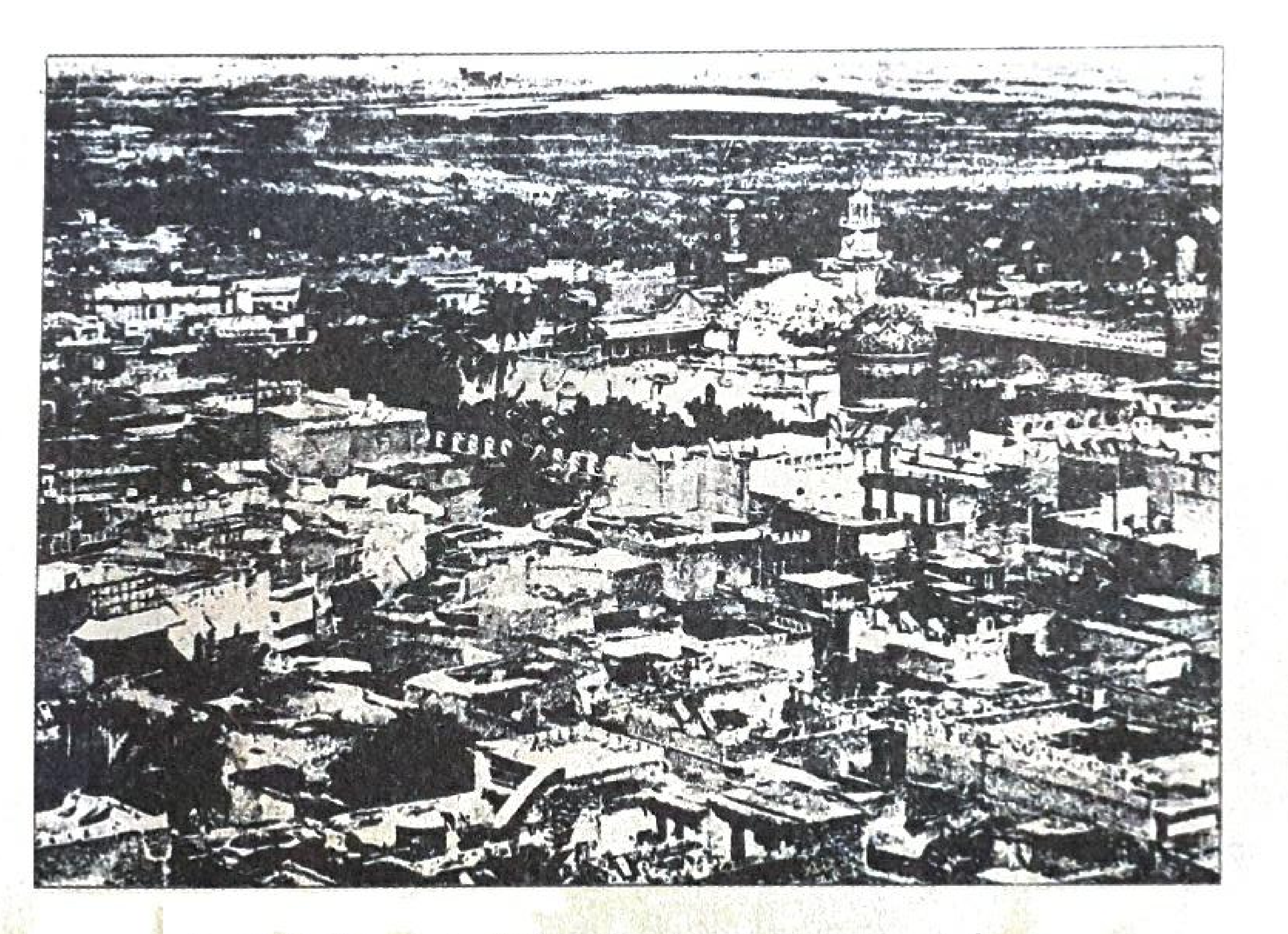
للحي المسيحي(١٠) امتداد واسع جدا ، ويضم عددا كبيرا من المنازل المشيدة جيدا ، والوافية بالمرام ، تعود الى اناس اثرياء اعتقد انهم يحتكرون الحياة التجارية للمدينة • لا توجد شوارع تستحق الذكر عبر الحي ، بل يقتصر الامر على أزقة ضيقة تتعرج في جميع الاتجاهات • ونظرا الى ان الطوابق العليا تشرف على السفلى ، فان سطوح المنازل يلامس احدها الاخر ، لذا لا يشق طريقه الى الازقة هذه غير قليل من نور الشمس •

لقد ذكرتني هذه المنازل بطابع لندن القديمة قبل الحريق الكبير(١١) • ان كل منزل يتباهى بباب ثقيل مصنوع من الخشب ومزود بمقرعة ضخمة من

---

(١٠) واضح ان الحي المذكور يمتد من «الشورجة» حتى «الباب الشرقي» •

(١١) اندلع هذا الحريق في العاصمة البريطانية عام ١٦٦٠ بعد الانتشار الهائل لمرض الطاعون •



حي «السنك» حيث أقام الدكتور «باربر» وزملاؤه ويبدو مرقد الشيخ «عبد القادر الكيلاني» الى اليمين .

النحاس الاصفر(١٢) ، ونظرا لعدم توفر نوافذ تطل على الخارج في الطابق الارضي ، فان كل واحد منها يشكل نوعا من الموقع المحصن المكتفي بذاته والمنطوي عليها ، اما الفسحة الضرورية لتبديل الهواء ، فانها موجودة فوق الساحة في الداخل ، ومن الطبيعي ان الامر كذلك فوق السطح الذي يحل محل الحديقة ، وهذا النوع من البيوت ضروري للغاية ، دون شك ، نظرا الى ان المساحة محدودة جدا •

ان الدور الهام الذي تلعبه الديانة في الحياة اليومية للناس في هذا الجزء من العالم كثيرا ما يفرض نفسه امام المرء بواسطة ابسط الملاحظات التي تطلق عن طريق الصدفة المحضة • فاذا وجه سؤال الى رجل عمن يكون ، فانه لابد وان يقدم الجواب التالي : «أنا مسيحي» أو «أنا مسلم» وذلك طبقا لحال ذلك الرجل • «من هو هذا ؟» ، «انه مسلم !» لن يعطى مطلقا اسم ذلك الشخص او مهنته ، ولكن الذي يتوفر على الدوام هو الحقيقة المركزية لوجوده — او هكذا بدا — دياته !(١٣) لقد تركت الاهمية الحيوية التي تتسم بها الديانة ، بالنسبة للفرد ، انطباعا مؤثرا لدينا ، لذا فان الانسان يتوصل الى الاستنتاج بأن اختيار المرء لطريقة ذهابه الى السماء انما هي مسألة بالغة الاهمية !

انهم يرتدون ملابسا حسنة عند الذهاب الى الكنائس ، وهناك اسقفان ، سرياني وكلداني ، كان لنا السرور ان نجتمع مع احدهما • يوجد ، ايضا ، دير فرنسي واسع يضم ثلاثين الى اربعين راهبة دومينيكية (١٤) • وللكنيسة الكلدانية مبنى كبير مسقف بقبة تشبه كنيسة سانت بول(١٥) مصغرة • لقد سمح لنا بحضور الطقوس الدينية عندما نريد وكان مديرنا(١٦) ذاته هو الذي

---

(١٢) معدن الصفر (بكسر الصاد والفاء) •
(١٣) من الطبيعي انه لم يعد هناك وجود لهذه الظاهرة في مجتمعنا الحالي •
(١٤) سبق ذكره •
(١٥) احدى اكبر كنائس « لندن » •
(١٦) يبدو انه تركي •

اصطحب بعضنا بعد وقت قصير من وصولنا لحضور قداس • وفي غضون الصلاة المشابهة لأي قداس في أوربا ، اتخذت جميع النسوة لهن مجلساً في القسم الامامي من الكنيسة بينما شغل الرجال الجزء الخلفي •

طرابيش تركية

ترتدي النساء ملابسهن على الطريقة الاوربية ، غير ان كل واحدة منهن كانت تضع على رأسها غطاء فضفاضا من الحرير يشبه الساري الهندي(١٧) • أما أحذيتهن فكانت ذات كعب عال لكنها مزودة باجزاء علوية فوق القسم الامامي من القدم فقط كما كانت كل الاحذية من صنع جيد •

يرتدي الرجال ملابس اوربية اعتيادية ويعتمرون الطرابيش التركية ، ولقد جند القليل جدا للخدمة العسكرية من جانب الترك ، باستثناء العمل كمساعدين في المستشفيات والدوائر ، ولكن كان عليهم ان يدفعوا ضريبة سنوية باهظة مقابل اعفائهم • ونظرا الى ان مجمل تجارتهم في حالة كساد من الناحية العملية ، فانهم يشعرون بوطأة الحرب بقسوة •

وبعد ان يتحدث الكاتب باسهاب عن الجالية المسيحية في بغداد يمضي الى القول : «وبعد يومين تغلبنا على رفض المدير لذهابنا الى الخارج ، وهكذا انطلقنا لتناول العشاء في مطعم النمر(١٨) • استمتعنا بنقاء هواء الصباح المبكر واتخذنا مجلسنا على شرفة مكسوة باغصان الكروم مطلة على النهر العظيم ، وبدا لنا انه من الامور الجيدة ان يعود المرء الى الحياة ثانية • وبين هنيهة وأخرى، كانت قوارب المجداف الصغيرة تشق طريقها صعودا او نزولا في دجلة حاملة الضباط الاتراك وهم جلوس تحت مظلات صغيرة أو تقع اعيننا على قفة(١٩) تنحدر ببطء مع تيار الماء ومحملة بكل شيء حتى الرقي(٢٠) الاخضر • وعلى بعد

---

(١٧) وهو ما يعرف بغداديا باسم «ازار» وكان يصنع في «بغداد» من الحرير الطبيعي الفاخر وترتديه النسوة المسيحيات واليهوديات في الاعياد والمناسبات الدينية •

(١٨) «تيغر» بالفرنسية •

(١٩) وتسمى في العراق «كفة» بالكاف الفارسية •

(٢٠) «البطيخ» في بعض الاقطار العربية •



صبي بغدادي يقوم بتلميع مقرعة النحاس الاصفر للدار التي اقـــــام بها الاسرى الانكليز الاربعة من الاطباء .

حوالي ثلاثمائة ياردة الى الشمال من مكاننا يمتد الجسر الوحيد الذي يربط بين الضفتين وهو مستند على القوارب . كان الجانب الاخر للنهر حافلا بالبيوت ذات الشرفات مشيدة على حافة النهر ، وبالمستطاع رؤية الناس فيها وهم يرتشفون الشاي او البن . ومقابلنا تماما توجد ثغرة بين صف من المنازل يشغلها بستان لاشجار النخيل ، والى يساره ، وفوق الاشجار ، يمكن رؤية خزان الماء المرتفع الذي يعود الى نهاية الخط الحديد الالماني .

في الاسواق

كان صاحب المطعم يقف من كل قلبه خلف فكرة «الوفاق الدولي» ، وعلى الرغم من أنه امضى كل حياته في بغداد ، الا انه بدا ايطاليا اكثر من أي شيء أخر . وعندما لا يكون هناك أحد على مقربة منا ، فانه يقترب ويتحدث معنا دون أية قيود ، ولكن عندما يكون هناك بعض الالمان ، فانه يكتفي ببعض الكلمات التي يقولها لنا «على انفراد» . اخبرنا انه سيتقبل اى نوع من النقود وانه لن يتقاضى شيئا اذا كنا بحاجة الى المال ، وقد بدا انه يتحمل وجود زبائنه الالمان بصعوبة .

وفي وقت لاحق ، وعندما رفعت جميع القيود على تحركاتنا ، اعتدنا على تناول الطعام في «النمر» مرة أو مرتين في الاسبوع الى جانب وجبة الفطور من حين الى اخر . وعند مغادرتنا المطعم ، كنا نستطلع الاسواق وتتفرج على المقاهي ، وذات يوم ، وبينما كنا نسير هناك اخترقنا حشدا كبيرا اكتشفنا انه كان يتفرج على مسيرة جنودنا الهنود الذين وصلوا توا الى داخل المدينة . كانوا يمرون أمامنا ، وقد حمل كل منهم رزمة صغيرة من الحوائج ، وعلى الرغم من تعبهم فانهم قدموا بحالة حسنة وساروا بخطوات جيدة ، كانت وجوههم مجردة من اي تعبير أو حزن ، ومرد ذلك ، دون شك ، الى «القسمة والنصيب» !

ان الاسواق الرئيسة في بغداد عبارة عن اثنين او ثلاثة شوارع مسقوفة ذات سطوح منخفضة معقودة تمتد بمحاذاة النهر وسط المدينة ، وهي اشبه بالخنادق من اي شيء اخر ، وتضم حجرات في كل جانب هي بمثابة حوانيت . وعرض

هذه الاسواق لا يكفي الا لمرور عربة اجرة صغيرة خلالهما ، وهي كريهة الرائحة وفاسدة الهواء ، اما في الليل ، وبوجود مصابيح قذرة منصوبة في مواقع نادرة على الجدران ، فان هذه الاسواق المهجورة ، باستثناء حارس أو حارسين، تتحول الى أماكن مسحورة مليئة بالاشباح والعفاريت وكأنها سرداب لدفن الموتى في احدى الكاتدرائيات !

البراغيث

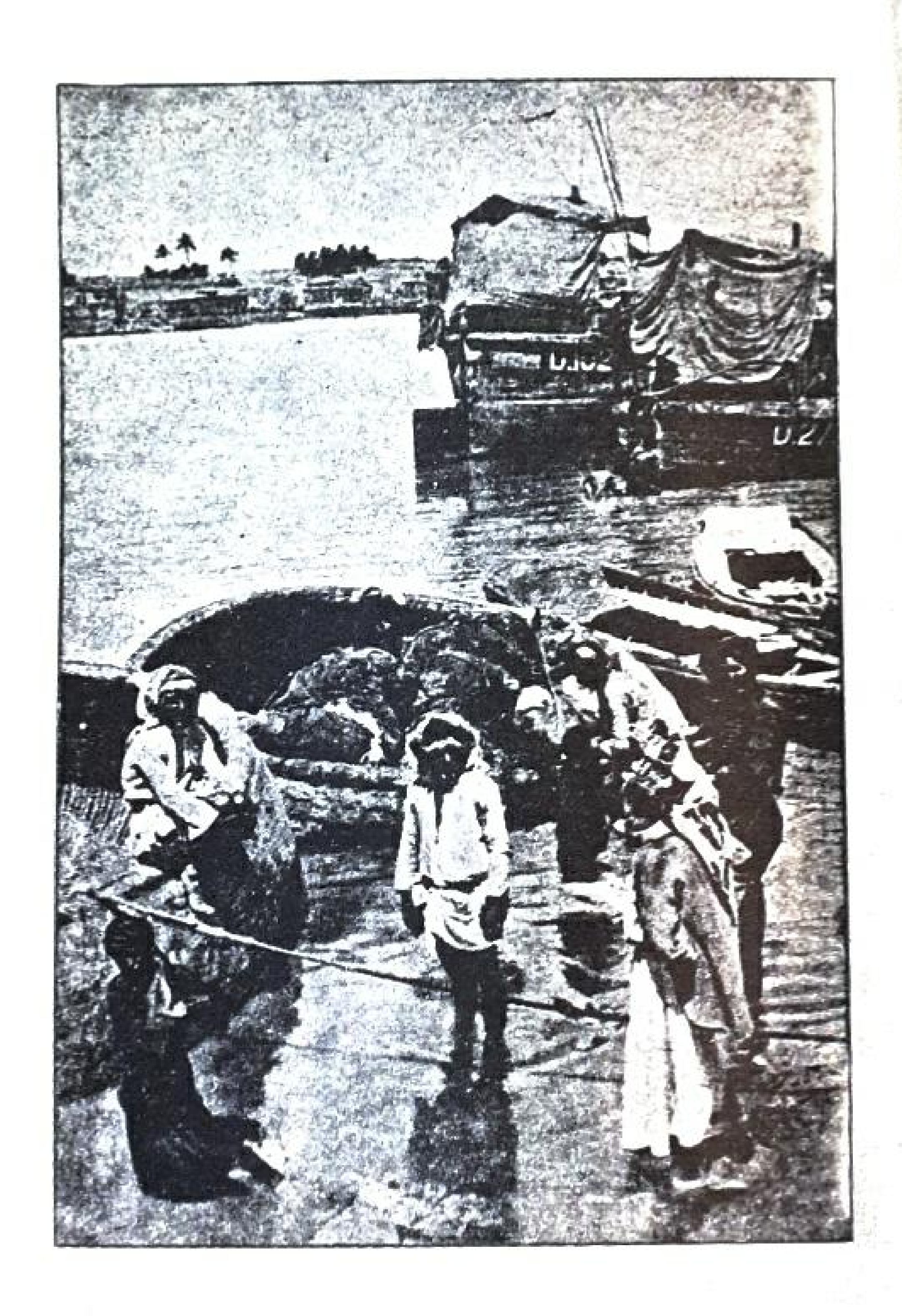
اما اسواق صاغة الذهب والفضة ، فانها تشكل سلسلة او بالاحرى شبكة من الممرات المعقدة ، والمحيرة ، من الازقة البالغة الضيق حيث يمكن للمرء ان يظل طريقه فيها بسهولة بالغة • لقد وقعت اعيننا فيها على القليل جدا من المصنوعات الجيدة ، والتي كانت في معظمها من المصوغات الرخيصة السيئة الشكل مثل تلك التي تتزين بها نساء الاحياء الفقيرة ، ومع ذلك ، فلربما كانت افضل بضاعاتها مخفية في مكان بعيد • لقد شعرنا في بغداد ، كمدينة ، بخيبة أمل كبيرة ، فليس فيها اية مبان مؤثرة في النفس ، اللهم الا ثكناتها العسكرية المتعددة، وقد بدت المدينة ، في اعيننا ، عادية جدا •

وبعد ذلك بعدة أيام ، جرى تحويل ستة منا بعيدا عن «الايكول» وتم اسكاننا في ثكنة المدفعية [٢١] (تدعى القلعة في بعض الاحيان) قرب باب المعظم، وهي مرتكزة على سور المدينة القديم المتهدم • نزلنا في غرفة في الطابق العلوي، وكانت هذه حارة بشكل يبعث على اليأس وحافلة بالبراغيث في غضون الليل ، وتطل على ساحة الثكنة العظيمة ، حيث يجري باستمرار تدريب وحدات صغيرة من الرجال على استعمال البنادق ، ومن الطلبة العسكريين على تمارين السيوف •

شيدت الحامية حول ثلاثة جوانب من هذه الساحة ، بينما يوجد على الرابع ، وهو شاطىء دجلة ، ورش صناعية ومخزنان او ثلاثة • شغلنا غرفا تقع

---

(٢١) هدمت ، فيما بعد ، وشيدت عليها وزارة الدفاع الحالية •



شريعة او شاطىء السمك قرب المقيمية البريطانية .

تماما الى يسار البوابة الرئيسة عند دخولها ، اما الفسحة الكائنة بيننا واقرب مخزن في الزاوية ، على بعد حوالي ٥٠ ياردة من الثكنة ، فقد استخدمت بمثابة مستشفى وهي مليئة بالمرضى والجرحى الاتراك • وبعد وصولنا الى هناك بوقت قصير ، جرى تسليم الطابق الارضي من هذا الجزء الينا لتحويله الى مستشفى كبير تديره جمعية الهلال الاحمر العثمانية •كان معظم جرحانا ينتمون الى «قوة الانقاذ»[٢٢] وقد ظلوا أسرى مددا مختلفة تراوح بين ثلاثة اسابيع وعدة شهور •

نظـــرات مستغربة

كانت معاملاتنا مع بائعات الخبز ودكان السكاير القريب تراقب ، عادة ، من جانب عدد من الاهالي الذين أثارهم الامر ، والذين ظلوا يتابعوننا بنظرات مستغربة ونحن نبتعد وقد تكدست فوق اذرعنا وداخل جيوبنا ارغفة الخبز وعلب السكاير •

كان كبير الجراحين في هذا المستشفى يدعى «كنعان بك» الذي شغل ، قبل الحرب مركز «الجراح المدني» لبغداد وما زال يعتني بأمر المستشفى البلدي الكبير على الجانب الآخر للنهر والذي استوعب العديد من الجرحى •

وبهذه الصفة ، فانه أصبح على معرفة بالجالية الانكليزية أيام السلم • كان تركيا ذكيا ، سبق له السفر كثيرا ونال تعليمه الطبي في باريس ، ولم تساوره الاوهام بشأن تركيا لانه يرى أنه مهما كان المسار الذي ستتخذه الحرب، فانها لن تكسب شيئا ، كان جراحا جيدا ويمكن القول انه أفضل اولئك الذين التقيت بهم •

ان معظمهم[٢٣] غير متعاطفين ، في سلوكهم ، مع مرضاهم واظهروا خشونة في معاملتهم وعملهم بشكل عام • كان مدير المخزن في المستشفى تاجرا

---

(٢٢) هي القوة التي حاول بها الانكليز انقاذ «طاوزند» ورجاله في «الكوت» ولكن دون طائل •

(٢٣) الاطباء الترك •

للخيول أمضى معظم وقته في «بومبي» وكان زائرا دائما لسباقات الخيل في «بونا»[24]، أما الآن فقد ذهبت تجارته ادراج الرياح ، فأخذ بتوزيع وقته بين دواليب مخزنه ونرجيلته !

تباهي المستشفى بوجود حمام تركي دعينا الى الاستفادة منه في أي وقت نشاء ، وكنا قادرين على أن نوصي مرضانا بالاستحمام فيه من وقت لاخر ، وهو أمر استحسنوه كثيرا . كان الخادم ، عبدالله ، عجوزا عربيا يضمر مشاعر الصداقة تجاهنا وقد عبرنا ، على الدوام ، عن شعورنا بالامتنان والراحة جراء الخدمات التي قدمها لنا . ولا تفوتني الاشارة الى وجود فرقة موسيقية فظيعة للغاية ، تعزف هنا وهناك حوالي مرتين في الاسبوع ، وتتجول في جميع مستشفيات المدينة وتعزف لعدة دقائق ثم تغادر المكان . ويبدو ان مقرها في « نكنة المشاة » أو « السراي » المجاور ، حيث يوجد جميع ضباط الجيش ، وهناك كانت تؤدي زبدة ألحانها المحدودة !

انفجار رهيب

وذات يوم ، بعد وقت قصير من محاولتنا النوم بعد الظهر للخلاص من حر النهار ، طرق سمعنا صوت انفجار مرتفع بدا وكأنه أحد المدافع التي تطلق ، عادة ، عند انتصاف النهار ، غير أننا لم نضيع وقتاً في الاندفاع الى الخارج لتحري حقيقة ما حدث . كانت سحب الدخان ترتفع من زاوية القلعة ، وخلال دقيقة ، أو ما يقارب ذلك ، حدث انفجار آخر مدو واندفعت الى الجو كتلة من الدخان والتراب اكبر من الاولى . وعلى التو ، اخذنا بسماع قعقعة الذخيرة المؤلفة من اسلحة صغيرة ، وتعاقبت الانفجارات واحدا بعد آخر ، بعنف متزايد ، حتى صرنا نظن ان معركة ضارية كانت تدور رحاها على بعد عدة ياردات . ارتدينا ملابسنا على عجل ، واخبرنا رجالنا بأن يشدوا امتعتهم ، وتوجهنا الى الخارج ثم نزلنا من السلم الى المستشفى لانقاذ الجنود الجرحى والمرضى . وما هي الا لحظات ، حتى اندفع احد الترك وأمرنا بالنجاة بانفسنا

---

(24) مدينة هندية كبيرة في الوقت الحالي



القلعة المصفحة عند باب المعظم ١٩١٦ : انفجار هائل !

بأسرع وقت ممكن ، ثم جاء اشد الانفجارات عنفا وهو الذي كاد أن يمـــزق المكان اربا اربا . وهنا اخذت النار بالاندلاع في نهاية الثكنة القريبة من المخزن، وحصل اندفاع وحشي من قبل الجرحى والمرضى الاتراك من الغرفة العلوية ، ومن السلم ، عن طريق البوابة .

اخذت قطع من القذائف ، والبنادق الملتوية والركام من شتى الانواع ، بالاندفاع الى السطح وساحة الثكنة وبدا وكأن جهنم قد انفلتت من عقالهـــا . استمر المخزون من الاسلحة الصغيرة بالانفجار والانطلاق ، في كل اتجـــاه ، وسط المشاعر الثائرة ، فانطلقت احدى القنابل صوب المستشفى على الجانـــب الآخر للنهر واستقرت في باحته ، ووقعت عدة اصابات في المدينة . بعد ذلك ، ركض جندي تركي الى مسجد يقع على بعد حوالي ربع ميل وأمر بفتحـــه ، ثم طلب منا أن نتخذ مستقرنا هناك في الوقت الراهن . وهكذا امضينا بعد ظهر ذلك اليوم البالغ الحرارة في نقل جميع مرضانا وحوائجنا الى هناك ، ولم يكن من الامور المثيرة للدهشة أن يموت اثنان من اولئك البؤساء ، وهما في حالة مرض شديد ، بفعل الجهد البالغ الذي بذلاه للخلاص من ألسنة اللهب . أمـا نحن ، فقد نزلنا مدة يومين في ساحة المسجد في ظل ظروف غير مريحة للغاية ، ولكن ما أن حل اليوم الثالث حتى وضعوا تحت تصرفنا منزلا جديدا خصص للعاملين معنا وللمرضى ، أما نحن ، الاطباء ، فقد عدنا الى مقرنا القديـــم في «ثكنة الخيالة» في «الميدان» .

قدوم « الدب »

هنا ، شعرنا براحة اكبر رغم ان الجو كان بالغ الحرارة . وذات مـرة وصل المحرار الى ١١٤ درجة فهرنهايت في غرفتنا ، بيد أن الليالي المنعشة على السطح الجيد عوضتنا شيئا مما عانيناه . كان العديد من الضباط الترك يقيمون معنا وسرعان ما تعرفنا عليهم ، وفي احدى المناسبات تنزهنا على ظهور الخيول معهم . أما القائد ، وهو ضابط برتبة بمباشي[٢٥] ، فكان متفاخرا برصيد خمسة

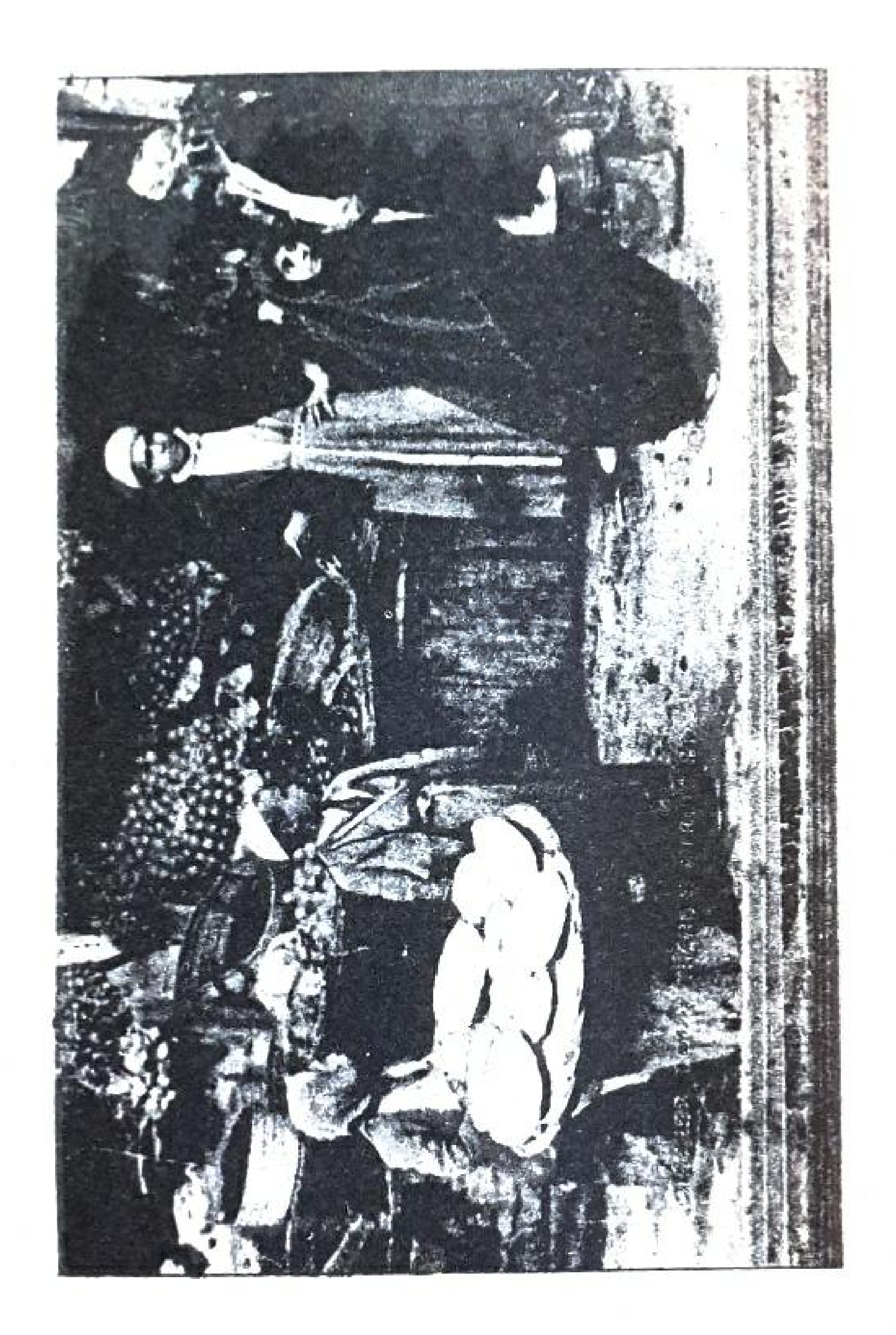
(٢٥) «مقدم» وتلفظ احيانا «بكباشي» وكانت مستخدمة في الجيش المصري أيضا .

عشر عاما من القتال لكنه اتصف بالطيبة البالغة ، فتلقينا منه معاملة حسنة غير مألوفة . كان يقول ، في كل مناسبة ، ما يلي : «اذا كنا في حالة قتال معكم ، من الناحية العملية ، فهذا يعني الحرب ، ولكن عندما ينتهي القتال ، وتصبحون بين ايدينا ، فأنتم ضيوف علينا . انني ، طبقا لذلك ، اعاملكم مثل معاملتي لجنودي بالذات ..

ومن فوق سطح الثكنة ، كنا نتمتع بمشهد بالغ الوضوح للمناطق الريفية حولنا : طريقان رئيسان يخترقانه ، واحد طويل بجانب النهر الى الكاظمين والموصل وآخر وهو مجرد سبيل يشق الصحراء ، يؤدي الى الشمال الشرقي وكرمنشاه . وكنا نتفرج ، فوق الاخير ، وباستمرار ، على القوات وناقلات الذخيرة وهي تأخذ طريقها لمجابهة الروس . وذات يوم ، وصل اربعون لوريا من من المانيا الى بغداد من جهة الشمال ، ثم مرت أمامنا في طريقها الى خانقين . كان الاتراك يرسلون كل رجل قادر ومتوفر لدفع «الدب»(٢٦) الى الخلف ، نظرا الى ان الروس وصلوا مسافة قريبة جدا لا تبعد سوى اميال معدودة ، ولهذا شعر المرء بوجود قلق وانفعال مكبوت في المدينة .

وعلى أية حال ، فان عزاءنا الوحيد ، ذلك الوقت ، كان توفر الفواكه والخضروات التي يمكن الحصول عليها بسهولة في بغداد . ورغم أن موسم البرتقال قد فات أوانه ، الا انه كانت هناك غزارة في كل نوع من الفاكهة الاخرى : الخوخ ، والاعناب ، والرقي ، والبطيخ والاجاص وهي تتنج بكثرة وتغرق أسواق مدينة الخلفاء . »

(٢٦) تعبير يستخدم كناية عن الروس . وقد جرى التجنيد الجماعي والمعروف باسم «السفربر» في هذا الوقت بالذات .



بائع الفواكه وبائع الخبز في الميدان عل مقربة من القلعة المقطمية

الفصل الرابع

العيون الزرق تفتـح مدينـة الخلفاء

اعقبت سقوط «الكوت» فترة من الهدوء ، وان كان ذلك شيئا ظاهريا ، وعلى الرغم من ان القيادة التركية ظلت عاطلة عن تعزيز قواتها واعادة تنظيم مواقعها وخطوطها ، باستثناء توجيه بعض القطعات الى «خانقين» لصد القـوات الروسية وطردها خارج العراق ، وحتى الاندفاع الى «افغانستان» و «الهند» حسب احلام «أنور» ، فان الانكليز ، الذين صمموا على تنسيق خططهم مـع الروس ، ارتأوا أن هزيمة «الكوت» لاتعني نهاية الامور . لذا ، رغم حـرارة الصيف المحرقة كما ورد في أحدى رسائل «بيـل» اتخذوا التدابير لتحسـين قواعد «البصرة» ومينائها ، وشرعوا بمد السكك الحديـد بـين « البصرة » و «الناصرية» و « القرنة» و «العمارة» وبين «شيخ سعد» والجبهة على الضفـة اليمنى[1] لنهر «دجلة» ، فوصل الخط الى تلول «السن» في أيلـول ١٩١٦ ، و «امام منصور» مقابل «الكوت» تقريبا في كانون الاول ، و «عتاب» على الجانب الايسر لنهر «الغراف» المتفرع من «دجلة» .

ومن الملاحظ ، ان هذه الاستعدادات ، والاخرى التي سيأتي ذكرهـا ، قد اشتد زخمها بعد انتقال السيطرة على الحملة في العراق من حكومة الهنـد الى وزارة الحربية في لندن في ١٦ تموز ١٩١٦ ، وقيام الاخيرة بارسال الجنرال «مود» الى «البصرة» لاستلام القيادة العامة . ولقد أدى التبدل في السيطرة الى حصول القوات المتأهبة للزحف شمالا على معظم احتياجاتها بأقصر وقت . فقد ارتفع استيعاب المستشفيات من ٤٠٠٠ سريـر الى ١٦٠٠٠ سرير ، وزرعـت مساحات واسعة من الاراضي لتأمين الاقوات لجنود القطعات ، والمراعي للخيول،

---

(١) يقصد بهذا التعبير يمين مجرى الماء في أي نهر وكذلك اليسار .

اداة القتال بالنسبة للخيالة وواسطة النقل المهمة ذلك الحين • وفي نفس الوقت تقرر التقليل من استخدام النقل النهري بالنظر لانخفاض منسوب «دجلة» ، و«الغراف» بالتالي ، والاستعاضة عنه بالنقل البري • ولهذا تم تجهيز ست سرايا نقل آلية ، وزودت القطعات بعدد كبير من سيارات الركوب والمدرعات والدراجات البخارية •

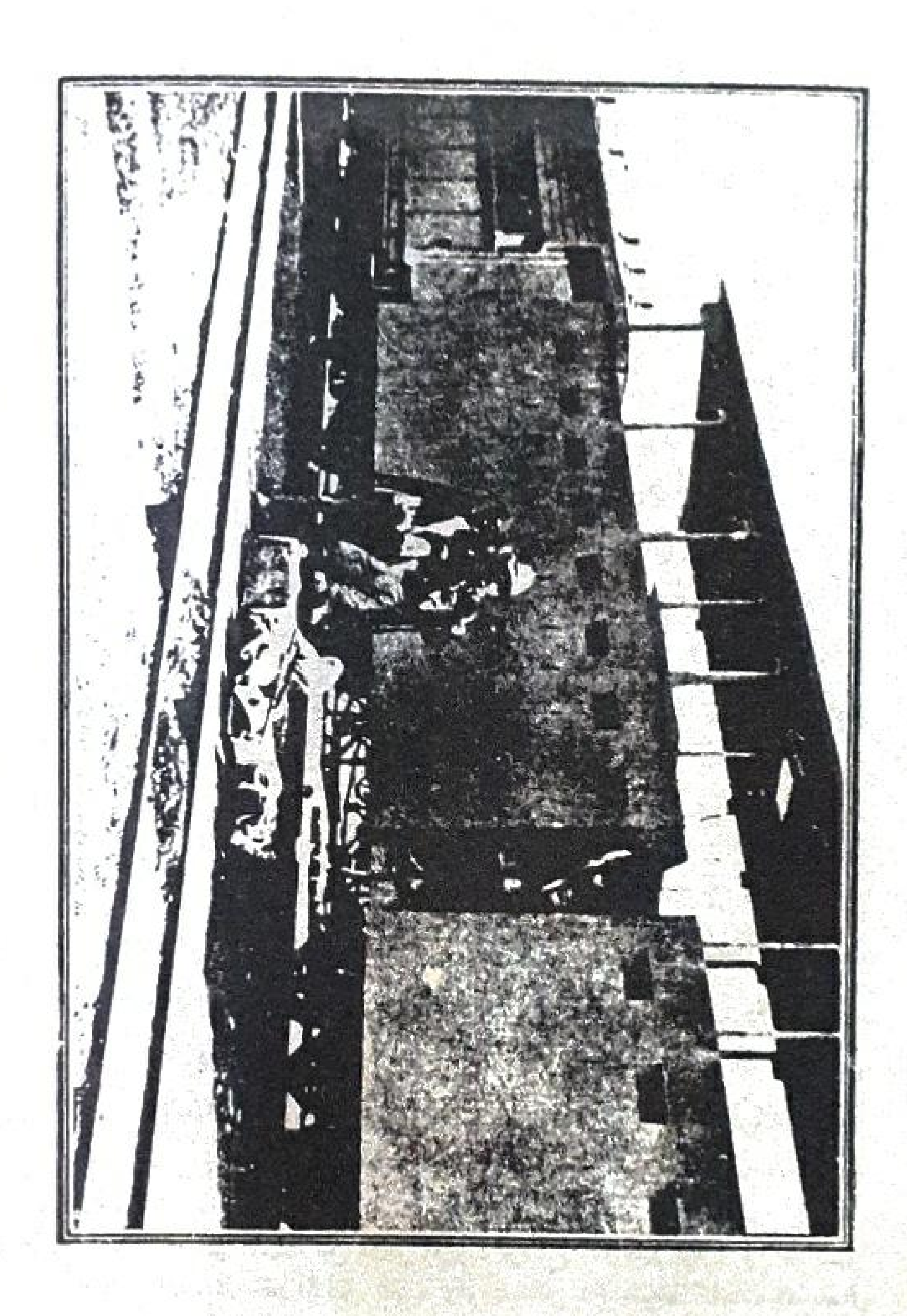
عناد الترك

ولم يكتف «مود» بذلك ، اذ كان يعرف مدى عناد الترك وبسالتهم ، خاصة في المعارك الدفاعية ، لذا حصل على ما يلزم لقواته من المدافع الثقيلة والهاونات وكدس كمية كبيرة من شتى انواع العتاد ، ودرب افراده على استخدام هذه الاسلحة وبذلك ضمن تفوقا هائلا على خصومه في العدد والتنظيم • اضف الى ذلك ان الموقف كان ملائما جدا للانكليز من الناحية العسكرية ؛ اذا كانوا قادرين على الانطلاق في أي وقت ، خاصة على الضفة اليمنى لنهر «دجلة» وعلى خط «الغراف» نظرا لضعف المواقع التركية وتشتتها وعدم قيام قيادتها بأي عمل لسد نواقصها او تعزيزها •

وبالنسبة للقوات والعتاد ، فان العدد العام للجيش الزاحف وصل في تشرين الأول الى ٢٢١,٠٠٠ شخص منهم ٥٣,٠٠٠ من المشاة و ٤,٦٠٠ من الخيالة زودوا بحوالي ٤٥,٠٠٠ بندقية و ٣٥٠٠ سيف و ٧٤ مدفعا وسرب طائرات ، مع وحدة من مهندسي الجسور وذلك لنصبها عند الضرورة ، فوق «دجلة» و «الغراف» و «ديالى» خط الدفاع الاول عن «بغداد» • والواقع ، فان «خليل باشا»[٢] قائد الجيش التركي ، وجد نفسه ملزما بتوزيع قواته المنهكة

---

(٢) – « هذا الوالي انهمك انهماكا شائنا في بعض الموسات فتسلطت عليه ، وخلبته لبه ، أو أنها الهته عن الامر المهم ، وشاع انه قال لها : (انا قائد الجبهة وانت الحاكم المطلق علي) ولم يتحاش من صرف كلمات امثال هذه مما لايليق بمقامه ومكانته وامره الاهم •• فلم يبال بالوضع ، واشتغل في لذائذه واهوائه النفسية • والناس في ريب من امرهم ، ولبس من حالهم ، وما يدرون عما تضمره لهم الايام •» عباس العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ، ج٨ ، ص ٢٩٩ •



قطار مسلح استخدمه الانكليز في العمليات الحربية ونقل القوات والاكوات

من خانقين الى بغداد فالكوت ، ومن بغداد الى الرمادي والسماوة ؛ لذا وقع عبء الدفاع عن جبهة «دجلة» على عاتق الفيلق الثامن عشر بقيادة «كاظم قره بكر» ويتألف من الفرق ٥١ و٥٢ و٤٥ ، وهو مزود بحوالي ١٠٠٠٠ بندقية و٥٠ مدفعا . وكان الاخير يرى ان الانكليز سيزحفون من جانبي نهر الغراف انطلاقا من الناصرية وانهم سيعبرون «دجلة» شمال تفرع «الغراف» منه لمحاولة تطويق الترك في الكوت ومنطقتها وقطع الطريق عليهم وارغامهم على الاستسلام أو الابادة ، وبذلك يصبح السبيل الى بغداد مفتوحا أمامهم على مصراعيه . وعلى الرغم من مبادرة «قره بكر» الى رفع هذا الرأي الى قيادة الجيش السادس ، فانه قوبل بالتجاهل .

اضغاث أحلام

وقبل المضي في الحديث عن العمليات العسكرية ، نرى ضرورة تلخيص العوامل التي حدت بالانكليز الى استئناف الزحف رغم هزيمة « الكوت » الساحقة :

اولا : لا يمكن الاستفادة من الموقع الاستراتيجي البالغ الاهمية للعراق واستغلال ثرواته الزاخرة ، الظاهرة منها والخفية ، الا بالاستيلاء على بغداد وهي بمثابة القلب منه .

ثانيا : حرمان الاتراك من مركز عملياتهم الحربية في العراق وجعلهم معرضين الى هجوم بريطاني - روسي في منطقة ولاية الموصل .

ثالثا : توجيه ضربة سياسية ومعنوية للترك نظرا لما لهم من ارتباطات دينية وتاريخية مع مدينة الخلفاء .

رابعا : الحصول على كسب معنوي ، ليس بالنسبة للامبراطورية البريطانية وبلدان الحلفاء فحسب ، بل وحتى مسلمي الهند الذين يوجد بينهم كثيرون من المتعاطفين مع العثمانيين ويعتبرون بريطانيا مسؤولة عن خروج الشريف «حسين» عن طاعة الخلافة الاسلامية .

خامسا : تقوية مركز بريطانيا في البصرة وما يجاورها ، ورفع سمعتها امام الامراء والشيوخ المتعاطفين معها في الخليج العربي وشبه الجزيرة العربية •

سادسا : اعطاء زخم للثورة العربية في الحجاز التي اندلعت ضد الترك في حزيران ، ١٩١٦ •

سابعا : عدم تجميد الموقف وفتح احتمالات جديدة أمام طرفي النزاع •

ثامنا : الثأر لكارثة «الكوت» التي اعتبرت اشنع نكبة عسكرية في تاريخ بريطانيا الحربي •

تاسعا : وبينما كان الانكليز يتطلعون الى اقامة تعاون وتنسيق عسكريين مع الروس القادمين الى العراق عبر ايران ، واحتلال بغداد يوفر ذلك بشكل اسرع وافضل بالتأكيد ، فقد كانت تساورهم ايضا مخاوف من احتمال استيلاء الروس على المدينة • وهذا أمر اعتيادي في السياسة الدولية عندما يأخذ كل طرف مصالحه بنظر الاعتبار ![٣]

كتبت «بيل» في رسالة الى والدها بتاريخ ٩ آذار ١٩١٧ ، أي قبل سقوط بغداد بيومين تقول : « هذه هي نهاية اضغاث الاحلام الالمانية بالهيمنة في الشرق

---

(٣) سياسة «العباءة والخنجر» المعروفة •

ـ «ليس لبريطانيا العظمى صداقات دائمة او عداوات دائمة ، بل مصالح دائمة •» رئيس الوزراء غلادستون (١٨٠٩ ـ ١٨٩٨)

ـ «وبالرغم من الحاح القيادة العامة البريطانية على القيادة الروسية بتسريع تقدم الجنرال باراتوف الى بغداد لتهديد خط رجعة الجيش السادس التركي وقاعدته بغداد لتسهيل عملية انقاذ الجنرال طاوزند ، نجد ان الروس يتماهلون في ذلك • فقد وصل الرتل الروسي الى كرمانشاه في ٢٦ شباط ١٩١٦ ولم يصل هذا الرتل الى كرند التي تبعد عشرة مراحل عن بغداد الا في ٢٩ نيسان ١٩١٦ اي يوم تسليم الجنرال طاوزند ويعتقد الكثيرون ان هذا ناشيء عن التنافس السياسي الخفي بين الدولتين في سبيل سبق الوصول الى بغداد •»

شكري محمود نديم ، حرب العراق ، ص ١٠٦ •

أي أن الروس ارتأوا ان انقاذ «طاوزند» يعني تفرغ الانكليز للزحف قبلهم على بغداد . وان استسلامه سيوفر لهم هذه الفرصة !



الجنرال مود : تنسيق جديد في تاريخ الحروب

الادنى ـ برلين ـ بغداد وجميع البقية (٤)، ان مكانهم لن يكون في هـذه الشمس ؛ كاد الامر ان يصبح كذلك لو تركوا لوحدهم ولم يحاولوا فرض الخطوة بالحرب • أما الآن فقد خرجوا منه الى الابد،كما يساورني الامل وليس هناك من أحد يقدمون له الشكر غير انفسهم ..(٥)

الهدف الاول

ومهما يكن من أمر ، فاننا لا نريد الدخول في التفاصيل اليومية الآنية للعمليات العسكرية ، فذلك يتطلب سفرا طويلا • وبمقدور الباحثين العودة الى المراجع والكتب الكثيرة التي نشرت حول الموضوع ، بل نقول أنه كانت أمام «مود» اربع مهام محددة عند تكامل تحشد قواته مقابل «الكوت» هي :

الاولى : القضاء على القوات التركية في القاطع المعروف باسم «دورة الخضيري» والمحصور بين يسار «الغراف» ويمين «دجلة» •

الثانية : التخلص من خطر القوات الموجودة الى الغرب من «الغراف» على امتداد «دجلة» وهي التي تهدد ميسرة الانكليز •

الثالثة ايهام الاتراك بانه يروم عبور «دجلة» الى الشرق من مقابل موقع «الصناعيات» جنوبي «الكوت»، لذا اصدر اوامره الى القطعات الموجودة جنوب الموقع بمشاغلة العدو دوما •

الرابعة : عبور «دجلة» عند شبه جزيرة «شمران» الواقعة على بعد ٧ أميال شمالي «الكوت» لغرض قطع الطريق على خصومه المتقهقرين أو أبادتهم •

وبعد معارك عنيفة استمرت شهرا كاملا ، أي من ١٨ كانون الاول ١٩١٦ حتى ١٩ كانون الثاني ١٩١٧ ، حقق الانكليز الهدف الاول بعد أن دافع الترك

---

(٤) تقصد سكة حديد برلين ـ بغداد ـ البصرة والتي تصور الالمان ان بمقدورهم ايصالها الى الكويت ، غير ان الانكليز بددوا ذلك التصور •

(٥) Gertrade Bell, P. 55.

بضراوة عن مواقعهم ، ولكن دون جدوى • استمرت عمليات التمشيط من ٢٠ كانون الثاني وتكاملت في ١٥ شباط بعد ان استسلمت القوات التركية المتبقية في دورة «بشارة» المقابلة الى «بيت شمران» تقريبا •

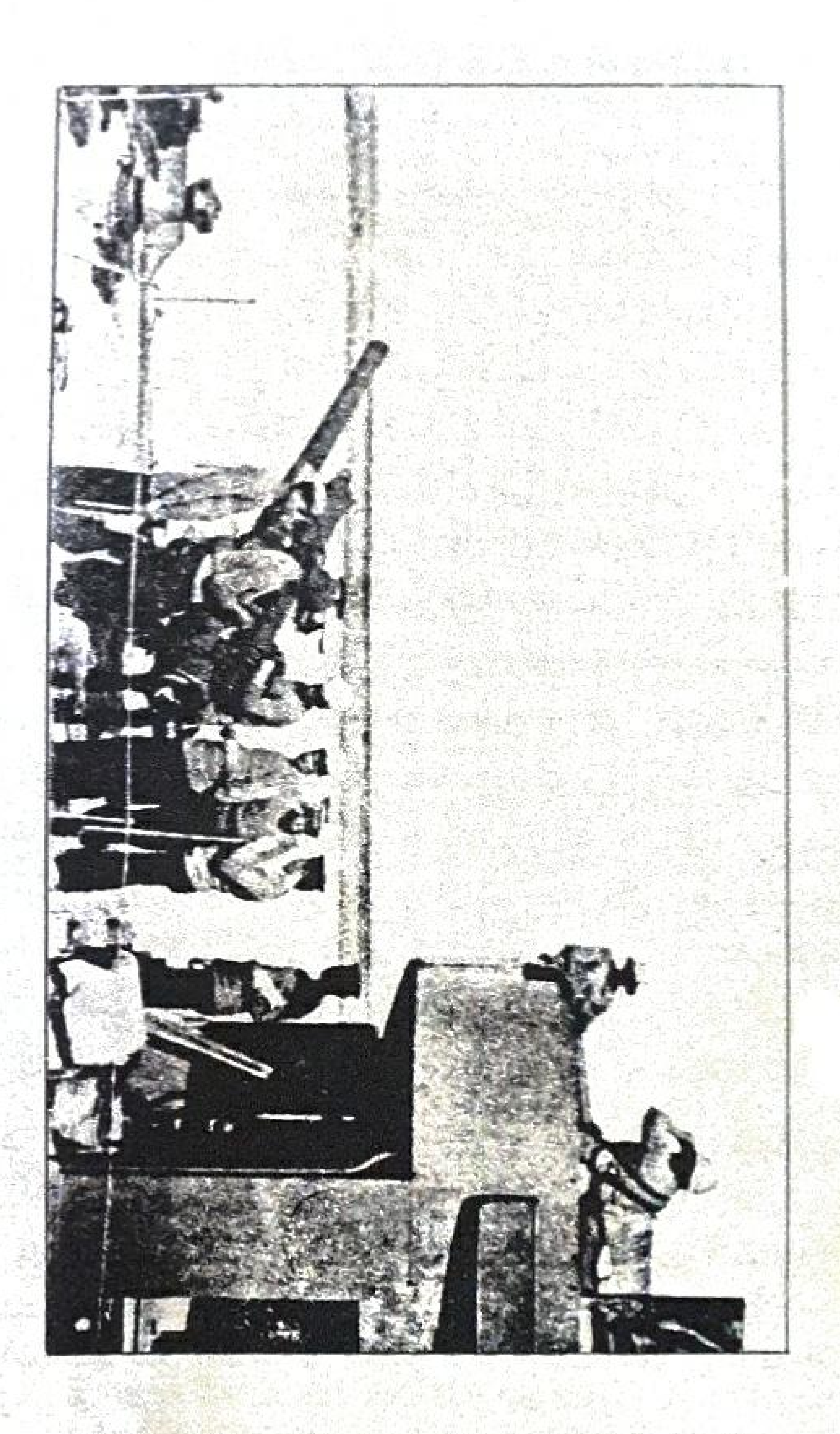
معلومات وافية

لقد تكبد الاتراك ، خاصة بفعل القصف المدفعي العنيف المتواصل على مواقعهم شرقي «دجلة» ، خسائر فادحة لم يتمكنوا من تعويضها أبدا • وما ان حل يوم ١٧ شباط ، حتى شن الانكليز هجوما شديدا على موقع «الصناعيات» ، وفي ذات الوقت ساق «مود» عجلات محملة بالخشب وبعض الزوارق في «الغراف» زيادة في ايهام الترك بانه يروم أقامة رأس جسر شمالي «الكوت» مباشرة • وعندما ازفت ليلة العبور الحقيقي (٢٢-٢٣ شباط) ، ركزت المدفعية الانكليزية قذائفها على الضفة اليسرى مقابل قلعة «المقاصيص» ثم جرى انزال ستة قوارب في نفس المنطقة اغرق الاتراك نصفها وعادت البقية • أما عند «بيت شمران» فقد بلغ من شدة المباغتة ، أن المدافعين عن الموقع لم يطلقوا النار على جنود الانزال الا بعد مرور اكثر من ساعة على ذلك • وتبين فيما بعد ، ان القائد البريطاني حرص على تدريب جنود القوارب في نهر «الغراف» ، كما حصل على معلومات وافية ودقيقة عن طريق ارسال ضباط ركن ومهندسين ومدفعيين مع الدوريات التي كانت تتجول في المنطقة • وبعد ان تم انتقاء ثلاثة معابر في الوجه الجنوبي لدورة «شمران» ، وتوفير النار الساترة للقطعات العابرة ، ثبتت مواقع الاجتياز ومحل الجسر نهائيا بحيث يمكن ايجادها ليلا •

شرعت القطعات المذكورة بالانزال في الساعة الخامسة والنصف من مساء ٢٢ شباط ، وبعد أقل من ساعتين ، اقيم رأس جسر على الجانب الشرقي• وفي الساعة الرابعة بعد ظهر اليوم التالي ، اكتمل نصب الجسر [٦]، وبادر

---

(٦) في الواقع ، لم يفلح الانكليز في اجتياز «دجلة» بالقوارب الا من موقع واحد اقيم الجسر على مقربة منه بعد ذلك • اما المحاولتان الاخريان فقد فشلتا نتيجة لانتباه الترك في نهاية الامر وتسليطهم نيرانا قوية على العابرين •



قارب حربي انكليزي مسلح في نهر دجلة قرب «باوي» في طريق الزحف على بغداد ١٩١٧ .

الانكليز الى التدفق ، رغم محاولة الترك شن هجوم مضاد مساء ٢٣ شباط ، حتى اكمل نزول القوات المنتقاة صباح ٢٤ شباط بعبور فرقة خيالة وفرقتي مشاة والمدفعية وبذلك اوشك الاتراك على الوقوع في فخ محكم .

سباق مع الزمــــن

وازاء هذا الوضع الذي يهدد بكارثة رهيبة ، واتضاح تفوق الانكليز في كل شيء ، لم يعد أمام الترك غير السباق مع الزمن . وبناء على ذلك ، قرر «خليل باشا» الانسحاب الى «بغداد» ، فتلقت الفرق الامر الخاص بترك مواقعها في الساعة الثامنة والنصف مساء ٢٤ شباط على أن تخصص قوة لحصر الانكليز في دورة «شمران» والقيام بمشاغلتهم في قتال لحماية المؤخرة . غير ان هــذه القوة تقهقرت بدورها في ساعة متأخرة من مساء اليوم التالي بعد أن فقــدت نصف افرادها ومدافعها . أما «مــود» فلم يخسر في حركة العبور بأسرها سوى ٣٥٠ فردا » .

في غضون ذلك ، اكمل الانكليز تحشدهم شمال شبه جزيرة «شمران» ، واجتاز الاسطول النهري الذي كان مرابطا جنوبي «الكوت» البلدة وتمكنــت بعض مراكبه من الوصول الى «شمران» ، بينما ضمنت القوة الجوية البريطانية السيطرة تماما على سماء المعارك . وفي ٢٥ شباط ، اصدر «مــود» أوامــــره بملاحقة الترك ومحاولة الالتفاف حولهم من الشرق الى الشمال . ولم تلبث الوحدات التركية ، التي خسر البعض منها اكثر من نصف رجالها وعتادهــــا مع المعاناة من الجوع بسبب عدم صرف الارزاق ، ان دخلت في معارك متلاحقة مع الزاحفين .

على العدو والصديــق

وفي احدى المرات ، فتح الاسطول الانكليزي نيران مدافعه وصب اللهب على ميمنة الترك ، بينما كاد البريطانيون ان يزعزعوا وضع خصومهم عندمــــا الحقوا الهزيمة بواحدة من الفرق ، فحاولت الخيالة الاحاطة بميسرة الاتراك ، ولولا مبادرة هؤلاء الى اطلاق ما لديهم من نار على العدو والصديق سويــــة ،

لما تمكنوا من انقاذ الموقف والانسحاب على عجل فور حلول الظلام ![٧]

وعلى الرغم من ان رأي «خليل باشا» كان يدور حـــول التمركز في «سلمان باك» ، واتخاذها موضعاً دفاعياً ، الا ان اندفاع الاسطول البريطاني الى الامام وقصفه القوات المتراجعة من الخلف بقذائف المدفعية وشروع الخيالـــة والمدرعات بتطويق الجناح الايسر للمتقهقرين ، كل ذلك أرغم قـــائـد الفيلق التركي على عدم دخول أية معركة أمام نهر «ديالى» ، فانسحبت قواته الى خط دفاعي خلف النهر وتم التحشد هناك يوم ٦ آذار • ومما ساعد الترك عـــلى استرجاع انفاسهم ان «مـود» أوعز ، لاسباب ادارية ، بالكف عن المطـاردة ، فتوقفت قواته في قصبة «العزيزية» إبتداء من ٢٨ شباط حتى ٥ آذار عندما تقرر ان الوقت قد حان للاستيلاء على بغداد •[٨]

لقد دقت ساعة تاريخية !

---

(٧) ـ «ادت المعركة في السادس والعشرين (من شباط) الى تحويل التقهقـــر التركي الى هزيمة شنعاء • كان العدو الذي يتحرك الان على جبهة عريضة ، مجرد حشد من الرعاع غير المنظمين، وليس رتلا يسير بنسق من اربعة رجال في كل صف • وفي ٢٧ شباط اقتحم الخيالة العزيزية في الظلام ، ووجـدوه مسيطرا عليها ، فاشتبكوا معه راجلين • انهم لم يعرفوا ان التـــرك كانوا في القصبة الا بعد ان لمعت بنادقهم في وجوههم ، وفي الصباح أخلى العـدو مواقعه ، موليا وجهه صوب اللج» •

Edmund Candler, The Long Road to Baghdad, London, 1919, P. 77.

(٨) ـ «وفي ٦ اذار استؤنفت المطاردة ، فقام المشاة بمسيرة ثمانية عشر ميـــلا الى زوير بعد ان سبقتهم الخيالة التي زحفت حتى اللج على بعد سبعة اميـال الى الشمال منها في الطريق الى هدفنا • كانت جميع الصنوف الخمسة للقوة ـ البحرية ، والخيالة ، والمشاة ، والمدفعية وفيلق الطيران ـ تعمل سويـــة بطريقة كانت جديدة في اية حرب •»

The Long Road to Baghdad, P. 80.

ويمكن من هذه الحقائق معرفة مدى حراجة وضع الترك علما بانه لـــم تكن لديهم سوى بعض الطائرات التي يقودها الالمان استخدمت في عمليـــات الاستكشاف فقط •



خارطة الدولة العثمانية عند دخولها الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ وتبدو فيها الاقاليم المقتطعة منها قبل الحرب وتواريخ اقتطاعها .

نتيجة للخسائر الهائلة التي مني بها الفيلق ١٨ التركي ، انخفض موجوده من المقاتلين والسلاح والعتاد ، وتدهورت معنويات من تبقى من افراده ، وتدنت قدرتهم على التصدي للانكليز الى حد مفزع • ذكرنا ان الفيلق المذكور تألف من ثلاث فرق ، وقد تمركزت الفرقة رقم ٥١ الى اليمين و١٤ الى اليسار ، بينما عهد الى الفرقة ٥٢ ان تقوم بواجب الاحتياط في الخلف ولم تلبث الاخيرة ان تلقت الاوامر بالعبور الى ضفة «دجلة» اليمنى حيث شغلت ، في ٧ آذار ، الخط الممتد من نهر دجلة ـ تل أسود ـ أم الطبول ـ تل عاطف • عاود الانكليز هجومهم في «ديالى» في نفس اليوم واعقبوا ذلك في ٨ آذار بنصب جسر عند قرية «باوي» الواقعة على بعد ١٠ كيلو مترات الى الجنوب من مصب «ديالى» في «دجلة» وقد شعر الترك بذلك نتيجة لاستطلاع قام به الطيارون الالمان، الا انهم لم يستطيعوا اتخاذ أي اجراء من الاجراءات المضادة •(٩)

ولم يكتف «مود» بذلك ، بل استفاد من البواخر المرافقة للحملة في نقل المزيد من القوات الى ضفة «دجلة» اليمنى وذلك لحماية الجناح الايسر للفيلق البريطاني الثالث عند محاولته الثانية أجتياز «ديالى» بعد ان كان الاخفاق نصيب الاولى التي جرت ليلة ٨ آذار ؛ ذلك ان ضوء القمر الساطع جعل المدافعين يشعرون بها ، فصبوا نيرانا شديدة من الاسلحة الخفيفة وكبدوا المهاجمين اصابات جسيمة رغم قوة رمي المدفعية الانكليزية من الضفة اليسرى للنهر •

---

(٩) ـ «وفي باوي ، على مسافة اربعة اميال شمال سلمان باك ، قمنا بنصب جسر فوق دجلة مرة اخرى ، وقلقنا بقوة من كل الصنوف الى الضفة اليمنى • كان الاتراك يتمسكون بموقع شاوا خان الواقع على مسافة حوالي خمسة اميال جنوب غربي بغداد ، بينما استندت ميسرتهم على دجلة • لم تكن لديهم دفاعات طبيعية على هذه الضفة يمكن مقارنتها بديالى • وفي هذا الوقت تخلوا عن كل امل بانقاذ المدينة وكانوا يخوضون قتال تعويق • ادت العاصفة الترابية التي هبت بشدة يومي ٩ و١٠ الى مساعدتهم ، حاجبة اياهم عن مدافعنا اثناء تقهقرهم •»

The Long Road to Baghdad, pp. 93-94.

مقاومة عنيـــدة

و بينما استمرت القوات البريطانية في اجتياز دجلة ، أصـــدر «مود» أوامره في ٨ آذار بوجوب التوجه الى جانب الكرخ على ان يكون الهدف محطة القطار التي شيدها الالمان قبل الحرب[١٠]، والجسر الحديد على نهر «الخـر» ثم المنطقة السكنية ، على ان يقوم رتل آخر بالالتفاف من ميمنة الترك والاندفاع الى «الكاظمية» لغرض التطويق • أما في «ديالى» ، فقد امضى الانكليز طوال يوم ٨ آذار في استكمال استعداداتهم لاستئناف محاولة العبور • وفي الوقت الذي جرت فيه عمليات انزال كاذبة من اجنحة نقاط العبور الحقيقية ، فتحت المدفعية البريطانية نيرانها في الساعة الواحدة من صباح ٩ آذار واندفعت القوارب الى أمام ، بيد انها قوبلت بمقاومة عنيدة ، لذا اضطر القائد العام الى وقف محاولات العبور عند الفجر ، وان كان اكثر من ١٠٠ فرد قد اجتازوا النهر بالفعـــل فانضموا بعضهم الى بعض وشكلوا موقعا دفاعيا قاتلوا فيه بصلابة الى ان حـــل الظلام •

ومع محاولات الترك المتعددة للقضاء على رأس الجسر المذكور ، فانهـــم اخفقوا في ذلك رغم الاصابات الكثيرة التي مني بها المدافعون القلائل • ويبدو ان هذه المقاومة كانت مفتاح الموقف ؛ فما ان حل يوم ١٠ آذار ، حتى عـــاد الانكليز الى القصف المدفعي العنيف وواصلوا عمليات الاجتياز على نطـــاق واسع ، ودون مقاومة تقريبا هذه المرة ، ذلك أن الاتراك شرعوا بالانسحاب الى خط تل محمد ـ كرارة [١١]، فاستطاع المهندسون نصب الجسر عند «جماعة سلمان» على مسافة قريبة من «دجلة» وعبرت كل القوات الانكليزية •

عاصفة ترابيـــة

وهنا تحول القتال الى مجرد مناوشات بين الزاحفين والمتقهقرين خاصـــة عند موقعي «اسعيدة» و «الذيبية» ، الا انه توقف في الساعة الرابعة بعد الظهـــر

---

(١٠) محطة قطار «غربي بغداد» سابقا •
(١١) على نهر «دجلة» •



الجنرال باراتوف قائد القوات الروسية ومساعده في خانقين عــــام ١٩١٧ : لقد قسم اللب !

بالنظر لهبوب عاصفة ترابية شملت سائر ارجاء «بغداد» والمنطقة المحيطة بها وأدت الى صعوبة الرصد . وبالنسبة الى الكرخ ، فان الخيالة الانكليزية التي كانت في مقدمة القوات الزاحفة ، اتجهت نحو طريق بغداد ـ المحمودية ، بيد انها فقدت اتجاهها . وفي الساعة ٦ صباح ٩ آذار وصلت طليعتها الى منطقة «تل اسود» ، ومع توفر فرصة لمهاجمة الاتراك في خنادقهم التي عرف بها الانكليز هناك ، فان قائد الخيالة رفض الفكرة وآثر القيام بحركة التفاف واسعة لتطويق الجناح التركي الايمن .

واثناء انهماك قطعات الخيالة في الالتفاف ، قرر قائد الفرقة السابعة مهاجمة خطي الدفاع التركيين اللذين يمتد الاول منهما من «دجلة» الى «خنيزيرات» ثم «تل اسود» ويمتد ثانيهما من النهر الى تلول «أم الطبول» ، على ان يكون الهدف الاول للهجوم الوصول الى جسر الخر الحديد . استمر القتال طوال يوم ٩ آذار ، ورغم التفوق البريطاني الشامل ، فقد استطاعت الدفاعات التركية ارغام المهاجمين على التوقف مساء اليوم نفسه بعد ان تعرضوا الى اصابات لا يستهان بها نتيجة لتأثير نيران المدفعية التركية المخبأة جيدا في بساتين شبه جزيرة الكرادة الشرقية المقابلة للخطين الدفاعيين المشار اليهما . ومع ذلك ، فان القائد التركي وجد أنه لا قبل له بالصمود في وجه أي هجوم جديد ، فقرر سحب قواته من «تل اسود» الى «أم الطبول» .

وضـــاعت بغـــداد

وفي غضون ذلك ، كانت فرقة الخيالة قد عادت ادراجها الى ، دجلة ، لغرض السقي ، بعد ان فشلت في الوصول الى طريق بغداد ـ المحمودية ، على أن يتم استئناف حركة الاحاطة والتطويق في اليوم التالي . ادت العاصفة الترابية الشديدة من الجنوب الى الشمال الى اعماء المدافعين والمهاجمين على السواء وتعطيل مفعول اسلحتهم ففقدوا التماس . أما الفرقة السابعة المؤلفة من ثلاثة ألوية الى يمين فرقة الخيالة بينها وبين «دجلة» ، فقد قررت مواصلة الزحف ، وهكذا انقضى نهار ١٠ آذار في تقدم بطيء ، الا ان الانكليز اكتشفوا بان الاتراك شرعوا بالانسحاب خاصة مع اقتراب المساء وحلول الظلام .

وتبين ، فيما بعد ، ان « خليل باشا » الذي ساورته المخاوف من ان أعداءه يمتلكون قوات احتياطية كبيرة تستطيع تطويق جيشه وقطع خط الرجعة عليه وتدميره ، قد عقد مجلسا حربيا ، بعد الظهر ، مع قائد الفيلق وقادة الفرق، وتقرر نتيجة لذلك اخلاء بغداد والانسحاب منها بالاستفادة من ساعات الظلام .

وبعد وقت قصير من منتصف ليلة ١٠/١١ آذار ، بدأت النيران تضطرم في ارجاء مختلفة من المدينة ، مما يشير الى وجود عملية تدمير منتظمة للاسلحة والذخيرة ، التي يتعذر نقلها ، بهدف اجراء انسحاب عام .(١٢)

وفي الساعة الواحدة صباحا ، رفعت احدى الدوريات الامامية تقريرا مفاده أن خنادق مدافع الترك كانت خالية وانه لا يوجد اتراك في خنادق الدفاع عند الجسر الحديد . وبناء على ذلك ، استؤنف الزحف في الساعة الثانية في وجه اطلاقات متفرقة ومعدودة . ولم تمر الا ثلاث ساعات ، حتى سقطت محطة القطار ، وفي الساعة السابعة احتل الانكليز المنطقة السكنية في الكرخ والتي لم تكن لتتجاوز شمالي جسر الشهداء الحالي الا مسافة قصيرة ، وما ان حل الظهر حتى دخلت طلائع فرقة الخيالة الى «الكاظمية» ، أما الاتراك فلم يبق لهم من أثر . اندفعت بعض مفارز الفرقة السابعة عبر «دجلة» بواسطة القفف حيث رفعت العلم البريطاني على السراي أو القشلة القائمة حتى الآن في جانب الرصافة ، ثم نقل الى برج الساعة المطل على «دجلة» داخل السراي .(١٣)

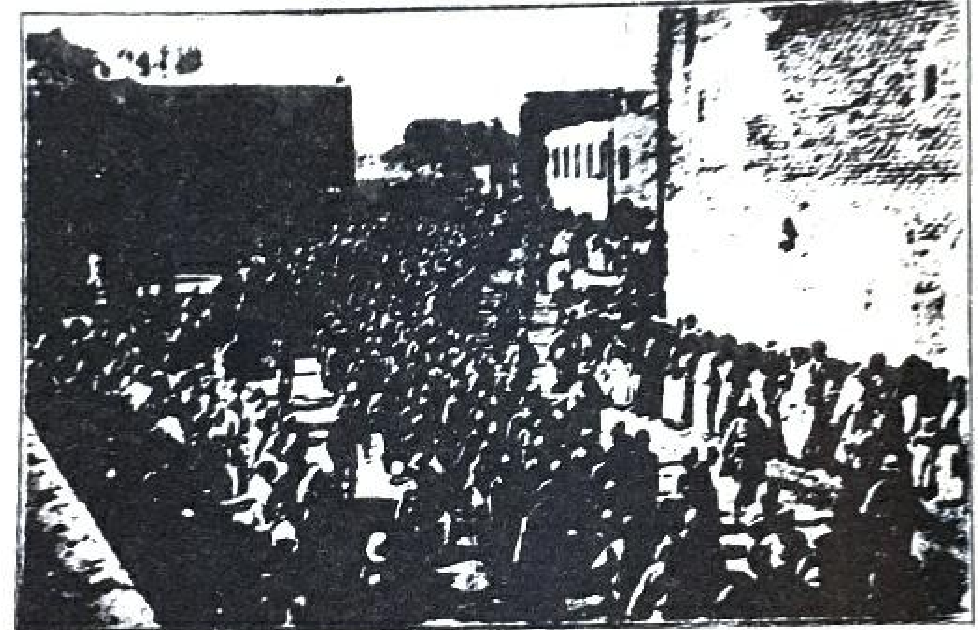
---

(١٢) ومن الابنية التي نسفت بالديناميت تلك الليلة «باب الطلسم» الذي كان جزءا من سور بغداد الشرقي ويقال ان الترك اتخذوه مخزنا للاسلحة .

(١٣) ـ «ولكن الوقائع التالية اودت بالجيش التركي ، فقد جاء الانكليز بقوة اكبر ، وضربوا (شيخ سعد) ضربة قوية فلت منه ودمروا حصانته ،وهكذا مضت بوقائع تالية ، ومتوالية بلا انقطاع وجرت حروب في انحاء (سلمان باك) للمرة الثانية ، ورافقت هذه الحروب رياح قوية مع غبار كاد المرء لايرى فيه راحته فساعد هذا الريح الشرقي الزعزع ، وانتهت بواقعة (بغداد) وحادث سقوطها على يد الانكليز ، في ١١ اذار سنة ١٩١٧م (١٧ جمادي الاولى سنة ١٣٣٥ هـ) الساعة ١٢ اذانية (ظهرا) .
ويهمنا ان نقول ان التدابير كانت ناقصة ، بل ان القيادة العامة قصرت في تفريق قسم كبير من الجيش المرابط وارساله الى ايران ، ولم تراع القوات =



سير الاسرى العثمانيين في شارع النصر ببغداد



حقائق تاريخية

تقرير صحفي عن سقوط بغداد بأيدي الانكليز • أما شارع النصر فهو شارع الرشيد الحالي ويبدو جامع مرجان الى اليمين •

نعود الى جبهة «ديالى» • ذكرنا أن المدافعين انسحبوا الى خط تل محمد ـ كرارة ، وكانت القوات الانكليزية قد انقسمت ليلة ١٠/١١ آذار الى رتلين ، شن الاول ، من اليسار ، هجوما على الخط الدفاعي التركي في الساعات الاولى من الصباح ليجد أن الاتراك قد أخلوه في غضون الليل ، بينما قام الرتل الآخر بحركة تطويق شمالا ثم الى الغرب ، فانتهى به الامر الى دخول «بغداد» من باب المعظم نحو «خليل باشا جادة سي»(١٤) وسط حيرة الاهالي ودهشتهم اذ تبدلوا من حال الى حال بين العشية وشروق الشمس !(١٥)

لقد فتحت صفحة تاريخية جديدة ، غير متوقعة ، لا تختلف كثيرا عن احدى اساطير الف ليلة وليلة !

بيـــان « وردي »

هذا على الجبهة العسكرية ، فما الذي جرى في الساحة السياسية ؟ في ١٩ آذار صدر البيان التالي عن مقر قيادة الجنرال «مود» ونشر في بريطانيـــا ، وارجاء أخرى من العالم ، فيما بعد :

= الاحتياطية وكانها بالاستيلاء على القوى المحاصرة في الكوت امنت الاخطار ومن ثم داهم الخطر فصال الانكليز صولة عظيمة ، فاكتسحوا الكوت ، ومنه الى سلمان باك فبغداد • »

العراق بين احتلالين ، ج٨ ، ص ٣٠٢

(١٤) جادة أو شارع «خليل باشا» الذي امر بشقه عام ١٩١٦ لتسهيل عمليات نقل الجيوش وسط درابين بغداد وازقتها المتداخلة • وهو نفس شـــارع الرشـيد الحالي •

(١٥) وخلافا للرأي القائل بان «مود» كان على رأس الرتل المذكور وهـو مـن الخيالة ، فان الواقع يشير الى ان القائد بعد ان تاكد من انسحاب الترك الشامل، استقل مركبا حربيا سار به وهيئة ركنه الى المقيمية البريطانية، سابقا ، في «السنك» واتخذها مقرا لقيادته واصدر اوامره بملاحقـــة الترك فورا ، وبدون توقف او هوادة ، على خطي «دجلة» شمالا و «ديالى» شرقا خوفا من ان اي تباطؤ قد يوفر الفرصة للعدو لاستعادة انفاســه وتجميع صفوفه ثم مهاجمة بغداد •

الى اهالي ولاية بغداد

باسم مليكي ، وباسم الشعوب التي يحكمها ، اخاطبكم بما يلي :

ان هدف عملياتنا العسكرية هو الحاق الهزيمة بالعدو ، واخراجه بعيدا عن هذه الاصقاع • ولغرض انجاز هذه المهمة ، فانني مخول بالسلطة المطلقة والعليا في جميع الاقاليم التي تعمل فيها القوات البريطانية • غير ان جيوشنا لم تدخل الى مدنكم أو اراضيكم بصفة فاتحين أو أعداء ، بل محررين •

ومنذ أيام هولاكو ، كانت مدنكم واراضيكم عرضة لطغيان الاجانب ؛ فتحولت قصوركم الى خرائب وغرقت حدائقكم وسط التلف والدمار ، وتأوه اسلافكم وآباؤكم في القيود والاصفاد • لقد أنتزع منكم ابناؤكم الى حرب لم تسعوا اليها ، وسلبت منكم ثرواتكم على أيدي اناس ظلمة وبددت في أماكن نائية •

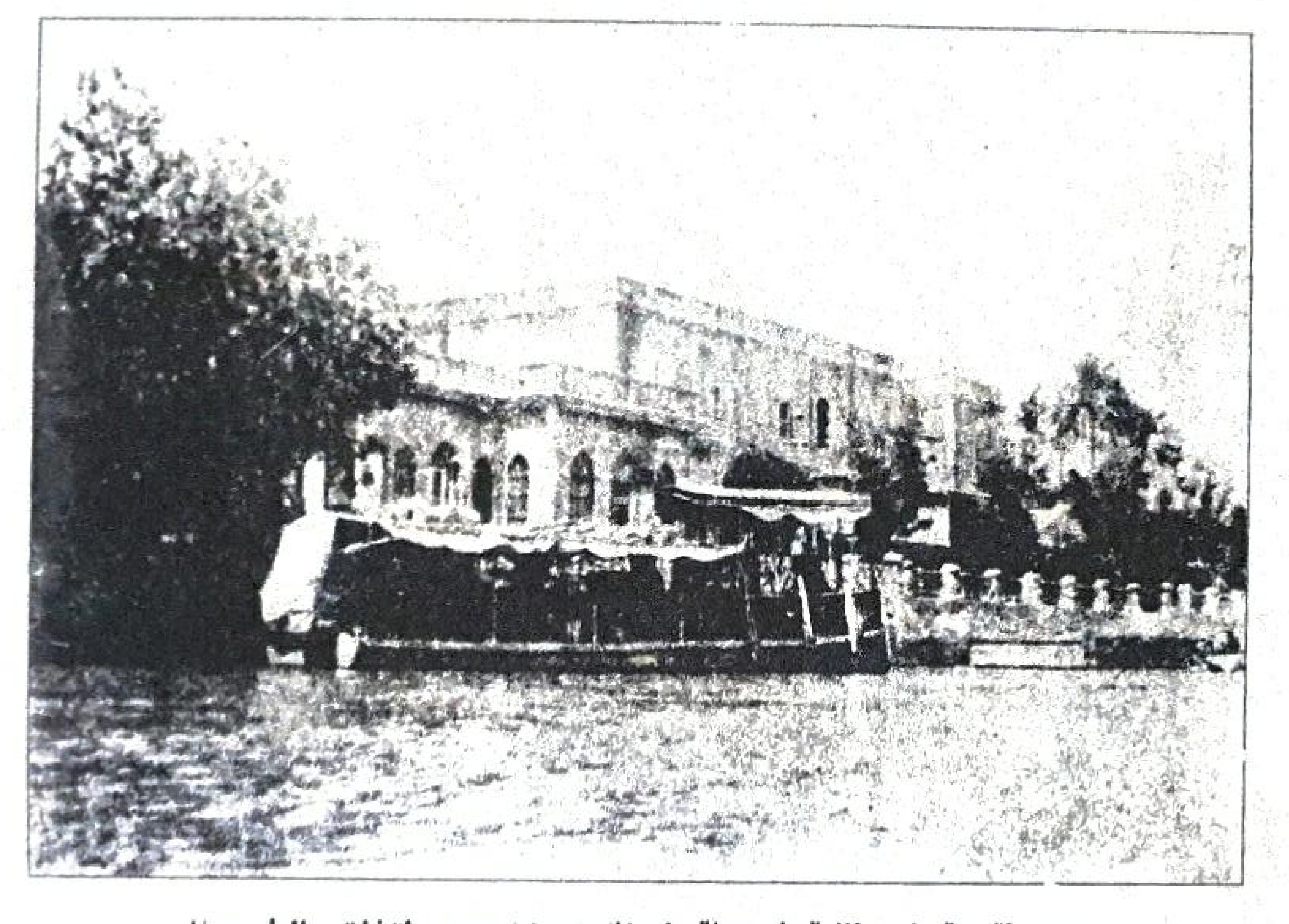
ومنذ أيام مدحت (١٦)، تحدث الترك عن الاصلاحات ، ومع ذلك الا نشهد أطلال وخرائب اليوم على تفاهة تلك الوعود ؟

انها لرغبة ، ليس مليكي وشعوبه فحسب ، بل انها رغبة الامم العظيمة التي يتحالف معها أيضا ، في ان ترفهوا حتى كما كان امركم في الماضي ، عندما كانت اراضيكم خصبة ، وعندما قدم اجدادكم للعالم الادب والعلم والفن ، وعندما كانت بغداد واحدة من اعاجيب الدنيا •

لقد كان بين شعبكم وممتلكات عاهلي رباط وثيق من المصلحة، فطوال مائتي عام، تاجر تجار بغداد وبريطانيا العظمى سوية في منفعة وصداقة متبادلتين• ومن الجهة الاخرى ، فان الالمان والترك الذين نهبوكم ، وقومكم ، قد اتخذوا من بغداد ، على مدى عشرين عاما ، مركزا للقوة يهاجمون منه سلطة بريطانيا وحلفاء البريطانيين في بلاد فارس وارض العرب • ولهذا فان الحكومة

---

(١٦) المقصود «مدحت باشا» احد ابرز الولاة العثمانيين على بغداد (من ١٨٦٨ الى ١٨٧١) وكان مصلحا في عدة مجالات •



دار المقيمية البريطانية في محلة السنك ١٩١٧ وهي المتخذة حاليا متحفا للازياء القديمة .

البريطانية لا يمكن ان تظل مكتوفة الايدي تجاه ما يحدث في بلادكم ، سواء الآن أو في المستقبل ؛ ذلك أنه من الواجب تجاه مصالح الشعب البريطاني وحلفائه فان الحكومة البريطانية لا يمكن أن تغامر وتسمح بان يحدث في بغداد ، ثانية ، ذلك الذي قام به الاتراك والالمان خلال الحرب .

بيد انكم ، يا أهل بغداد ، يامن يجب ان تكون رفاهيتكم التجارية وسلامتكم من الطغيان والغزو مسألة تثير للابد أقصى قدر من أهتمام الحكومة البريطانية ، ينبغي عليكم الا تتصوروا انه من رغبة الحكومة البريطانية ان تفرض عليكم انظمة غريبة . ان الحكومة البريطانية تأمل في تحقيق آمال فلاسفتكم وكتابكم ، وان يزدهر شعب بغداد ثانية متمتعا بثروته وممتلكاته في ظل انظمة تنسجم مع قوانينه المقدسة ومطامحه العنصرية . في الحجاز ، قام العرب بطرد الترك والالمان الذين اضطهدوهم ، واعلنوا تنصيب الشريف حسين ملكا عليهم . وسيادته يحكم باستقلال وحرية ، وهو حليف الامم التي تقاتل ضد سلطة تركيا والمانيا ، وكذلك الحال مع النبلاء الآخرين ؛ سلاطين الكويت ونجد وعسير .

لقد ذوى العديد من النبلاء العرب من أجل قضية الحرية العربية على أيدي اولئك الحكام الغرباء ، الاتراك ، الذين اضطهدوهم . وانه لمن تصميم حكومة بريطانيا العظمى ، والدول الكبرى المتحالفة معها ، الا تدع ما عاناه اولئك العرب النبلاء يذهب عبثا . وانه لمن أمل الشعب البريطاني والأمم المتحالفة معه ان ينهض العنصر العربي مرة أخرى الى العظمة والشهرة بين شعوب الارض ، وانه سيربط نفسه مع هذا الهدف بوحدة وانسجام .

يا أهالي بغداد : تذكروا انكم تعرضتم ، طوال ستة وعشرين جيلا ، الى المعاناة في ظل الطغاة الغرباء الذين سعوا دوما من أجل تحريض بيت عربي ضد آخر حتى ينتفعوا من الانقسامات . ان هذه السياسة بغيضة بالنسبة لبريطانيا العظمى وحليفاتها ؛ ذلك أنه لن يكون هناك سلام ولا رفاهية حيث توجد العداوة وسوء الحكم . وعلى هذا ، فقد أمرت بان ادعوكم ، من خلال وجهائكم واكابركم وممثليكم ، للمشاركة في أدارة شؤونكم المدنية الخاصة بالتعاون مع

الممثلين السياسيين لبريطانيا العظمى الذين يرافقون الجيش البريطاني ، وبهذا قد تتحدون مع ابناء عنصركم واقاربكم في الشمال والشرق والجنوب والغـــرب في تحقيق تطلعات عنصركم ».(١٧)

أجمعت المصادر البريطانية ، بالذات ، على ان هذا البيان لم يكن ليحتوي على أي وعد لاهالي بغداد ، ولنأخذ هذا المثال : « وما من أحد ساوره الاعتقاد ، ولو لحظة واحدة ، ان هذا البيان كان مفهوم جندي ، ناهيك عن قائد الجيش ذاته • لقد نالت دبلوماسيته (البيان) واقناعه ونوعيته الادبية البديعة استحسان الصحافة بشكل عام • كان الالهام من الوايتهول (١٨)، غير انه بغض النظر عن مصدر البيان ، فان الغموض فيما يتعلق بمستقبل بلاد ما بين النهرين ، كـان أمرا لا مفر منه ؛ ذلك أنه قد تم الاتفاق بين الحلفاء على عدم اجراء أية تسوية الى ان تطلق الرصاصة الاخيرة في الحرب • »(١٩)

وعلى أية حال ، فان الايام سترينا ما يخفيه القدر لاهالي بغداد ، الذين لا نعرف رد فعلهم تجاه بيان «مـود» وعباراته «الوردية»(٢٠) وسائر اهـــل العراق على يد «كوكس» و «ولسن» و «بيل» واضرابهم ، ونوع التعاون الذي أقامه هؤلاء المثلون السياسيون ، الذين يرافقون الجيش البريطاني ، عن طريق الوجهاء والاكابر والممثلين وسنعرف النوعية التي حددها الانكليز للفئـــة الاخيرة •

---

(١٧) The Long Road to Baghdad, pp. 114-116.

ومن الغريب ، أن البيان قد وضع من قبل السير «مارك سايكس» الـذي وقع ، بعد اقل من شهرين ، على الاتفاق المعروف باسم «اتفاقية سايكس ــ بيكو» مع الفرنسيين وادى الى تمزيق الاقطار العربية التي تخلصت مـن الترك واستعبادها •

(١٨) وزارة الخارجية البريطانية •

(١٩) The Long Road to Baghdad, p. 117.

(٢٠) حسب رأي احد المؤلفين الانكليز •



السير مارك سايكس : عاقد اتفاقية «سايكس ـ بيكو» وواضع البيـــــان «الوردي» لأهالي ولاية بغداد .

نعود الى «كوكس» الذي رافق «مود» منذ بداية حملته ، وارتقى ادراج «المقيمية» السابقة في اعقابه ذلك اليوم المشهود من آذار .

«كان سقوط بغداد حدثا حافلا بالمعاني ومليئا بالامكانيات ، سواء بالنسبة لنا أو للعدو ؛ ففي شتى ارجاء الامبراطورية ، وبين حلفائنا ، فان النجاح الرائع لحملة الجنرال مود قد أثار أقصى قدر من الحبور ، بلغ منه أن مأساة الكوت قد ذوت تقريبا من افكار الرأي العام . بينما لم تؤد خسارة بغداد ، بالنسبة للترك الى حرمانهم من قاعدة عملياتهم الحربية في بلاد ما بين النهرين فحسب ، بل وحتى الى جعلهم معرضين بصورة مكشوفة الى هجوم انكلو - روسي في ولاية الموصل .

لقد وجدنا ان المقيمة البريطانية لما قبل الحرب كانت مستعملة كمستشفى خلف فيها الترك وراء ظهورهم تركة لم تنل الترحاب ، وذلك على شكل حالات بشعة من الجروح والمرض . كان وضعها ، من الناحية الصحية ، لا يوصف ، غير أنه تم ، بالتدريج ، العثور على مستشفيات اخرى مقبولة . وبعد تنظيف واعادة ترتيب شاملين ، امكن تحويل المقيمية الى مقر للقيادة العامة ، وهي مهمة ما زالت تؤديها للقوة الجوية الملكية حتى اليوم .(٢١)

ولكن ، بينما كانت هيئة الاركان العسكرية على قيد الوجود بالفعل ، فان هيئة الموظفين الذين يفرض انيعملوا تحت رئاستي في ولاية بغداد كانت غير موجودة ويجب خلقها . خصص لي بيت على ضفة النهر جنوبي المقيمية ، وغير بعيد عنها ، وكان قبل دخولنا مقرا للقنصلية النمساوية ، وهناك شرعت في تكوين سكرتاريه . كان اول عمل لي ، بعد الوصول ، العثور على أي شخص من المستخدمين القدماء من موظفي المقيمية قبل الحرب ، وذلك يعود الى امرين:

---

(٢١) القوة الجوية الملكية البريطانية . ونلفت النظر الى ان «كوكس» كتب هذا التقرير عام ١٩٢٧ عندما كان العراق تحت الاحتلال والانتداب .

اولهما انني متشوق الى معرفة ما الذي حل بهم على يد العدو ، وثانيهما ادراكي انهم سيكونون في غاية الفائدة والنفع لي في هذه الفترة بفضل معرفتهم للجاليات والافراد المرموقين من اهالي بغداد • ومع اسفي البالغ ، وجدت عائلة ترسيسيان ، الدليل الارمني المخلص للمقيمية ، غارقة في اعماق اليأس • لقد استدعي والدهم من جانب البوليس التركي قبل وقت قصير ولم يعد منذ ذلك الحين • لم يسمع عنه أي شيء مطلقا ، كما لم استطع الحصول على أية قرينة عن المصير المحدد الذي آل اليه ، غير انه كان رجلا خلق له اعداء في غضون خدماته كدليل بريطاني ، هذا اضافة الى حقد البوليس التركي عليه • ويبدو ان هناك قليل من الشك في انه جابه موتا عنيفا خلال الفترة التي امتدت بين التقهقر التركي ووصولنا •

مع كبير الاشراف

كان عملي الثاني زيارة صاحب السماحة السيد عبد الرحمن افندي النقيب ، أو كبير اشراف بغداد وسادن مرقد عبد القادر الكيلاني، والذي اعتمد قدر كبير من الامور على موقفه تجاهنا وتأثيره على سكان بغداد • وفي ظل النظام القديم للسلطان عبد الحميد ، تمتع النقيب بمنزلة كبيرة من الجلال والشرف ، وشغل مكانة عالية من احترام الرأي العام • ومما لاشك فيه ، انه يدين بقدر لايستهان به من الامتنان للحكومة السابقة ، ولكن ما ان جاء نظام تركيا الفتاة[٢٢] ، حتى اصبح اقل اهمية ، والواقع ، فانه لم يحصل منهم الا على القليل مما يستحق الشكر • وفي ذلك الوقت ، فان مركزه كان حرجا ، ومن الطبيعي ان يكون متحفظا معنا ومع هذا فقد تمتعت بتعاونه المتسم بالصراحة والحكمة في جميع الاجراءات ذات التأثير على رفاهية ابناء بلاده ،والتي قد تخفف قدر المستطاع من المظاهر الخشنة وغير الملائمة لاي احتلال عسكري• لقد كنت التقي به في مجرى واجباتي ، فقيض لمشاعر الثقة المتبادلة التي

(٢٢) المنظام الذي جاء به حزب الاتحاد والترقي بقيادة انور وجمال وطلعت عام ١٩٠٩ بعد اسقاط السلطان عبد الحميد •

عبد الرحمن افندي نقيب اشراف بغداد : اقنعه كوكس في جلسة واحدة بقبول رئاسة الحكومة المؤقتة .



توطدت بيننا ، في هذا الوقت ، ان تنفعني وقت الحاجة فيما بعد ، وهذا ما اتذكره الان مع بالغ الامتنان •(٢٣)

وما ان انتشرت انباء احتلالنا لبغداد في الخارج ، حتي وجدت نفسي ، بحكم الضرورة ، غارقا في استقبال سيل من الزوار ، أولا من قبل وجهاء بغداد ومن ثم شيوخ العشائر من اقرب الامكنة واقصاها ، والعديد من اولئك الشيوخ لم يخضعوا ، مطلقا ، لسلطة الحكومة التركية وكانوا غرباء ، تماما ، عن بغداد • كان من اللازم بذل كل نوع من المحاولات لتسجيل ومعرفة من اين جاء اولئك الزوار ، وما هي علاقتهم احدهم مع الاخر ، ومدى اهميتهم النسبية ، وهي قضايا لم يكن تشخيصها سهلا بالمرة •

اجلبوا « بيل »

وهكذا ، وبالنسبة لهذا المجال من عملي ، بدأت أشعر بالحاجة الى مساعدة جير ترود بيل التي لاتعرف الكلل ولا الملل ، وقررت جلبها مع واحد او أثنين اخرين من دائرة البصرة لتشكيل نواة لسكرتاريتي في بغداد • كان من اللازم مقابلة جميع الزوار الشيوخ القادمين من سائر ارجاء الريف ، والاحتفاء بهم ، وتقديم هدايا صغيرة لهم وارسالهم الى مواطنهم ، مع نصحهم بلزوم المحافظة على الهدوء والسلام والانصراف الى امورهم الزراعية • ولهذا فان شطرا كبيرا من وقتي خلال النهار كان ينقضي في هذه المقابلات ، بينما تصرفت المس بيل كمصفاة يتم من خلالها ترشيح الافراد وارسالهم الي وبرفقة كل منهم مذكرة موجزة تتعلق بموقع عشيرته ، ومن اين جاء ، وما الذي قدم من اجل الحصول عليه • لقد استطعت توفير وقت لا حد له للوصول الى النتيجة المرجوة •

واني لاتذكر انه عندما اخبرت القائد العام بان بعضا من موظفي دائرتي

---

(٢٣) يشير بذلك الى اقناعه النقيب ، في لقاء واحد ، بأن يقبل رئاسة الحكومة الموقتة عام ١٩٢٠ عندما عاد «كوكس» للعراق بهدف اخماد ثورة العشرين بالطرق السياسية والوعود التخديرية •

على وشك القدوم من البصرة ، وبضمنهم المس بيل ، فانه عبر عن قدر كبير من التطير تجاه الخبر ، ذلك انه كان يخشى من ان وصولها قد يشكل سابقة غير مناسبة تؤدي الى تقديم التماسات مماثلة من جانب السيدات الاخريات • غير انني قمت بتذكيره بان خدماتها عرضت علي ، بصورة خاصة ، من جانب سلفه باعتبارها عضوا اعتياديا في هيئة سكرتاريتي ، وانني انظر اليها كذلك واعاملها بشكل لايختلف عن اي ضابط من الرجال العاملين بمعيتي ، وان قدراتها الخاصة يمكن ان تكون نافعة للغاية بالنسبة لي في اللحظة الراهنة •

وعلى ذلك ، فقد قدمت الينا في الوقت المناسب ، ولم يمر وقت طويل ، حتى اقامت علاقات شخصية سعيدة مع السير ستانلي مود • وانها لذكرى حزينة ، فيما يتعلق بي ، ان تكون هي وانا عضوين في حاشيته في الحفلة التي اقيمت ببغداد بعد ذلك بشهور قلائل ، والتي تبين انها المرة الاخيرة التي يظهر فيها امام الملأ قبل موته المأساوي، نتيجة لاصابته بالهيضة ، بعد الحفلة بأيام معدودة وهو في ذروة نجاحه •(٢٤)

عالم من الزهور

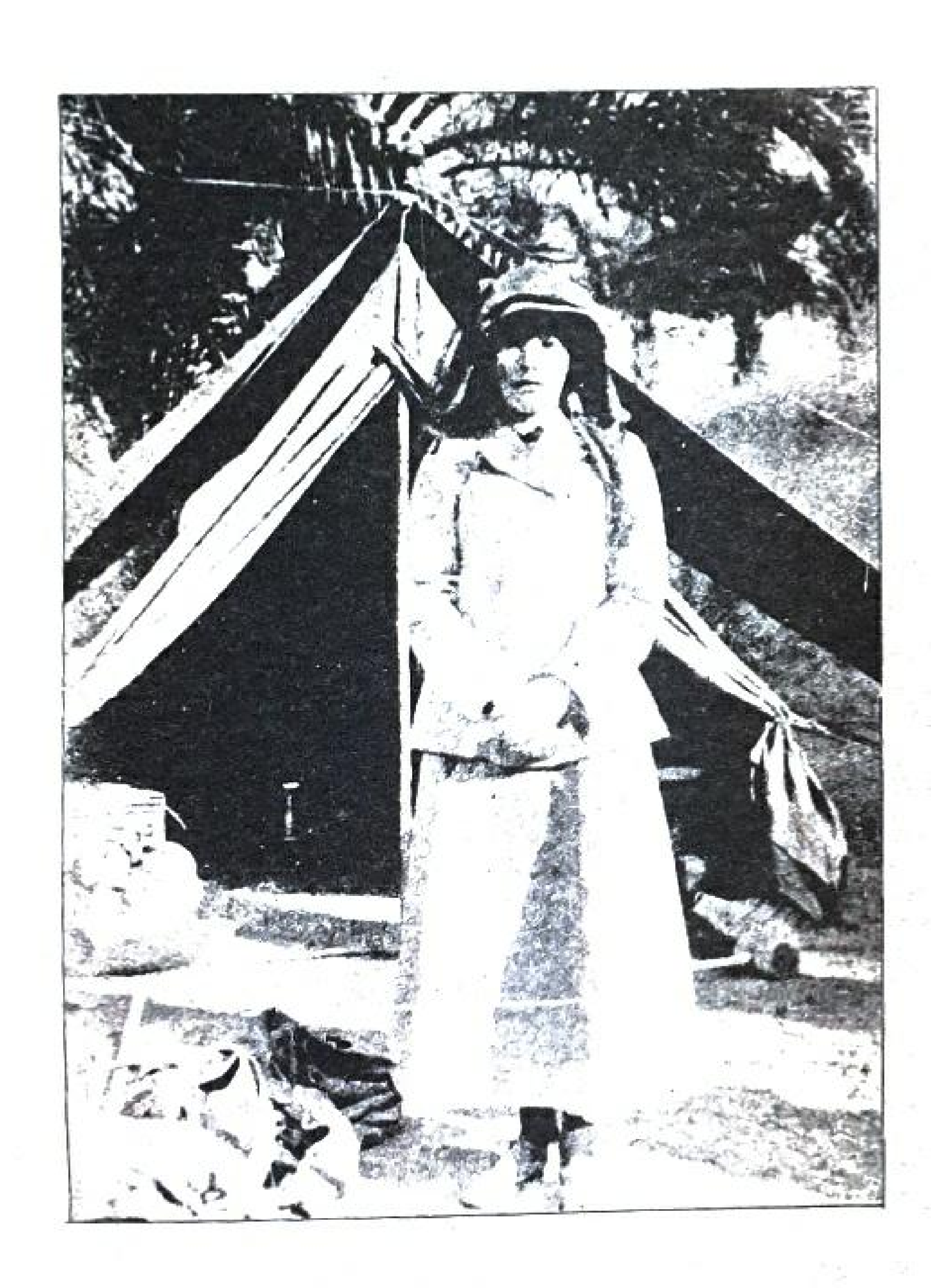
لعل الصورة تتكامل بالعودة الى «الخاتون» لصلتها الوثيقة بالاحداث :

بغداد ، ٢٠ نيسان ، ١٩١٧ :

«ياله من وصول ! رحب بي السير بيرسي الى اقصى حد ، واخبرني بأن منزلا قد خصص لي • توجهت لتفقده ، فوجدت أنه مكان لايعدوان يكون صندوقا ضئيلا خانقا في سوق صغير قذر • وعلى أية حال ، فانني اعترف أنه بعد ان اتخذت زينتي وتناولت فطوري على الارض ، شعرت ببعض الخيبة • كان واضحا انه يجب القيام بعمل ما في الحال ، وهكذا شرعت في البحث عن دار ، وأول ما عثرت به قدماي حديقة للزهور تضم ثلاثة بيوت صيفية ، قريبة من الدائرة السياسية وتعود ، علاوة على ذلك ، الى صديق قديم لي ، موسى الجلبي ،

---

(٢٤) Letters of Gertrude Bell, pp. 414-417.



«بيل» امام خيمتها في «بابل» اوائل ١٩١٤ في طريقها الى «بغداد» عائدة مـــن «حائــــــل» .

فقررت في التو واللحظة ان هذا هو المراد .(٢٥)

وفي غضون ذلك ، تدفق جميع معارفي واصحابي القدماء للترحيب بي . ومن ثم زرت النقيب ، رجل الدين الكبير والحليف منذ العديد من السنوات المتواصلة ، فاستقبلت بأذرع مفتوحة . كل شيء ممتع الى حد مفرط ، فوزارة الحربية تبرق طالبة مقالات موقعة من قبلي ، الخ الخ . انني سأمضي صيفا حافلا بالاحداث . قدم لي السير بيرسي معاملات مثيرة لانجازها وهو اكثر الرؤساء الذين عملت معهم عطفا . ان بغداد كتلة من الزهور والتهاني وهم مبتهجون حقا لتحررهم من الترك .(٢٦)

فوائد « الاصغاء »

بغداد ، ٢٧ نيسان ، ١٩١٧ :

« انني اتعرض الى المقاطعة(٢٧) بشكل فظيع من قبل الزوار ، بيد انني احب رؤيتهم وهم يقدمون اكبر قدر من النفع فيما يتعلق بالحصول على المعلومات ، لكنهم يلتهمون الساعات . تمتعت بأقصى اللقاءات روعة مع الرجال الذين سبق لي وان اجتمعت معهم في حائل والنجف ، والسماء وحدها تعرف ما الذي سيحدث الى جانب ذلك . انها تسلية هائلة ، وانه لفخر كبير ان يكون هذا العدد الواسع من المعارف . اما واجباتي ، فهي من انواع مختلفة للغاية ونحن بحاجة ماسة الى المساعدين . لقد اخذت على عاتقي كل شيء استطيع عمله لتوفير العناء عن السير بيرسي ؛ مقابلة ممثلي عدد لايحصى من الملل

---

(٢٥) كانت الدار مبنية في قطعة بستان صغيرة تجاه جامع «سليمان النقيب» في «السنك» .

(٢٦) بتاريخ ١٧ اذار ، ١٩١٧ ، اي بعد ستة ايام من سقوط بغداد ، كتبت «بيل» من البصرة تقول : «اقوم الان ، وانا متعبة ، باعمال الدائرة المملة واستقبال عدد لايحصى من الناس الذين يتدفقون مع التهاني والعرائض . أتصور ان التهاني لا تتجاوز عمق قشرة الجلد . »

(٢٧) تقصد مقاطعة اعمالها الكثيرة من جانب هؤلاء وكذلك عرقلة تدوينها للرسائل .



عودة ابو تايه احد شيوخ شمر الذين وثقت بيل علاقتها بهم اثناء رحلاتهـــا في الصحراء ولعب دورا كبيرا في ثورة الحجاز الى جانب لورنس .

والنحل ، ترك الباب مفتوحا امام شيوخ العشائر والرسل من الصحراء ، الذين اكتشف بغيتهم ، ثم ارسلهم برهة من الوقت الى السير بيرسي .

وفوق كل هذا ، يوجد عملي الحقيقي ، جمع المعلومات وتصنيفها ، وبالفعل فان الخرائط القبلية الجديدة وقوائم العشائر قد اخذت شكلها الخاص ، وستصدر الدفعة الكبيرة الاولى من الملاحظات السرية عن شخصيات بغداد الى ضباطنا السياسيين غدا . وهذه ليست بداية سيئة .وعما قريب ، فان جميع المسوحات الجديدة ستأتي ،وستكون مهمتي اعادة النظر في اسماء الاماكن وتصحيحها ، وهو امر اود القيام به ، بالدرجة الاولى لانه لطيف جدا ان اجعلها صحيحة ، وبالدرجة الثانية فانها تعلمني الكثير من الجغرافية . »

وضع قلق

وعلى اية حال ، وبغض النظر عن الحماس الذي تبديه «بيل» فان «كوكس» يبدو أقل تفاؤلا اذ يقول : والواقع ، فان هذه الشهور الستة الاولى من احتلالنا لبغداد لم تكن فترة سهلة بالنسبة للادارة المحلية . كان الجيش منهمكا كلية في توطيد مركزه خارج بغداد ، واحتاج الى ان يدخر جميع ما لديه من قوة لحملة الشتاء المقبلة[٢٨] ، ولهذا لم يكن بالمستطاع الاستغناء عن مفارز منه للاماكن الخارجية البعيدة . ولا يمكن ، ايضا ،السماح للضباط المدنيين بالذهاب الى مواقع نائية خوفا من الحوادث غير المريحة . وفي ظل هذه الظروف ، كان من الصعب على القبائل ان تصدق ،بالطبع، ان النظام القائم في بغداد كان وطيدا تماما أوان الترك لن يعودوا في نهاية الامر ، خاصة اذا اخذنا بنظر الاعتبار الدعاية التركية ـ الالمانية التي كانت ذائعة ذلك الحين .

وفي بغداد ، ذاتها ، ساد شك عظيم في ماهية نوايا الحلفاء حتى اذا كسبوا الحرب بالفعل . والواقع ، فانه الى حد هجومنا الناجح في شتاء عام ١٩١٨ ، فان الاعتقاد العام السائد هو أن الدول المركزية[٢٩] هي التي ستكون الظافرة ، أو

---

(٢٨) يقصد مواصلة العمليات العسكرية ضد الاتراك وملاحقتهم لاحتلال الارجاء الباقية بايديهم من العراق .

(٢٩) المانيا القيصرية والدول المتحالفة معها ومنها تركيا .

أن النتيجة سوف لاتزيد على تجميد الاوضاع ، اعلن اولئك الذين يتباهون بمعرفتهم الوثيقة بشؤون السياسة الدولية ان العراق سيعاد ، دون شك ، الى تركيا مقابل تحرير بلجيكا[٣٠] ، وقد وجدت هذه الاشاعات صداها بين الشيوخ بشكل عام ، مما دفع بالعديد من اوثق اصدقائنا الى التذبذب أو الى انتظار تطورات الاحداث على الاقل .

تطور جديد

وبناء على الوضع السياسي السائد ، وحقيقة انه باحتلالنا لولاية بغداد وجد النظام العسكري نفسه في مواجهة الكثير من المشاكل الصعبة ذات المظهر غير العسكري ، فان حكومة صاحب الجلالة توصلت الى الاستنتاج أن الظروف تتطلب الآن اجراء نوع من التطور على مركزي كضابط سياسي كبير مرتبط بالقائد العام . وهكذا ، ومنذ بداية تموز ١٩١٧ ، تبدل عنوان وظيفتي الى «مندوب أو مفوض مدني»[٣١] بينما ما زلت ، بالطبع ، خاضعا للسلطة العليا للقائد العام .

وابتداء من ذلك التاريخ ، نلت الحق بالاتصال المباشر مع وزير شؤون الهند الذي ستصدر باسمه تعليمات حكومة صاحب الجلالة في القضايا غير العسكرية . وعلى الاطلاق ، فان الوزارة المذكورة لم تبخل بالنصيحة الصائبة والمساندة المتصفة بالحكمة على رئيس الادارة المدنية[٣٢] خلال السنوات الثلاث الصعبة التي مرت حتى عام ١٩٢١ ، عندما تقرر تحويل توجيه شؤون العراق الى وزارة المستعمرات وذلك بفعل تطور جديد ومهم في السياسة .»[٣٣]

ترى ، ما هو هذا التطور الجديد والمهم ؟ الفصل التالي يعطينا الجواب .

---

(٣٠) كانت تحت الاحتلال الالماني .

(٣١) هذه هي ترجمة النص الانكليزي ، وكانت الوظيفة تعرف باسم «الحاكم الملكي العام» بالعربية .

(٣٢) كوكس وثم ارنولد ولسون ثم كوكس . ويبدو ان الكاتب يتناسى ان هذه السياسة هي التي ادت الى انفجار ثورة العشرين .

(٣٣) Letters of Gertrude Bell, pp. 417-419.





المس بيل في صورتين لها وهي في حوالي الخمسين من عمرها : يالـــه من وصول الى بغداد !

الفصل الخامس

الحاج فيلبي[١] يعـود للعراق

في بغداد ، استقبلتني جير ترود بيل بالعناق مصحوبا بقبلة ،وكانت مسرورة لان تسمع من شخص ، صاحب علاقة مباشرة مع كل ما يحصل في الجزيـرة العربية ، اخر الاخبار عن تطورات الامور هناك • اما ولسون ، وبكل مهابة ووقار منصبه الجديد[٢] ، فقد رحب بي بما يكفي من اللطف باعتباري النجم الجديد في القبة العربية الزرقاء • وطوال اسابيع ، انهمكت في اعداد تقريـر رسمي عن مهمتي[٣] ، وهو الذي نال ، بدوره ، الثناء الرفيع من جانـب ولسون ، وطبع للنشر والتوزيع بناء على أوامره • وفي غضون ذلك ، فقد شاركت في احتفالات عيد الهدنة[٤] في بغداد ، والتي سبقها البيان الانكلو ـ فرنسـي الشهور[٥] ، والصادر في ٨تشرين الثاني ذلك العام فيما يخص السياسة القادمة للدولتين الكبيرتين تجاه الاقاليم العربية التي تخلصت من الحكم التركي •

---

(١) فيلبي ، هـ • جون (١٨٨٥ـ١٩٦٠) مستشرق انكليزي • التحق عـام ١٩٠٧ بالسلك المدني لحكومة الهند ، ودرس اللغتين العربية والفارسية • نقل الى العراق· (١٩١٥ ـ ١٩١٧) حيث عمل برفقة «بيل» تحت رئاسـة «كوكس» • عين رئيسا للبعثة السياسية البريطانية لدى ابن سعود ثـم مستشارا للداخلية ووزيرا لها ، ولكنه استاء من سياسة حكومته (موضوع هذا الفصل) ، فانتقل الى جدة واعتنق الدين الاسلامي عام ١٩٣٠ وسمـى نفسه «عبد الله فيلبي» وظل بالجزيرة العربية يقوم بأعمـال الاستكشاف ورسم الخرائط للمنطقة • كان ذا نفوذ كبير لدى الملك عبد العزيز •

(٢) اصبح نائبا للحاكم الملكي العام في كانون الاول ، ١٩١٧ ، خلفا للسـير «بيرسي» •

(٣) المهمة التي اوفد من اجلها للجزيرة العربية ، ١٩١٧ •

(٤) عقدت الهدنة في ١١ تشرين الثاني ، ١٩١٨ ، واضعة بذلك النهايـة الرسمية للحرب العالمية الاولى •

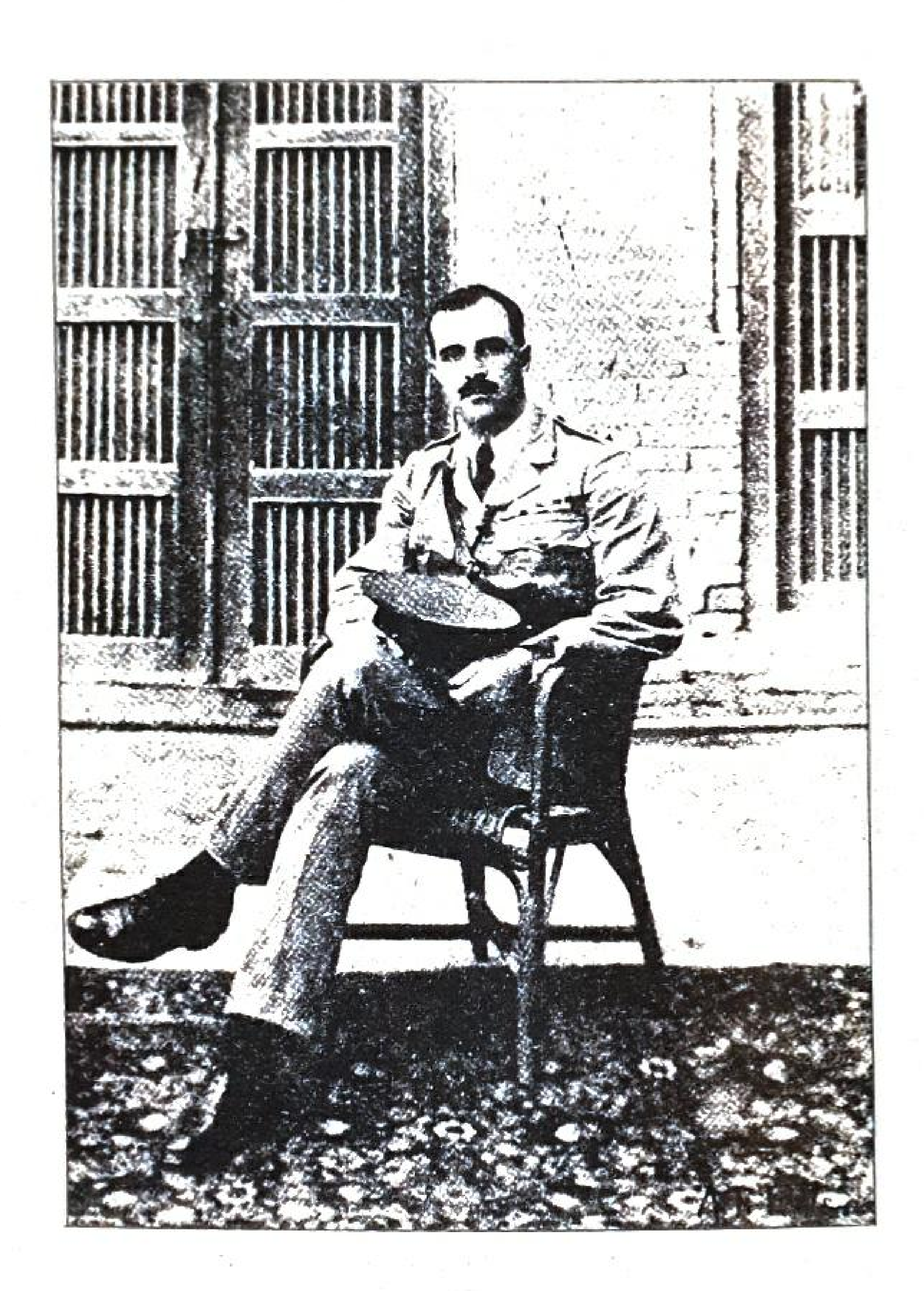
(٥) هذا هو نص البيان : «ان الحكومتين البريطانية والفرنسية تنـويان ان تؤسسا للاقوام التي ظلت خاضعة للجور التركي مدة طويلة من الزمـن ،

اتفقنا ، جير ترود وانا ، تماما على أنه بيان عن سياسة متحررة يستحق الاعجاب ، غير انه كان بالنسبة الى ولسون ، مفاجأة مذهلة أو قنبلة حقيقية ، تحطم مقدما التركيب الامبراطوري الهائل الذي كان يحلم بان يغطي به منطقة الشرق الاوسط بأسرها • ولغرض ابعاد الامال العالية بالاستقلال ، والتي اخذت الان بالارتفاع في الصدور العربية نتيجة لهذا الاعلان ، فقد اصدر بيانه السياسي الخاص به والذي اوضح فيه ، بعد ان ابدى الولاء الكلامي الكاذب لوثيقة الثامن من تشرين الثاني ، أنه نظرا الى ان شعب ما بين النهرين غير قادر ، بجلاء ، على ان يحكم نفسه ، فقد اقترح تثقيف هذا الشعب على ذلك الفن على مستوى المجالس البلدية •

ستجري الانتخابات بعد مدة ، للجان البلدية المقترحة في المدن الكبيرة ، على أن يكون لكل لجنة منها رئيس ونائب رئيس وامين سر من التبعية البريطانية ، بينما سيكون للاعضاء المنتخبين كامل الحق في المناقشة ولكن دون أي تصويت ! وفي ذات الوقت ، وبدون العودة الى الوايتهول ، انطلق نحو توسيع حدود بلاد ما بين النهرين بضم منطقة الموصل التي كانت بأيدي الترك عند عقد الهدنة • أرسل «ليجمان» لمناقشة المسألة مع الحاكم والقائد التركيين ، وصدرت التعليمات الى القائد البريطاني المحلي ، ويفترض من قبل الجنرال مارشال الذي حل محل الجنرال مود عند موت الاخير في نهاية ١٩١٧ ، بان

حكومات وادارات وطنية حرة تنتخب حسب رغائب الامة وتستمد سلطتها منها • ولتأييد هذه المقاصد ، اتفقت الحكومتان على أن تساعدا الاهلين لتأليف هذه الحكومات • وان تعترفا بها حين تأليفها ولا تتدخلان في شؤونها ولا تسنان لها الانظمة ولا القوانين ، ولا غاية لهما سوى مساعدتها والمحافظة عليها لتتأكد انها تسلك بأعمالها مسلكا حسنا فتضمن العدالة والمساواة بين جميع السكان بغض النظر عن جنسيتهم ونحلهم ، وعند الحاجة تساعدانها بالمشاريع الاقتصادية والعمرانية التي من شأنها ترقية البلاد والسير بها الى مستوى الامم الراقية، ولا تسهيان عن نشر لواء العلم وترقية التربية بصورة واسعة •»

ـ القول الحق في تاريخ سورية وفلسطين والعراق ـ



ولسون : تمزقت احلامه بتحويل العراق الى جوهرة في التاج البريطاني

يدعمه بالقوة عندما تقتضي الضرورة ذلك • تخلى الاتراك عن الموصل ، بعد الاحتجاج ، وحقق ولسون ما أراد ، وسواء اكان هناك مؤتمر للسلام أم لم يكن ، فان ولسون كان مصمما على ان يختطف كل ما يستطيع بينما تسير الامور على مايرام •

ضياع واهمال

لم تكن لي علاقة بهذه القضايا ، غير ان موقف ولسون العام ، خاصة فيما يتعلق بالبيان الانكلو – فرنسي ، لم يملأ نفسي بالرغبة في البقاء في العراق تحت قنصليته(٦) • ولقد سيطر علي الاعتقاد ، ايضا ، بأنني سأكون اكثر قدرة على ترك تأثيري في سير الامور بعودتي الى انكلترا، ولم يعترض ولسون على طلبي الاجازة التي استحقها •

وفي طريقي الى البصرة ، أعددت مذكرة طويلة عن الخطوات العملية الواجب اتخاذها بشأن البيان الانكلو – فرنسي بقدر تعلقه ببلاد ما بين النهرين • ارسلت نسخة منها الى ولسون الذي اهملها ، وسلمت اخرى الى المكتب العربي عندما كنت بانتظار السفينة في مصر ، ويبدو ان هذه قد ضاعت • رفعت ثالثة عند وصولي انكلترا ، الى وزارة شؤون الهند التي بادرت الى حفظها ثم ارسلتها الى عالم النسيان • ان نسختي ، وحدها ، هي التي بقيت على قيد الوجود بعد هذه الاحداث، وانني مازلت اظن لو ان ولسون تصرف بموجب اقتراحاتي ، فانه ربما حصل على شهرة كبيرة باعتباره احد الاداريين البريطانيين البارزين •

مستقبل غامض

على اية حال ، ليس في اليد حيلة ، وصلت انكلترا في كانون الثاني ،

---

(٦) اشارة من «فيلبي» الى غطرسة «ولسون» الذي حطمت ثورة العشرين ،فيما بعد ، حياته السياسية • ذلك ان القنصل هو موظف هام في عهد الجمهورية الرومانية وكان اعظم حكامها المدنيين والعسكريين شانا وينتخب من قبل مجلس الشيوخ وكثيرا ما كان الاباطرة يعينون انفسهم او اقاربهم او المقربين اليهم قناصلا •

١٩١٩ بعد اكثر قليلا من عشر سنوات من النفي الشرقي • لقد شغلت الزيارات لوزارتي شؤون الهند والخارجية ، حيث وجدت غاربت وهيوبرت يونغ[٧] ، على التوالي ، وقد تمركزا فيهما باعتبارهما خبيرين في شؤون الشرق الاوسط ، وكذلك الزيارات للجمعية الجغرافية الملكية الكثير من وقتي في تلك الفترة •

بدا لي ان كل شيء يسير على ما يرام ، رغم ان مستقبلي كان غامضا للغاية ايضا• فبعد العراق والجزيرة العربية ، لم تعد لي رغبة للاستقرار في سيرة وظيفية مريحة باعتباري مدنيا هنديا[٨] ، وهو المركز الذي كنت قادرا على العودة اليه دوما • وفي ذات الوقت ، كنت مصمما على عدم العودة الى العراق او الجزيرة العربية ما لم يتم تبني ما اعتبرها سياسة معقولة من جانب الحكومة البريطانية في الشرق الاوسط •

وعندما كنت في مصر ، في طريقي الى الوطن ، استلمت برقية من ولسون يطلب مني ، فيها ، ان ازور سوريا نيابة عنه ، وارفع تقريرا عن التطورات هناك والتي قد تؤثر على العراق بشكل خطير ، بيد انني اعتذرت عن ذلك متعللا بالتعب والارهاق ، ولم اقبل العرض • وفي وقت لاحق من السنة ، وجه لي الدعوة ، عن طريق وزارة الهند ، لان استلم مسؤولية تسوية الاراضي في احدى مناطق الفرات • غير انني اعتذرت ، هذه المرة ايضا ، وعبرت عن عدم الرضا عن سياسة التسوية التي وضعت للقطر بأسره على يد ولسون ومستشاريه •

سخط الشريف

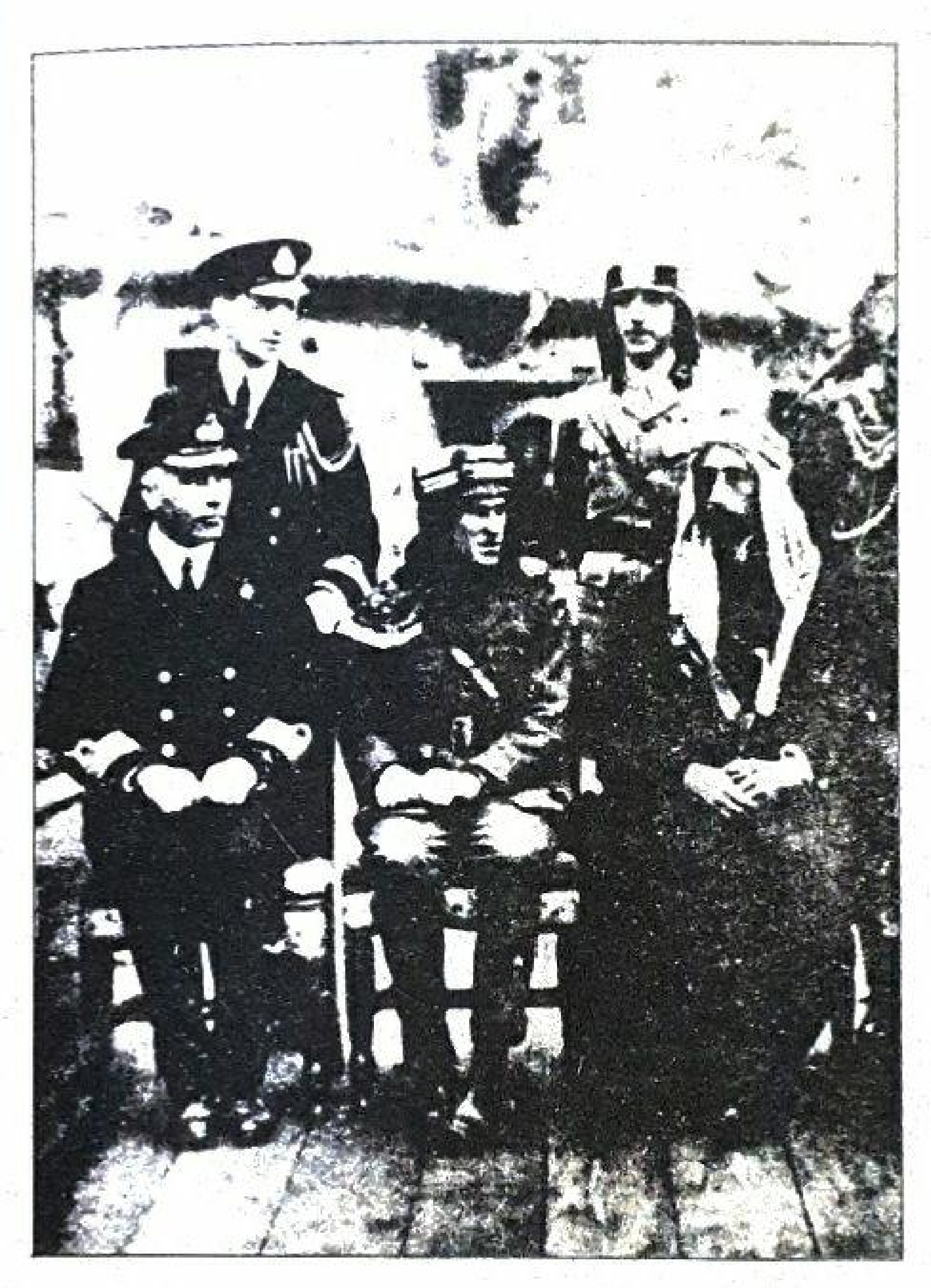
لم توجه لي الدعوة لحضور مؤتمر السلام[٩] ، حيث توفرت الفرصة لكل من لورنس وفيصل ان يطبقا طريقتهما الخاصة كما يريدان فيما يتعلق بالسياسة المتصلة بالجزيرة العربية واقطار الشرق الاوسط • وبشكل عام ، فانني

---

(٧) كانا عضوين في «المكتب العربي» وقد عملا في العراق فيما بعد •

(٨) يقصد انه كان موظفا في السلك المدني في الهند •

(٩) افتتح المؤتمر في ضاحية «فرساي» قرب «باريس» اوائل عام ١٩١٩ واستمر عدة شهور •



في الطريق الى مؤتمر الصلح بباريس مطلع ١٩١٩ : لورنس (في الوسط) وعن
يساره فيصل وخلفه نوري السعيد ثم تحسين قدري ، رئيس التشريفات
الملكية فيما بعد ، مع قبطان الباخرة ومساعده .

لم احب سير الامور على الاطلاق ، بيد انني كنت عاجزا عن التأثير على التطورات ، نظرا الى ان وزارة الهند كانت تدعم استعمار ولسون في العراق ، بينما وفرت وزارة الخارجية الاسناد لحسين وفيصل .

في غضون ذلك ، اعلن فيصل ملكا على سوريا من قبل جمهور دمشق ، وجرت تسمية شقيقه ، عبدالله ، باعتباره الملك القادم للعراق ، مما اثار السخط الشديد لدى الملك حسين و أي . تي . ولسون . اذ وجد الاول ان سلطته تعرض الى التقلص ، بشكل متزايد ، على يد اعدائه وابنائه الطموحين بالذات .

ان خططي ، شخصيا ، اصبحت الان ، ومرة اخرى ، مثل النجوم المتناثرة في سديم ، ولكن كان لدي سبب جيد لتأجيل عودتي الى الهند . فقد بدا ان الاضطراب على وشك الانفجار في بلاد ما بين النهرين ، وهو ما يثيره التطرف من جانب الزمرة الشريفية(١٠) في سوريا ، ويموله الملك فيصل من النقود التي استلمها من بريطانيا ، دافعا المبالغ الى تلك العناصر في البلاد وحدودها والتي يمكن الركون اليها لاثارة اشد الاضطراب في وجوهنا . لقد كان نظام ولسون الذي تتزايد دكتاتوريته عاملا مهما في كل ذلك .

نضوج الثورة

كان القسم الذي يتعامل مع هذه وغيرها من المشاكل في وزارة الهند برئاسة جون شوكبرغ ، النموذج البديع في رأي كرزون(١١) للسكرتير الكامل . كان قد حضر المؤتمر بشأن خرمة(١٢) ، وتوفرت لدي الفرصة لان التقي به كثيرا فيما يتعلق بمهمة فيصل(١٣) ، وعندما تخليت عن هذه المهمة ورفعت له تقريرا في نهاية كانون الاول ، قلت له في سياق محادثة عامة : «انني ، في الواقع ، لا استطيع ان افهم ما الذي يرمي اليه اصحابكم هناك ، في بلاد ما بين النهرين ، الا

---

(١٠) يعني اعوان الملك فيصل في دمشق من عراقيين وغيرهم والذين حاربوا معه في الثورة العربية ثم عملوا في حكومته وجيشه .
(١١) وزير الخارجية .
(١٢) واحة متنازع عليها ، آنذاك ، بين الشريف حسين وابن سعود .
(١٣) النجل الثاني لابن سعود ، وملك السعودية فيما بعد .

ترون أن البلاد بأسرها ناضجة للثورة ؟» رد بقوله : «حسنا ، فيلبي ، ان هذا القول لايكاد ان ينطبق على التقارير التي نحصل عليها من ولسون • وبعد ذلك ، يجب علينا ان نصدق الرجل الموجود في موقع العمل• من المحتمل أنك نود الاطلاع على البرقية الاخيرة منه ،والتي وصلت توا ••

كان ولسون قد قام بجولة في كل مقاطعة من بلاد ما بين النهرين ، بطريق الجو ، خلال الاسابيع القليلة المنصرمة ، وقد استقبل في كل مكان بحماس وترحاب[١٤] ، ولهذا اقتنع بأن السكان يريدون ، ويحتاجون ، حكما بريطانيا حازما ووطيدا • بينما كان الذين يأخذون صانعي الشر الشريفيين على محمل الجد ، مجرد كمية غير ذات بال • ومنذ نهاية الحرب ، لم يكن الوضع يبعث على الرضا والاطمئنان مثلما هو عليه اليوم ، ولكن ينبغي بذل بعض الجهد في الوطن[١٥] لضبط أو قمع الحملة الصحفية المعادية والداعية الى التخلي، مرة والى الابد ، عن البلاد •ان عدم استقرار السياسة البريطانية على نهج معين لايمكن له الا ان يترك تأثيرا غير مريح في بلاد ما بين النهرين•

هـذا هذيان !

وبعد ان قرأتها ، بامعان ، قلت : «انني ادرك تماما انكم يجب ان تأخذوا الرجل في موقع العمل على محمل الجد ، غير ان هذا النوع من الهذيان ينبغي الا يخدع احدا • ان ولسون يعمل ، وعن عمد ، ضد جوهر السياسة البريطانية المعلنة ويثير المشاعر الوطنية ، التي تلقى التشجيع النشط من سوريا • وهذا الامر لن ينتهي الا باضطرابات خطيرة ، وسيأتي ذلك بعد وقت ليس ببعيد • •

وبهذه المناسبة ، فان جير ترود بيل ، رغم انها تخدم تحت رئاسة ولسون، فقد كانت ترسل تحذيرات مماثلة الى مونتاغو[١٦] وغيره • كما ان ولسون

---

(١٤) هذه الفقرة ، في الواقع ، هي تلخيص لبرقية «ولسون» ومن الطبيعي ان يلجأ الى المبالغة وحتى قلب الحقائق •

(١٥) بريطانيا •

(١٦) وزير شؤون الهند •



فيصل ملك سوريا ١٩٢٠ : سرعان ما اطاح بـه الفرنسيون

كان قد طالب صراحة ، بعدذلك بشهر او اقل ، بضرورة استدعائها الى انكلترا متهما اياها بأثارة المشاكل وعمل السوء في موقع العمل •

كان ذلك في مايس ، ١٩٢٠ عندما بدأت الثورة بهجوم على تلعفر ، قرب الموصل ، من جانب جميل المدفعي ، احد ضباط فيصل الموثوق بهم • اما الحامية الصغيرة ، التي ضمت موظفين بريطانيين، فقد ذبحت الى اخر رجل تقريبا • انتشرت الثورة ، مثل النار الهائلة ، في اسفل نهر الفرات حيث تعرضت سرية من قوات مانجستر[١٧] الى كمين اسفر عن خسائر فادحة، ولقي ليجمان حتفه قتلا في خان النقطة ، واستدعي سيد طالب ، الذي كان يعيش في البصرة منذ عودته من منفاه ايام الحرب ،على عجل من جانب ولسون لمالجة امر القزان المغلي الذي اشعلت الثورة النار تحته في بغداد • استطاع هذا وضع حد للاضطراب في المهد ، بطريقته المألوفة، وذلك باقتحام اجتماع هائل والطلب من الحضور الانصراف الى حال سبيلهم ، اذا كانوا لايريدون ابعادهم على يديه • كانوا يعرفون سيد طالب منذ زمن بعيد ويدركون ما الذي يعنيه ، وهكذا ظلت بغداد هادئة[١٨] بنما كان باقي البلاد في حالة هياج •

سبات لطيف

وفي خاتمة المطاف ، أدت هذه الاحداث الى هز الوايتهول ، وايقاظها من سباتها اللطيف • يجب القيام بشيء ما في الحال ، فأستدعي كوكس فورا من طهران لاجراء مشاورات في لندن ،وفي طريقه خلال بغداد والبصرة كان قادرا على التأكيد لمن التقى به أن الحكومة البريطانية ستكون طيبة حقا هذه المرة، اذا التزموا جانب الصبر حتى يعود ادراجه• لقد تقرر فعلا أن ولسون يجب

---

(١٧) للمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع راجع كتابنا «اسرار عراقية» ، الفصل الاول •

(١٨) لا نشارك «فيلبي» في هذا الرأي ، ويمكن الرجوع الى مختلف الكتب التاريخية للتأكد من ذلك ، اما قيام «طالب» بهذا العمل فأمر غير ثابت ذلك ان الانكليز هم الذين هاجموا الاجتماع في جامع «الحيدر خانة» بالرصاص •

ان يذهب ، حالما يتم اعفاؤه من جانب كوكس الذي سيرجع من لندن ليشغل مركز المندوب السامي وتنفيذ السياسة الاكثر تحررا[١٩] ،والتي اخذت الان، بالتبلور في الوايتهول .

فتح هذا التطور افقا جديدا بالنسبة لي ، اذ قابلت كوكس بعد وقت قصير من وصوله ، فتقبل ، بمودة ،العرض الذي قدمته باستعدادي لمساعدة الترتيب الجديد . تقرر ان يرافقه الميجر ار . اي . جيسمان بصفة سكرتير خاص وان يذهب غاربيت ، بدوره ، معه . وفي غضون ذلك ، كان هناك الكثير مما ينبغي تقريره فيما يتعلق بالمستقبل ، فقد فرض ضغط على كوكس لان يتقبل فيصلا منذ البداية باعتباره الملك المرتقب لعراق مستقل (كان قد تخاصم مع الفرنسيين وخسر عرشه السوري في تموز) . وانني استطيع الادعاء بأن لي بعض الفضل ، على الاقل ، في عدم تشجيع كوكس على الزام نفسه بأي شيء قبل التشاور مع شعب العراق .

اعددت له مذكرة حول هذا الموضوع ، وكذلك بشأن الخطوط العامة التي يمكن ان نشرع بموجبها ، بعد ان نبدأ بحكومة تمثيلية[٢٠] موقتة ، باجراء انتخابات عامة لجمعية تأسيسية تكون مهمتها وضع دستور البلاد القادم . واذا كانت هناك رغبة ، فان الجمعية تقوم باختيار رئيس الدولة الجديد . وهنا ، ينبغي الاشارة الى انه سبق لنا وان وعدنا بأن العراق سيقرر ، بحرية ، طريقة حل هذه المشاكل ، لذا فان مشورتي كانت مستندة على رغبتي في رؤية هذا الوعد وقد نفذ بأمانة واخلاص .

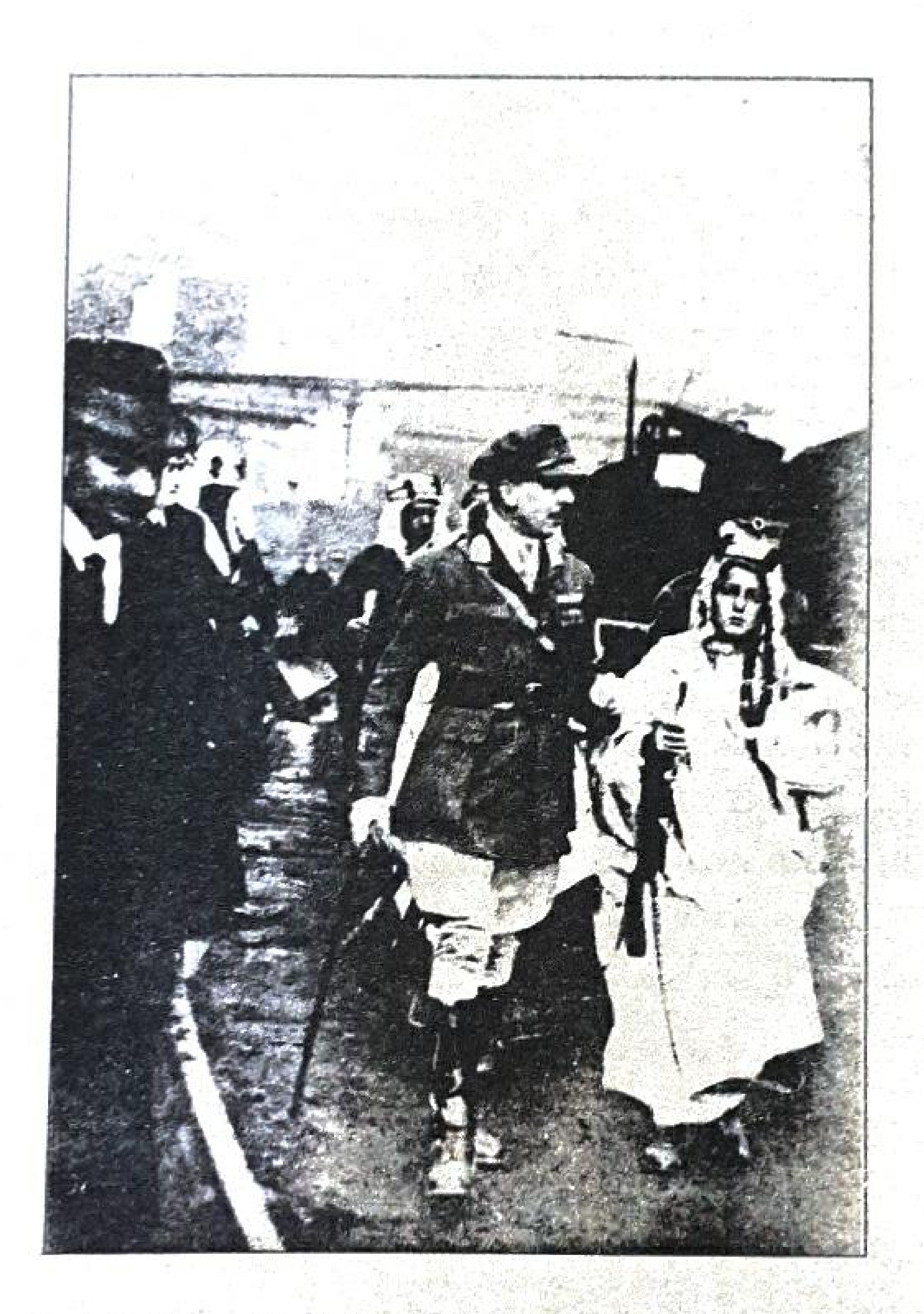
وسام ابن سعود

لم يكن لدى «كوكس» اي ميل لمصلحة «فيصل» أو أي ملك شريفي ، وكنت مقتنعا ان شعب العراق لا يرغب في اي حاكم من هذا النوع . واضافة لما

---

(١٩) يمكن التاكد من مدى «تحرر» هذه السياسة بالرجوع الى الفصل الثاني من كتابنا «اسرار عراقية» وكما سيتضح هنا فيما بعد .

(٢٠) اي حكومة تمثل جميع السكان .



فيلبي مع الامير السعودي (الملك فيما بعد) فيصل عند وصوله الى لندن عام ١٩٢٠ في مهمة خاصة .

سبق ، فان «ولسون» ، الذي اجرى استفتاء شبه رسمي حول الموضوع بمبادرته الخاصة ، كان قد رفع تقريرا مفاده ان مائة بالمائة من الاصوات هي ضد «فيصل» واي من اخوانه • وبحلول منتصف اب ، كان لدى «كوكس» كتاب التعليمات المتعلق بالسياسة التي يجب السير بموجبها ، وفي ٢٠ اب ، ارتقى «جيسمان» وانا والليدي «كوكس» ظهر السفينة «دلهي» في طريقنا الى «بومبي» ومن هناك ذهبنا الى «بونا» في زيارة قصيرة •

وفي الطريق الى الخليج بالسفينة «لورنس» ، توقفنا في «البحرين» ، ومنها سافرنا الى «عقير» بقارب بخاري حيث كان ابن سعود قد قدم اليها ، بناء على موعد مع «كوكس» ، لاجراء مباحثات عامة عن الشؤون العربية • كان ضمن الحاشية العديد من الاصدقاء ، بينهم عبدالله الدملوجي[٢١] ، وقد اجريت عدة لقاءات خاصة مع ابن سعود ،اضافة الى المؤتمرات الرسمية التي حضرها أج • ار • بي • دكسون ، الذي نفي توا من العراق على يد ولسون، ويشغل الان مركز الوكيل السياسي في البحرين •

كانت المحادثات ودية للغاية ، تسودها روح الصداقة ، كما كان ابن سعود ، الذي وشح كوكس صدره بوسام القائد الكبير لامبراطورية الهند ، في حالة ممتازة • وعلى اية حال ، فقد حذرت ابن سعود ، وبشكل شخصي ، بأنه اذا اراد ان يكون عاملا مهما في الحسابات البريطانية ، فعليه ان يستأصل شأفة ابن الرشيد من على مسرح وسط الجزيرة العربية • اوضحت له ان الاخير مازال يمتلك اصدقاء من ذوي النفوذ القوي في البلاط[٢٢] ، وهم على استعداد للقيام، بسرور ،بأعادته الى مركز العنصر في توازن القوى في المجالات السياسية العربية حتى يلعب دورا عند الحاجة ضده وضد الشريف •

---

(٢١) الدكتور ، من اهالي الموصل ، عمل طبيبا لابن سعود ، ثم عاد للعراق وشغل عدة مناصب منها وزير الخارجية ورئيس الديوان الملكي •

(٢٢) لم يوضح «فيلبي» ماهية هذا البلاط ، ولعله يقصد ابواب المنفذين الاخرين للسياسة البريطانية في المنطقة العربية •

كان ابن سعود يعلم حقا ، كما اعلم أنا ، أن السيد حمزة غوث قد وصل فعلا الى بغداد باعتباره مبعوثا لابن الرشيد ، وانه كان ، بدون شك ، يحاول تدبير اموره مع جير ترود بيل . ومهما يكن من امر ، فان ابن سعود طمأنني بأنه على ادراك جيد لجميع شراك الوضع الحالي وانني سأسمع في الوقت المناسب ، ان شاء الله ، انباء طيبة عن انجاز المشروع الذي بدأناه سوية .(٢٣)

وفي البصرة ، كان حشد هائل من المسؤولين والوجهاء ، وعلى رأسهم أي. بي. ولسون ، بانتظار وصول الباخرة «لورنس» . وفي اليوم التالي كانت هناك حفلة كبيرة في الهواء الطلق لتمكين اي كان ، من ذوي القيمة والاعتبار ، من تقديم احتراماته لاول مندوب سام للعراق .

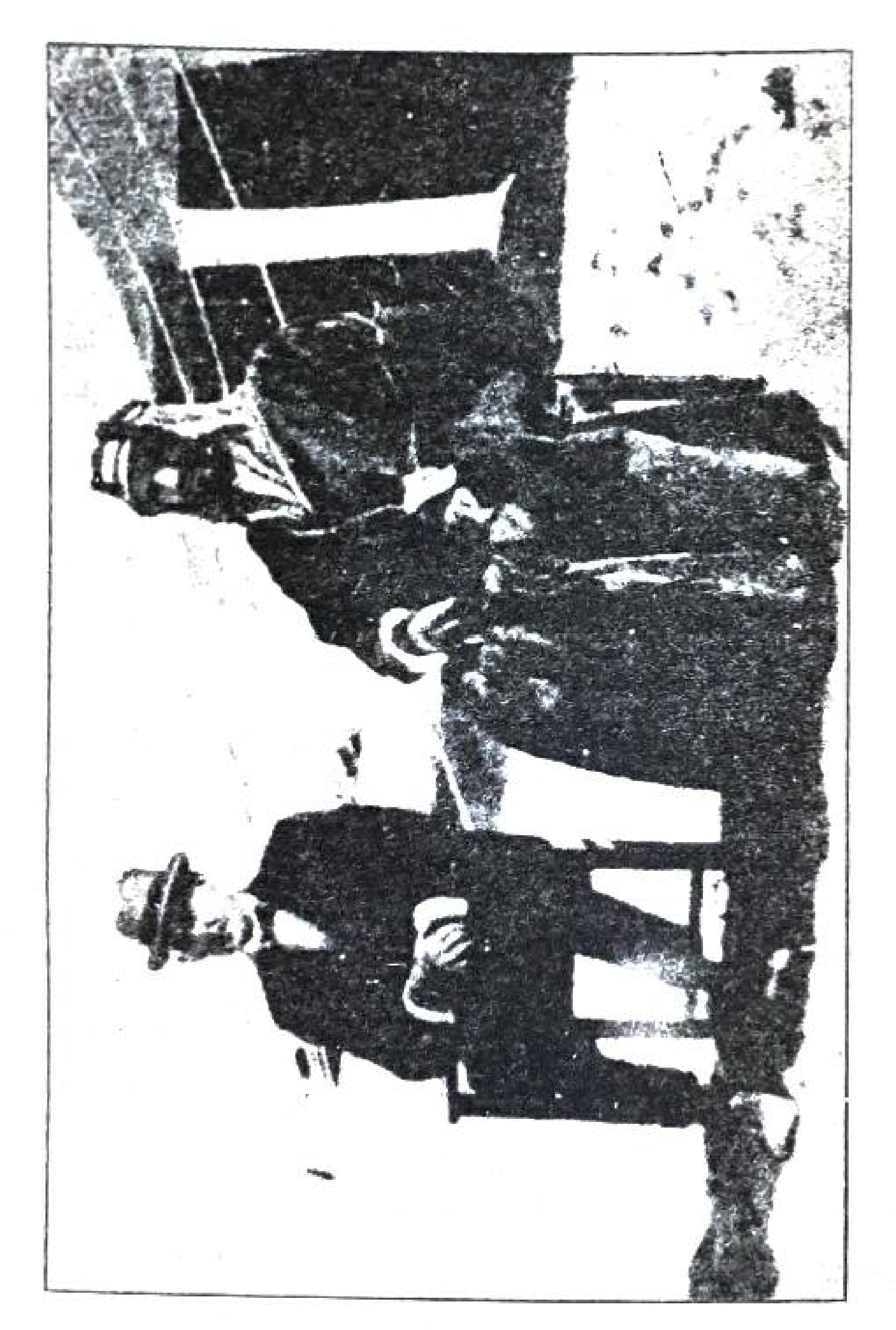
كان بارزا في التجمع شخصان اثنان : شيخ المحمرة خزعل بن مرداو ، الذي اعطاه كوكس ايام الحرب القديمة الطيبة ، وعدا بان تعترف بريطانيا بوضعه المستقل كحاكم لعربستان ، والذي اصبح الآن مرشحا محتملا لملوكية العراق . وسيد طالب النقيب ، الذي كان كوكس بالذات قد أرسله الى المنفى من ارض وطنه في بداية الحرب(٢٤) ، والذي يطمح ، بدوره، بوضوح الى عرش العراق .

ذلك المساء ، اقام سيد طالب مأدبة عشاء باذخة في قصره المطل على النهر ، تكريما لكوكس ، حضرها عدد كبير من الوجهاء وكبار المسؤولين البريطانيين ، وفيها ارتكبت هفوة غير مرضية دون قصد او تعمد . كنا نبحث شؤون الكويت، عندما بادرت الى انتقاد العائلة الحاكمة هناك على أساس أن أثنين من

---

(٢٣) وبالفعل ، لم تمر سوى شهور قلائل حتى استولى ابن سعود على «حائل».

(٢٤) يؤكد «سليمان فيضي» في مذكراته صحة هذه الواقعة التي تابع تفاصيلها شخصيا ، ويعزو ذلك الى رفض النقيب التعاون مع الانكليز آنذاك .



كوكس وابن سعود في «عقير» او «عجير» اثناء قدوم الاول الى العـــراق
لاشغال منصب المندوب السامي ١٩٢٠ .

حكامها قد جاءا ، في الاونة الاخيرة ، الى العرش بعد مقتل شقيقيهما[٢٥] • ومن ثم قارنت حالة هذه الاوضاع مع الصراع الاخوي الذي اصبح مظهرا يبعث على القنوط لتاريخ سلالة ابن الرشيد • ولم أعرف ، في حينه، أن الشيخ خزعل أيضا كان قد تخلص من شقيق كبير له ، بنفس الطريقة ، حتى يغتصب عرشه !

العراق جوهرة

في صباح اليوم التالي ، اصطف حرس شرف على رصيف الميناء وادى التحية ، للمرة الاخيرة ، لولسون وهو يرتقي سلم «لورنس» في طريقه الى الهند• كنت قد اجريت حديثا طويلا معه ، فوجدته يشعر بالمرارة البالغة ازاء الامور بشكل عام ، ونحو النظام المقترح بشكل خاص ؛ لانه يعني ذوبان احلامه العظيمة في ان يصبح العراق الجوهرة المتألقة في التاج البريطاني •

وعندما اقترب الحديث من نهايته ، أبديت اسفي لذهابه ، وقلت له أن صفاته الكبيرة ، التي لايشك بها احد ، قد هدرت على وهم بال عتيق ،وان الكيان الذي حاول تشييده قد انهار خرابا بهدير يصم اذنيه • كان عمره ، ذلك الوقت ، ٣٦ سنة فقط ، وقد قدر له ان يشغل عدة مناصب هامة في شركة النفط الانكلو ـ فارسية[٢٦] ، في الوطن وخارجه ، قبل ان يصبح عضوا مثابرا ، وان لم يكن فعالا جدا ، في البرلمان عن حزب المحافظين • غير أنه لم يحقق ،مطلقا الأمل الذي علق عليه في الثلاثينات من عمره •

تدريب النقيب

ارتقى آل كوكس ، وبرفقتهما جيسمان وانا وكذلك سيد طالب ، سفينة صغيرة الى الكوت حيث كان من المقرر ان نكمل بقية الرحلة بقطار خاص على سكة الحديد الجديدة • غرقنا في خضم الاوراق والمناقشات طوال الطريق ، ولم

---

(٢٥) تعبير غريب من جانب «فيلبي» فالكويت مشيخة والعرش موجود في الممالك •

(٢٦) هي التي قام الدكتور «محمد مصدق» بتاميمها عام ١٩٥١ كما هو معروف•

يكن هناك شيء من الامارة في الرحلة باستثناء بعض الاحاديث الخاصة مع سيد طالب[٢٧] ،والتي أسر لي في غضونها ببعض مطامحه البعيدة المدى •ومن الطبيعي أنه تطلع ،وبكل صراحة الى عرش العراق، ولكنه أراد، فوق كل شيء أن يكون أميرا؟ أميرا على مملكة بريطانية[٢٨]• وهو لايستطيع ادراك السبب الذي يحول دون الملك جورج الخامس واغداق لقب الامارة عليه ، بينما يستطيع الملك حسين جعل آل لطف الله[٢٩] اللبنانيين أمراء ! انني لم أبح بما قال لي لاحد ، وفي القمة كوكس بالطبع ، غير انني قمت ، وبحذر بالغ ، سواء ذلك الوقت أو بعده بعدم تشجيع مطمحيه الرئيسين •

لقد كانت لدي ، في الواقع ، افكار أوسع بشأن مستقبله • فمن الواضح للغاية أنه رجل العراق البارز ، في الذكاء المتوقد وقوة الشخصية ، بيد انه كان مستهترا الى اقصى حد ، ولهذا السبب كان الجميع يرتعدون منه رعبا ، بينما يضمر معظمهم الكراهية له • ولو كان بالمستطاع استثمار قابلياته الجيدة والاستفادة منها كلية ، فأنني رأيته في دور موجه مصائر عراق مستقل لعدة سنوات قادمة مهما كانت الصفة الاكثر ملاءمة ؟ رئيس وزراء ، مثلا ، أو رئيس للجمهورية • ومنذ هذه اللحظة شرعت بتدريبه لواحد من هذين الدورين ، ويجب علي ان اعترف بأنه كان تلميذا شديد الذكاء بشرط ان ترعاه أيد صديقة • ومن الذي يعرف اننا كدنا أن ننجح ، لولا تدخل ظروف معينة، سيأتي تفصيلها مع سياق الحديث •

المقدم يتبختر

في محطة بغداد الجنوبية[٣٠] عزفت الفرقة لحن «حفظ الله الملك» مع

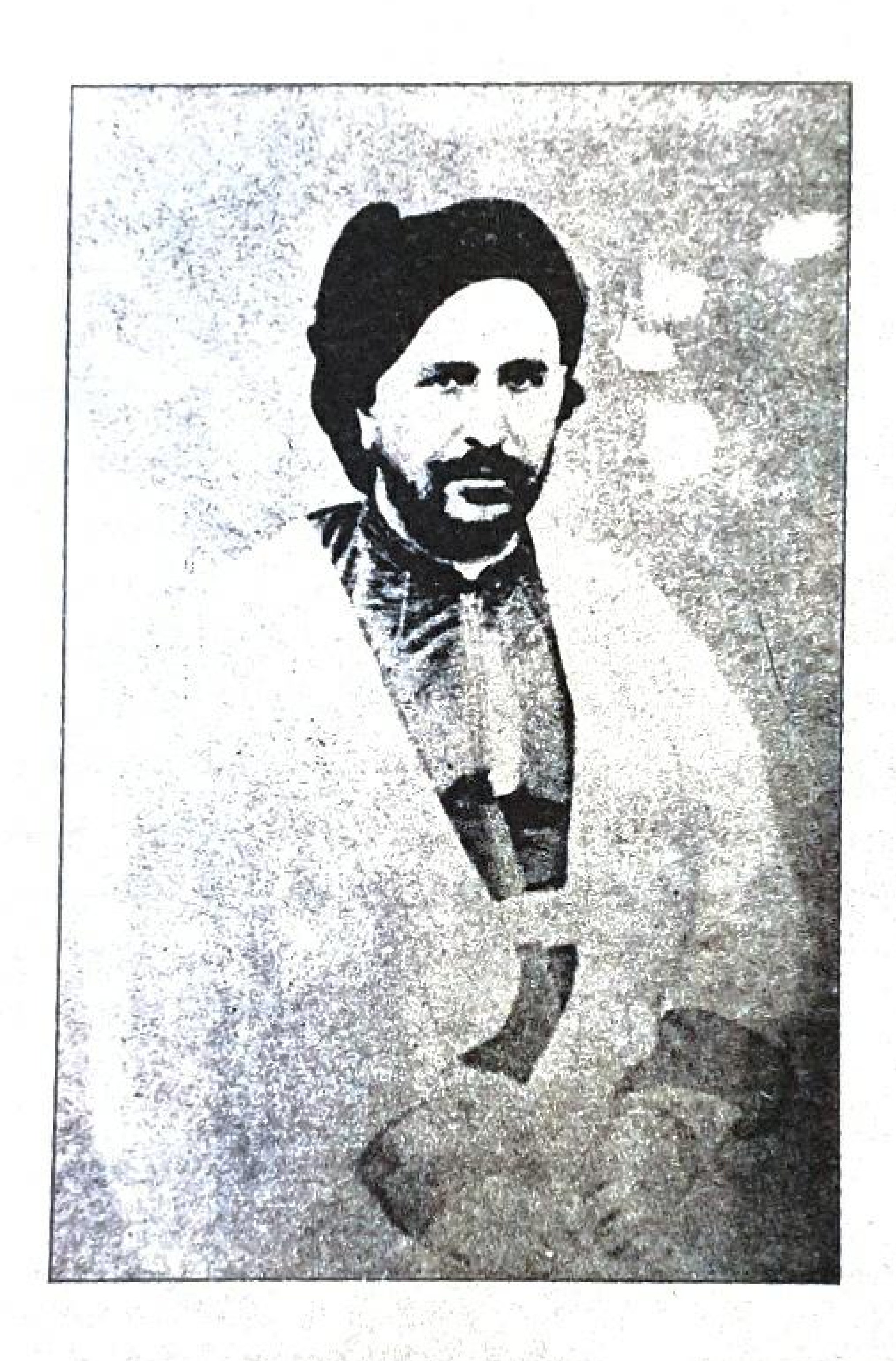
---

(٢٧) يقول «فيلبي» انه سبق له اللقاء مع «طالب» في الاسكندرية عند توجهه بالاجازة التي اشرنا اليها في بريطانيا عام ١٩١٩ •

(٢٨) يقصد منطقة «البصرة» وما يجاورها عموما •

(٢٩) عائلة مسيحية ثرية مشهورة ابرز افرادها «ميشيل لطف الله •»

(٣٠) كانت هذه داخل معسكر الهنيدي (الرشيد حاليا) وهي نهاية خط الكوت – بغداد الذي اقيم اثناء الحرب لاغراض عسكرية ثم ازيل •



خزعل بن رجب امير المحمرة : قتل شقيقه الاكبر واغتصب عرشه !

اقتراب القطار من الوقوف ، بينما كان السير بيرسي ، ببدلة رسمية بيضاء ومن فوق منصة صالونه الخاص ، يرسل التحايا في الهواء • ثم جاءت مراسيم الترحيب : الجنرال مارشال ، السير أدغار بورنهام كارتر والعديد من الاخرين• ولكن ما من احد منهم بز جير ترود بيل ، ببدلة الفراك(٣١) الباريسية الجديدة، وهي توزع اعمق انحناءات الاحترام والترحيب • ترأس نقيب بغداد ، السيد عبد الرحمن القادري(٣٢) ، الذي تجاوز السبعين فعلا ، والمتين البنيان الواهن الجسم ، ترأس الفريق المحلي من الوجهاء ، بينما اخذ سيد طالب بالتبختر بينهم ، وقد انتفخت اوداجه باعتباره المقدم بين الاكفاء ، لتقبل ما يستحقه من التكريم •كان الامر كله مؤثرا للغاية ، ومن الواضح ان النظام الجديد قد انطلق نحو بداية جيدة ، رغم وجود العديد من الشكاوي ، فيما بعد ،من اناس ذوي اهمية جراء اخفاق الجهات المسؤولة في ترتيب تقديمهم بشكل مناسب للمندوب السامي • لا ، بل ان بعضهم لم يتمكن حتى من دخول المحطة بسبب من الازدحام في الخارج •

هكذا احتفلت بغداد بفجر جديد من السلام والحرية والرفاهية(٣٣) ، بينما كانت جمرات الثورة تضطرم ، دون لهب ، في الاقاليم في الخارج • لقد حطمت الثورة الى درجة ملموسة ، رغم ان عمليات التمشيط استمرت عدة شهور مضنية فيما بعد • قوبل ندائي من اجل هدنة وعفو شامل بالتجاهل • ان السلطات العسكرية و «الرجال الشبان» التابعين لولسون والذين يترأسهم ايفلين هاول ، اخر الزعماء الرجعين ، ان هؤلاء كانوا قد تحملوا ، بالطبع ، حرارة اليوم واعبائه(٣٤) ، وجربوا حالات اذلال(٣٥) لايمكن نسيانها ؟ فطالبوا بثمنها من الدم ، فشعر كوكس ان عليه الاستجابة لذلك بفعل ضغطهم •(٣٦)

---

(٣١) بدلة رسمية سوداء •
(٣٢) نسبة الى الشيخ «عبد القادر الكيلاني» •
(٣٣) هذا مجرد تعبير دون معنى ، اما ما حدث بعد ذلك ، فكان خلافا له كلية•
(٣٤) ثورة العشرين •
(٣٥) اعتراف صريح بما فعله العراقيون بالانكليز المتغطرسين •
(٣٦) اي اطلاق يدهم للانتقام من الاهالي المسالمين •

وبدون أي تأخير ، شرعنا في تنفيذ مهمة اختيار وزراء للحكومة الموقتة التي ستستلم ادارة البلاد تحت توجيه كوكس وارشاده • كان بونهام كارتر ، باعتباره المندوب القضائي ، قد حقق بالفعل تقدما لايستهان به في وضع مسودة قانون للانتخاب مستند على النظام العثماني في الاقتراع الاول والثاني(٣٧) • وبحلول نهاية العام ، كان هذا جاهزا لتقديمه الى مجلس الوزراء • وفي غضون ذلك ، كانت مهمة اختيار الاعضاء المناسبين للمجلس ، وهي ليست سهلة بأي حال من الاحوال ، الشغل الشاغل لكوكس •

ويوما بعد يوم ، وطوال النهار ، كان منهمكا في استجواب المرشحين المحتملين وطلب المشورة من اناس من شتى مجالات الحياة ؛ رسميين وغير رسميين • بينما على جير ترود بيل وانا أن ننجز الكثير من العمل الشاق(٣٨) في زيارة المرشحين وسواهم ، بما فيهم عبد القادر باشا الخضيري ، رجل بغداد العجوز ، الذي لم تكن لديه مطامح شخصية هو بالذات وان كان يعرف نبض البلد وكأنه طبيب حاذق • اصبحت اقرب صديق له في المدينة ، وكان رجلا غير اعتيادي بحق •

ان الباشا هو الوحيد بين مواطني بغداد الذي وجد في نفسه الجرأة والجسارة لان يجابه غضب الاتراك وانتقامهم بنزوله الى رصيف النهر لتوديع المحتجزين من الذكور الانكليز عند ترحيلهم الى «افيون قره حصار»(٣٩) في بداية الحرب• ومن ثم استمر في رعاية وتطمين النسوة اللواتي بقين في بغداد، وذات يوم ، وبعد ان استلم رسالة استنجاد ، ارسل رجاله لانقاذ امرأة بريطانية من مضايقات ضابط الماني •

(٣٧) اي الانتخاب على مرحلتين ، وهو الذي طبق للمجلس التاسيسي ثم مجلس النواب طوال العهد الملكي مما سهل تزوير العملية • اما اعضاء مجلس الاعيان فكان اختيارهم من صلاحية الملك او من ينوب عنه •

(٣٨) donkey - work

(٣٩) مدينة تركية في الاناضول •



الخاتون قبل ان تستقل طائرتها الخاصة في اجواء بغداد

كان يمضي حياة غريبة ؛ اذ يقطن في قصر مثل الصرح ، وهو صرح فعلا ، على ضفة دجلة . وفي كل صباح ، شتاء وصيفا ، ينزل من السلم ليستحم في النهر قبل الانطلاق الى مكتبه في السوق ، حيث يعمل طوال النهار ، بدون طعام أو مرطبات باستثناء قطعة ساندويج وفنجان من القهوة التركية . وعندما يأتي الاصيل ، يعود الى قصره ليقضم الفستق مع اقداحه من «العرق» فوق شرفته المطلة على النهر ، وحيدا او مع اصدقاء . ونادرا ما كان القلق يساوره حول العشاء الفاخر الذي ينتظره دوما الا عندما يكون في ضيافته اصدقاء . وسواء كان هناك اصدقاء أو لم يكونوا ، ففي كل ليلة يحمله خدمه الى فراشه ثملا مثل الميت . لقد كان انبل وانظف روح في بغداد .

« مرتع العفة »

كانت جير ترود بيل قد استقرت منذ امد بعيد ، مع خادم لها منذ أيامها الاولى في سوريا ، في فيلا صغيرة ، لكنها بهيجة ، وسط حديقة متكاملة للزهور صارت تعرف بين الاقران باسم «مرتع العفة» أو «مربع الطهر والفضيلة» . وسرعان ما تحولت هذه الفيلا الى مركز معترف به لشبكة هائلة من الدسائس السياسية تشمل البلاد بأسرها . وكم كانت بديعة تلك الساعات التي أمضيتها معها ومع ضيوفها العرب ؛ وانا اتلمس نبض الرأي العام واستشف حركات واتجاهات واحد من اعظم المجتمعات من حيث الوعي السياسي في العالم . كانت جير ترود وانا ، في واقع الحال ، بمثابة مجسين لكوكس ، نسبر غور الهواء الذي لايجس بحثا عن دلائل الزمن . ولقد عمل ثلاثتنا في تنسيق وانسجام تامين باعتبارنا فريقا موجها نحو مهمة واحدة ؛ ان نقيم في بغداد حكومة موقتة تقابل بالاستحسان والقبول الشاملين .

ولم يكن هذا سهلا كما يبدو من حيث الظاهر . كان هناك رجلان ، فقط ، يصلحان بوضوح وبشكل طبيعي للمنصبين اللذين شغلاهما في نهاية الامر ، أحدهما «ساسون افندي» وهو رجل اعمال يهودي بارز من بغداد وقد حدد

بجلاء لمركز وزير المالية • اما الاخر فهو «جعفر باشا»[٤٠] الذي حـــارب بسالة على الجبهتين خلال الحرب ، ونال وسام الصليب الحديدي[٤١] ومن ثم حصل على صليب الشجاعة العسكرية[٤٢] • كان واحدا من جنرالات فيصـــل البارزين ، وباعتباره من اهالي بغداد ، فقد عاد الى الوطن ولم يكن هناك مـــن يستطيع تحدي تطلعه الى مركز وزير الدفاع •

مـــأزق حـــرج

وهناك واحد اخر من جنرالات فيصل ، ومن اهالي بغداد ايضا ، ولكنـــه لم يعد ادراجه بعد ومن المتوقع ان يصل بعد وقت قصير • انه نوري باشا السعيد الذي رشح مقدما لان يصبح رئيسا لاركان الجيش العراقي ؛ أي القائد العـــام في واقع الحال • لدينا رجل اخر جيد للغاية وموضع نظر ؛ الشيخ مصـــطفى الآلوسي المتعلم ، لحقيبة العدل • بينما كان هناك كثير من المتوفرين لحقائـــب مثل المعارف، والصحة العامة ، والاشغال العامة وما شابه ذلك والذين نستطيـــع ان نختار من نشاء من بينهم ، دون خلق مظالم سياسية ، نظرا الى اننا كنا نريد ان نضيف للمجلس عددا من الوزراء بلا وزارة حتى نربط مع الادارة بعضا من الشخصيات الهامة التي ما كنا لنستطيع كسبها دون ذلك •

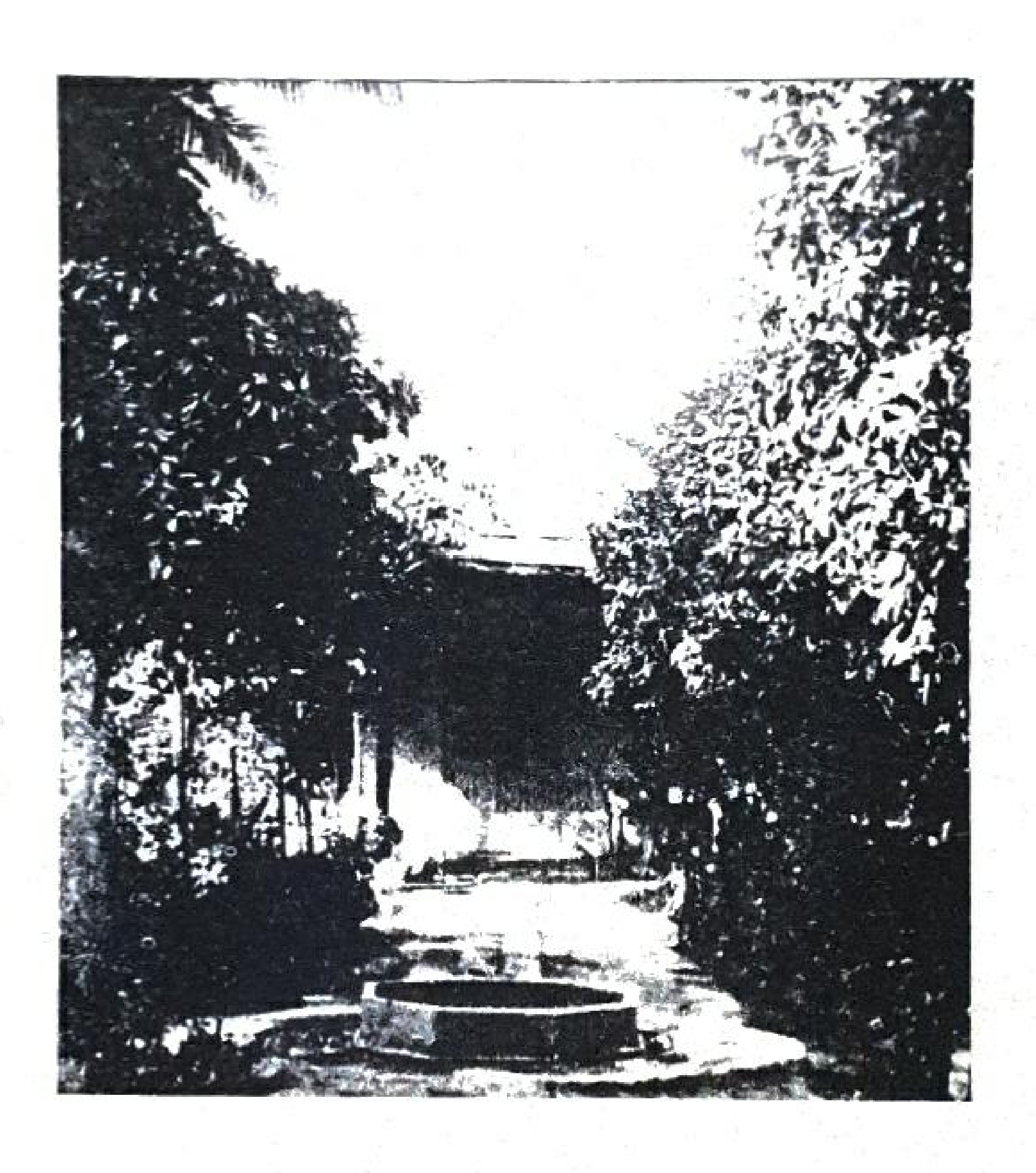
اما المأزق الحرج في جهدنا لتشكيل مجلس الوزراء فقد تركز حـــول رئاسة المجلس ووزارة الداخلية • ومن حيث الجدارة ، فان سيد طالب كـــان الرجل الواضح لشغل المركزين ، نظرا الى ان الداخلية حقيبة حيويـــة وبالمستطاع ربطها بشكل مناسب للغاية مع الرئاسة • ولو كنـــا قد اتفقنا هذا السبيل ، فان السيد طالب كان سيرشح ، دون اي غموض ومقدمـا ، باعتباره الرئيس القادم للدولة بغض النظر عما سيكون عليه لقب هذا المركز ؛

---

(٤٠) تولى ، باعتباره ضابطا عثمانيا ، قيادة السنوسيين في ليبيا عـام ١٩١٦ ضد الانكليز في مصر ثم وقع في اسرهم • وبعد محاولة فاشلة للفرار وافق على الانضمام لقوات الشريف حسين (راجع ـ عمر المختار ـ للمؤلف)

(٤١) من الالمـــان •

(٤٢) من الانكليز •



«مرتع العفة» او «مربع الطهر والفضيلة» : بيت المس بيل في محلة السنك ببغداد ١٩١٧ والذي تحول الى مركز للدسائس شملت العراق بأسره !

ربما للجمهورية على وجه الاحتمال. لانه ، باستثناء حفنة تعد على اصابع اليد من الانصار المهمين للقضية الشريفية ، فان الشعور في بلاد ما بين النهرين كان، بالتأكيد ، الى جانب الجمهورية ومعاديا للملكية .

ولكن ، كانت جيرترود بيل تكره سيد طالب وكأنه السم الزعاف، بينما لم يثق السير بيرسي به ولم يضمر له الود على وجه الاجمال . وعلى أية حال، فان الاثنين اتفقا على أنه يجب ان يشغل وزارة هامة في الحكومة ، ولم يكن من الصعب الادراك ان المركز الوحيد الذي سينال رضاه هو الداخلية . تجنبت الالحاح على مطالبه بالرئاسة(٤٣) ، مدركا انه لا يوجد سوى مرشح واحد يحتمل ان يوافق على العمل تحت رئاسته ، ومدركا ايضا ان سيد عبد الرحمن العجوز لم يكن راغبا ، في عمره المتقدم ، في ان يربط نفسه بمثل هذه المسؤولية .(٤٤)

اتقان المسرحية

كنت على اتصال مستمر مع سيد طالب مشيرا عليه بالتحلي بالصبر وموصيا اياه بالسير مع خطط كوكس لغرض تشكيل الحكومة الموقتة ، والتي سيكون فيها الشخصية المهيمنة كوزير للداخلية . وفي النهاية ، وبعد ان تم اتقان كل شيء ، عقد كوكس وجير ترود وانا مؤتمر الحرب الاخير لتقرير الشروع بالمجازفة . توجه كوكس بالسيارة ، وحيدا ، الى النقيب وطلب منه تشكيل الحكومة الموقتة بينما انتظرته جيرترود وانا في مكتبه لمعرفة نتيجة مقابلته. وعند عودته ، قال كوكس بايجاز وارتياح واضح : «لقد وافق» . ثم انضم الينا ، وابدينا جميعا الحبور لهذه النهاية السعيدة لجهودنا .

واخيرا ، اصبح من اللازم معالجة مسألة مستشاري الوزارات ، فقد

---

(٤٣) اي الالحاح على كوكس .

(٤٤) سبق للانكليز على لسان «بيل» بالذات ان عرضوا رئاسة الدولة السياسية على النقيب عام ١٩١٩ ، لكنه رفض لان المنصب يناقض «عقيدته» على حد قوله .

كوكس عدة مؤتمرات حول الموضوع • ومن الجلي ان بونهام كارتر ، الضابط الاقدم عند المندوب السامي ، قد رشح ليكون المستشار العدلي ، بينما اتضح ان أج• اي• سليتر »من الخدمة المدنية« يصلح لوزارة المالية • كان سليتر نشطا واداريا قديرا وطموحا للغاية • وفوق كل شيء اراد الابقاء على مستشارية الداخلية بأيد طيعة • لذا اقترح ، بجسارة ، أن اكون مستشارا لوزارة الاشغال العامة •

قابلت الاقتراح بضحكة غير لائقة ، ومن ثم خصص ذلك المركز للجنرال اتكنسون الذي كان مديرا عاما للاشغال العامة في نظام ولسون وهو رجل لائق للوظيفة الجديدة • اصبح ليونيل سمث مستشارا لوزارة المعارف، وتم توزيع مختلف المستشاريات الاخرى دون عناء الى ان وصلنا الى املاء الداخلية بمرشحين اثنين محتملين ، انا و «غاربيت» الذي وصل الى بغداد ليكون كبير سكرتيري المندوب السامي • كان من المقرر ان يكون المنصب الاخير من نفس مستوى مستشاريات الوزارات ، لذا كان هناك منصبان ومرشحان • لم يرد سليتر أن أكون في الداخلية بأي ثمن ، واقترح اسم غاربيت •

ولائم في الوزارة

اتجه كوكس نحوي وقال : «حسنا ، أي منصب تفضل ؟»

رددت : «انني تحت تصرفكم كلية ، سيدي •»

قال : «شكرا ، فيلبي »انني أقدر ذلك •»

وهكذا اصبحت مستشارا لوزارة الداخلية مع سيد طالب ، وزيري •

حضر كوكس الاجتماع التدشيني لمجلس الوزراء ، حيث تواجد جميع الوزراء والمستشارين تحت رئاسة صاحب السمو(٤٥) النقيب • وبذا شرعت

---

(٤٥) لا ندري من اين جاء «فيلبي» بهذا اللقب الاميري للنقيب ، فمرة «صاحب السماحة» و «صاحب الفخامة» وثالثة «المندي» ورابعة «صاحب السمو» !





جعفر العسكري برتبة فريق في الجيش العربي في الشام ١٩١٩ : اكثر دعاة فيصل اندفاعا .

الحكومة الموقتة في عملها الذي تركز على النظر في مسودة قانون الانتخاب اضافة الى مناقشة المشاكل اليومية للادارة • كان هناك الكثير من الجدل والاخذ والرد حول هذا الموضوع والقضايا الاخرى ، بيد ان الامور سارت بيسر كاف على وجه الاجمال • لم يجد سيد طالب ، باعتباره الوزير المهيمن ، أي حرج في احتلال افخر جناح من الغرف في السراي ، أو مبنى الحكومة القديم ، الامر الذي ادى الى حصولي ، انا ايضا ، على غرفة واسعة ومريحة بجواره مع وجود بـاب يربط غرفتينا ، بينما كانت لديه غرفة استقبال واسعة ، اضافة لمكتبه ، بحيث صار بمقدوره ان يولم غداء فاخرا يرسل له يوميا من محل اقامته الخاص،لجميع الاشخاص من ذوي الاهمية والمقام المرموق والذين ابدوا اهتماما خاصا بزيارته في ساعة مناسبة •

مثل الطفل المدلل

وذات يوم جاءني جعفر باشا ، والدموع تملأ مآقيه اذ كان شخصا عصبي المزاج وحساسا للغاية ، بشكوى من انه بينما حصلنا ، نحن ، على هذا المقر الفخم ، فانه ومستشاره، ايدي ، قد حشرا في غرفة تشبه العنبار(٤٦) بدون اثاث مكتبي ملائم • الم يكن وزير دفاع ، مع لاشيء يدافع عنه ولا شيء يدافع عنه به نتيجة الى ان القوة العسكرية الفعالة في البلاد كانت الليفي(٤٧) العرب التي يعمل فيها ضباط بريطانيون تحت السيطرة المباشرة للمندوب السامي تمهيدا لتحويلها نهائيا الى وزارة الداخلية التي تسيطر ، بالطبع ، على البوليس بقيادة الكولونيل بريسكوت ؟ يالجعفر المسكين ! كثيرا ما كان يتصرف مثل الطفل المدلل ، اذ لم تكن غلطتنا ان جيشه لم يبرز الى الوجود لحد الان • ان مستقبل قوات الليفي ، نصفها عرب ونصفها اكراد ، كانت مشكلة اثارت قدرا

---

(٤٦) مخزن الحبوب •

(٤٧) تاسست اول نواة لهذه القوات في الناصرية عام ١٩١٦ من بين افراد قبائل المنتفك وعرفت باسم «فرسان المنتفك» ثم تبدل اسمها الى «الشبانة» واخيرا «الليفي» بعد ان انضمت اليها عناصر من الاكراد والاثوريين وتحول الاخرون الى عمودها الفقري حتى حلها عام ١٩٥٥ •

كبيرا من الجدل ، كما هو الحال مع المقاطعات الكردية في شمال العراق ،والتي ظلت تدار بشكل منفصل(٤٨) من قبل ضباط بريطانيين مسؤولين امـــام المندوب السامي ، بانتظار درس وضعها في المستقبل في ظل حكومة العراق التي ستظهر الى الوجود بعد ان تجتمع الجمعية التأسيسية وتقرر شكلها النهائي ٠

ان المشاكل المتزايدة للادارة الجديدة لا يمكن ان تبحث بالتفصيل هنا ، ويكفي القول أنه تم في خاتمة الامر ، وبعد وقت طويل ، وضع قانـــــون الانتخاب بصورته النهائيةونال تبريكات حكومة النقيب وارسل الى المنـــــدوب السامي لغرض التشريع ٠ وفي الواقع ، فانه لم يدخل طور التشريع مطلقا نظرا الى تدخل تعقيد غير متوقع ٠ فبينما كنا نبذل كل ما في وسعنا لوضع سياســـة حكومة صاحب الجلالة التي تقررت في آب موضع التطبيق ، فان قوى اخـرى كانت تفعل فعلها في الوايتهول لاهمال تلك السياسة بقضها وقضيضها ٠

وجاء لورنس

لقد اصبح المستر تشرشل وزيرا للمستعمرات ، وتولى امر جميـــع التزامات الحكومة تجاه الشرق الاوسط بهدف النظر فيها واعادة تسويتها ٠ وجه هذا الدعوة الى لورنس لان يكون صديقه الصدوق ومؤتمن أسـراره ٠ وسواء كانت هناك وعود أو لم تكن، فان لورنس كان مصمما على توجيه الضربـــــة الجسورة الاخيرة لمصلحة صديقه ، فيصلا ، الذي يمضي أيامه في ايطاليـــا وسط الملل والضجر ٠

اخبرني كوكس ، في احد الايام ، ان تشرشل اقترح عقد مؤتمر ضخم في القاهرة لمناقشة وحسم جميع المشاكل المتصلة بالشرق الاوسط ، وعلى كل حال، فقد أكد لي أن ذلك لايعني تبدلا خطيرا في خططنا بالنسبة للعراق ، غير أنـــه ينبغي ايقاف قانون الانتخاب الى ما بعد عودته ٠ ومهما يكن من أمر ، فـــان تركيب جماعة كوكس بالذات للقاهرة كان منذرا بالشر : جير ترود بيـــل ،

---

(٤٨) لقد استهدف الاستعمار البريطاني شق وحدة الشعب العراقي منــــذ بداية احتلاله لقطرنا ٠

مؤتمر القاهرة ١٩٢١ في صورة ملتقطة في فندق «شبرد» على النيل ويبدو وزير المستعمرات تشرشل (الخامس من اليمين) وعن يساره كوكس والجنرال هالدن القائد العام في العراق ، وفي الصف الثاني بيل وساسون وضابط انكليزي ثم جعفر العسكري ولورنس : نذير شؤم لنقيب البصرة !

غاربيت وجعفر باشا(٤٩) • ادرك الجميع ان شيئا خطيرا قد بات في الأفـــق ، وتعرض بونهام كارتر ، الذي ناب عن كوكس ، الى سيل من الاسئلة المشوبـة بالقلق والتى رددنا عليها بصدق اذ قلنا ان الحكومة البريطانية وعدت شعـــب العراق بأن يختار مصيره بحرية واننا لانعرف شيئا عن اية نية لتبديل ذلـــك الوعد • سيطرت حالة من الهياج على سيد طالب نتيجة للقلق ، لا بل أن النقيب العجوز نفسه اضطرب بشكل خطير •

ومن ثم جاءت الرسائل ، البعيدة عن الحذر ، من جعفر باشا الى أنصـاره في بغداد بأن كل شيء يسير على ما يرام بالنسبة لقضيتهم ، فانتشرت الانبـاء ، مثل النار الهائلة ، في المدينة وشرع النقيب وسيد طالب في ابداء الشك بأننـــي اعرف اكثر مما اتظاهر به ، وأن بونهام كارتر ، وانا ، كنا على اطـلاع عـلى مؤامرة سرية من نوع ما • وفي تلك الظروف ، قدمت مذكرة الى بونهـــام كارتر ، استعرضت فيها الاشاعات التي وصلت الى سمعي ، واخبرته ، صراحة ، انني ملزم بالاستقالة احتجاجا اذا كانت الوعود ، التي كنت الاداة الرئيسة فـــي أعدادها وتوضيحها لجميع من يهمهم الامر بصفتي الرسمية ، ستتعرض الـــى التبديل في القاهرة •

وسط الاقداح

عبر كارتر عن الرأي في ان موقفي معقول وله ما يبرره تماما في تلـــك الظروف ، رغم انه لايعرف عن التقدم في محادثات القاهرة اكثر مما اعرف ، وانه سيضع مذكرتي امام كوكس عند عودته • ولغرض تفهم الامور ، ولـــو قليلا ، فقد قابلت كوكس عند رجوعه، ولما كان قد اطلع على المذكرة ، فانـــه اكد لي ان الحكومة البريطانية لا تنوي التراجع عن وعودها لشعب العـــراق • كانت جير ترود بيل وجعفر اقل تحفظا في احاديثهما عن المؤتمر ، غير انـــه نتيجة لتأكيدات وتطمينات كوكس لي ، فقد شعرت بالراحة وكنت قادرا عـــلى

---

(٤٩) نسي «فيلبي» ان «ساسون حسقيل» عضو «طالب» اللدود كان عضـــوا في الوفـد •

ابعاد اسوأ المخاوف من لدن سيد طالب والنقيب ، غير ان الاشاعات استمرت في اكتساح المدينة واصبح الموقف اكثر توترا بشكل مطرد .

وذات يوم في اواخر اذار ، اخبرني سيد طالب بأنه سيقيم مأدبة عشاء ، في منزله ، تكريما لجميع الممثلين القنصليين والدبلوماسيين في بغداد ورجال الاعمال البارزين من الجالية الاوربية وعدد من الوجهاء المحليين . وكان من المقرر ان يحضر المأدبة أس . لاندن ، مراسل صحيفة «الديلي تلغراف» ، وقد اقترح علي الانضمام اليها ، فرددت عليه بأن من الافضل الا اقوم بذلك نظرا الى ان الحديث سيكون سياسيا وان حضوري ، باعتباري المسؤول البريطاني الوحيد ، سيؤثر على حريته ، لذا لم اذهب .

كان الحديث سياسيا ، وسال النبيذ كالماء بما في ذلك الشمبانيا الفاخرة ، وسيطرت على رب الدار حالة من الابتهاج والانطلاق مثل سائر القوم ، وربما اكثر منهم . وفي ختام العشاء ، نهض لينفس عن بعض هموم قلبه السياسية ، اما خلاصة حديثه فهي ان الاشاعات عن تعيين فيصل أو ترشيحه ملكا مقبلا على العراق قد راجت على نطاق واسع ، وانه ينوي ان يوضح للحاضرين ، وكذلك الحكومة البريطانية ،ان شعب العراق لايريد فيصلا ولا يتحمل فرضه عليه . واضاف قوله : "واذا كان لديكم شك في صدق قولي ، فهنا شيخ محمد(٥٠) من ربيعة ، امير اربعين الفا من الشجعان ، وشيخ فلان وفلان من هذه وتلك . لقد وعدتنا الحكومة البريطانية بأن نختار شكل حكومتنا الخاص بحرية ، وانني احتج على كل تغيير للوعد ".

سارع احد ضيوف سيد طالب ، وهو تاجر يدعى تود ، بعد المأدبة الى «مرتع العفة" ليعيد على اسماع جير ترود بيل كل ما التقطه في غضونها . وفي اليوم التالي ، نقلت جير ترود بيل تفاصيل النبأ الى كوكس .

---

(٥٠) الصهيود ، اما «ربيعة» فهي عشيرة كبيرة في منطقة «الكوت» .



(من اليسار) السير والليدي كوكس وأحد معارفهما : يالها من دعوة ياســـيد طالب !

وقبل ذلك بأيام ، كان السيد طالب قد التقى مع الليدي كوكس في احدى الحفلات ، فعاتبته لعدم زيارتها من وقت لاخر . وهكذا وافق على ارتشاف الشاي معها في يوم السبت القادم ، اي السبت الذى يعقب حفلة العشاء التي اقامها . وفي ذلك النهار ، وحوالي الظهر أمعن الباشا النظر في غرفتي قائلا بأنه انجز عمل اليوم ومتسائلا عما اذا كانت هنات هناك أية أمور لبحثها مع كوكس ، نظرا الى أنه كان من المفترض ان يقابله بعد الظهر عند موعد الشاي . اخبرته بأنه لم تكن هناك نقاط هامة تستحق المناقشة ، فانصرف الى حال سبيله .

صادف انني وزوجتي كنا مدعوين من قبل الكابتن كوكس (٥١) لتناول العشاء والرقص في نادي العلوية(٥٢) تلك الليلة . وعندما وصلنا النادي ،تقدم منا ضابط اخر ليوضح لنا انه يقوم بدور المضيف نيابة ، نظرا الى ان كوكس قد استدعي بغتة لاداء مهمة مستعجلة . «مهمة فظيعة ،اليس كذلك ؟» هذا ما استطاع ان يهمسه في اذني ونحن نحث الخطى الى مائدة الطعام ، وكان علي أن اكتفي بذلك تلك اللحظة . ومن ثم سعيت للقاء به عند المشرب ، وبعد ان طلبت قدحين قلت : «انني آسف بشأن كوكس ، ولكن قل ما الذي حدث ؟» ومن الطبيعي انه افترض انني اعرف كل شيء فأخبرني بالقصة بأكملها .

لقد اختطف سيد طالب ، بناء على أوامر السير بيرسي ، بينما كان ضيفا عليه في منزله ، ونقل بعيدا في سيارة مدرعة الى يخت كان بانتظاره في اسفل النهر(٥٣) ليأخذه الى البصرة والاحتجاز في سيلان . يجب اعطاء تفاصيل القصة .

---

(٥١) لا تربطه صلة قرابة بالسير «بيرسي كوكس» وانما هناك تشابه في اللقب .

(٥٢) بكسر العين وتسكين اللام . ما زال قائما حتى الان وهو قريب من «دجلة» ويطل على ساحة الجندي المجهول .

(٥٣) تدل تحرياتنا في المصادر الانكليزية ان اليخت كان راسيا في «الدورة».

انني مقتنع بأن الليدي كوكس كانت طرفا بريئا كلية من المؤامرة التي دبرت بذكاء ، بما في ذلك قطع الخطوط الهاتفية ومنها هاتفي بالذات • كان كوكس قد توجه الى سباق الخيل تاركا رسالة اعتذار لدى الليدي كوكس ، التي وقفت ، مع جير ترود بيل ، عندما أعلن عن قدوم سيد طالب• واثناء ارتشاف الشاي ، حضر الميجر أي • بوفيل والكابتن كوكس ، صدفة كما يقال ، واحتسيا الشاي ثم استأذنا للانصراف •

وبعد عشر دقائق ، نهض سيد طالب ، بدوره ، ورافقته جير ترود بيل حتى الباب الامامي للمقيمية وعندما ارتقى سيارته ، انسحبت الى الداخل • ولما شرع السائق في تشغيل المحرك ، وجد ان الطريق مسدود بعدد من سيارات الحمل • كان سيد طالب على وشك الاحتجاج على هذا التصرف البعيد عن اللياقة ، عندما ظهر بوفيل والكابتن كوكس من خلف احدى السيارات معتذرين لهذه العرقلة ، ثم طلبا منه ان يعتبر نفسه سجينا لديهما • كانا يحملان تعليمات تقضي بالقبض عليه ونقله على الفور الى هدف لم يكشف النقاب عنه •(٥٤) لقد سقط ادهى رجل في جزيرة العرب في ابسط الفخاخ ولن يكون هناك أي أمل في الخلاص منه • وهكذا ذهب بهدوء •

اصبحت وزيرا

سيطرت على زوجتي حالة من الرعب ، أما أنا فقد استبد بي الغضب • وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي ، عادت الحياة الى خطي الهاتفي فاتصلت مع كوكس وتساءلت عما اذا كان بمقدوري رؤيته لمناقشة ما حدث في اليوم السابق • رد بقوله : «بالتأكيد ، في اي وقت تشاء ، انني جاهز الان•» وهكذا توجهت اليه بسيارتي وقد دارت في ذهني فكرة الاستقالة الفورية •عدت ادراجي بعد مقابلة استغرقت ثلاث ساعات وانا عضو في مجلس الوزراء العراقي، وفي الحقيقة ، اصبحت وزيرا للداخلية بدلا من سيد طالب !

---

(٥٤) في الواقع ، نفي «طالب» الى جزيرة «سيلان» وظل فيها عدة سنوات ثم عاد الى العراق وتوفي عام ١٩٢٩ ودفن في «الزبير» قرب «البصرة» •



طالب باشا النقيب بالملابس العربية اثناء نفيه في نجد ١٩١٥ : استدرجته الليدي كوكس الى فخ محكم !

كان كوكس صريحا للغاية فيما يتعلق بنفي سيد طالب ، وادركت في تلك الظروف انه لم يكن قادرا على جعلي موضعا لثقته قبل الحادث .ومن المؤكد انني كنت سأبادر الى تحذير صديقي من حفلة الشاي اياها ، ولايمكن معرفة ما الذي كان سيقوم به سيد طالب لمقاومة الدسيسة ضده . كانت تلك مهمة كوكس ومسؤوليته . عبرت عن عدم اقراري لعمله ، الامر الذي فسرته بأنه يعني ابعاد سيد طالب من اجل تمهيد الطريق امام فيصل . قمت بتذكيره بمذكرتي قائلا بأنني ما زلت عند رأيي الذي ورد فيها ، غير انه أكد لي بأنه لاتوجد نية ، ولم توجد في أي وقت ، لفرض فيصل ملكا على العراق . ومن ثم شرعنا في بحث المستقبل ، سيما اختيار خلف للوزير المنفي، قال : «لا اظن اننا بحاجة الى القلق حول ذلك لفترة من الوقت . ان تعرف العوائق ومن الافضل لك ان تستمر كوزير . سأوضح ذلك للنقيب .»

الشريف قادم

وهكذا مارست الحكم بدلا من سيد طالب ، وسارت الامور على ما يرام فترة من الوقت . لم تكن هناك اشارة الى تطور غير متوقع باستثناء الابتهاج المتزايد للزمرة الشريفية والذي بدا لي انه مستند على سوء فهم . في تلك الفترة ، بدأت جير ترود بيل وانا بالافتراق ، وان حال انغماسي في العمل دون الشعور بالقلق تجاه الموضوع . لقد شعرت أنها كانت ، بالتأكيد ، في معسكر الاعداء . ومن ثم ، وذات يوم ، وبعد اجتماع طويل للمجلس ، طلب مني النقيب العجوز أن اتأخر لانه يرغب في التحدث الي بصورة شخصية . تساءل ، وهو يضع برقية في يدي بعد انصراف الجميع : «هل تعرف أي شيء عن هذه ؟ لقد جاءت من جدة موقعة من قبل جعفر ابو التمن ، وهو وجيه بغدادي تعرض الى النفي لدوره في الثورة : « أبحر صاحب السمو الشريف فيصل اليوم البصرة . يرجى اعداد ترحيب مناسب .»

اجبت : «كلا ، لا أعرف . ولكن أيمكن ابقاء هذه البرقية لدي ؟ انني سأذهب واقابل كوكس في الحال واعود لاخبركم بما يقول .» توجهت

بسيارتي على الفور الى المقيمية ووجدت كوكس دون عمل • بدأت بقولي : «ان السوق حافل بالاشاعات عن ان فيصلا قد غادر جدة الى البصرة ، فهل هذا صحيح ؟ » اجابني : «أؤكد لك ، فيلبي ، انني لا أعرف شيئا عنه • انني لم استلم مثل هذا النبأ •» ومن ثم اخرجت البرقية وانا اقول : «وفي هذه الحالة، قد يكون من الممتع بالنسبة لك ان تقرأ هذه •» أعاد التأكيد على تأكيداته(٥٥) بأنه لم يعرف شيئا عنها ، فانصرفت كي ارفع تقريرا للنقيب •

ظهرت القطة

اصبحت الامور مستحيلة نتيجة للفيض الجارف من الاشاعات والاشاعات المضادة عندما أعلن بعد يوم او يومين من قبل وكالة «رويتر» ان المستر تشرشل سيلقي تصريحا هاما حول سياسة الحكومة بشأن الشرق الاوسط وذلك في ١٢ حزيران • وفي اليوم التالي ، نشرت «بغداد تايمز» النص الكامل لتصريح تشرشل الذي اخبر البرلمان ان فيصلا في طريقه الى بلاد ما بين النهرين لتقديم نفسه الى شعبها باعتباره مرشحا للعرش ،وان افضل امنيات الحكومة بنجاحه قد ذهبت معه وانه يؤمل ان العراق سيقدر هذه الفرصة لتحقيق مطامحه • عرفنا ، جميعا ، ما يعني ذلك ، فعند نهاية الامر ظهرت قطة القاهرة من الكيس ! ولكن ، ومما يثير اكبر قدر من الاستغراب ، فان السياسة المعلنة بشأن الانتخابات الحرة ظلت قائمة • لم يكن هذا بالامر الجيد بالنسبة لفيصل والاقلية الصغيرة التي تؤيده في البلاد • غير انه كانت لدى الحكومة البريطانية ، دوما ، القدرة على التوفيق بين الخصوم الذين لا يمكن أصلاح ذات البين بينهم !

كانت المادة الثانية في البرنامج الاستعداد لاستقبال فيصل • لم تقدم بغداد اية صعوبة بوجود كوكس في موقع العمل وقيام جعفر وجير ترود بيل بتنظيم لجنة استقبال وبرنامج مناسب للاحتفالات • اما البصرة ، بحشودها العسكرية

---

(٥٥) تشير «بيل» في رسائلها الى ان المندوب السامي كان على علم بكل هذه التطورات خطوة بعد خطوة •



اول صورة لفيصل عند وصوله البصرة في حزيران ١٩٢١ .

والمدنية الواسعة واسرتها التجارية ، فيمكن الوثوق بأنها ستقدم عرضا جيدا . بيد أن المشكلة تركزت حول ما اذا كان على المندوب السامي والحكومة الموقتة ان يرسلا من يمثلهما عند نزول فيصل في البصرة . ناقشت المسألة باسهاب مع كوكس ، الذي كانت تساوره الشكوك حول موقفي الشخصي ويعلم ان الانتخابات المقررة ستدار من قبلي . ولكي اريح دماغه ، تطوعت للذهاب الى البصرة للقاء فيصل ، فقال «اني سأكون في غاية الامتنان لو انك قمت بذلك .»

مظهـــر ملكي

ارتقيت القطار الى البصرة ، وفي كل محطة في الطريق كنت استقبل من جانب متصرفي الالوية ومستشاريهم البريطانيين وحشد كبير ، وهم يوجهون لي نفس السؤال : «ما الذي ينبغي علينا عمله بشأن استقبال فيصل ؟ ما هي الاوامر ؟» فرددت على الجميع : «لا توجد أوامر رسمية ، يجب عليكم تقرير طريقكم الخاص . ان فيصلا قادم كمرشح للعرش ، وليس ملكا . والانتخابات ، عند اجرائها ، ستكون حرة بصورة مطلقة ، ووزارة الداخلية ستضمن ذلك . ان ممثليكم المنتخبين سيقررون الشكل القادم للحكومة ويختارون رئيس الدولة . لقد قرأتم خطاب تشرشل وما الذي يريده ، بيد ان الحكومة البريطانية لن تتدخل في حرية تصويتكم .»

وبالنسبة للمستشارين البريطانيين ، فمن الطبيعي أنهم ارادوا تعليمات اكثر دقة بشأن الموقف الذي عليهم ان يقفوه . فقلت لهم ، بسرية، في عربتي: «كرروا ما قلته للناس ، ولكن لا تمارسوا أي ضغط بطريقة أو بأخرى . ان الانتخابات حرة بصورة مطلقة . يجب عليكم ، شخصيا ، أن تستقبلوا القطار الخاص في محطاتكم ، ولكن يجب عليكم عدم تنظيم أية مظاهرات ، فهذا أمر متروك تقديره للناس . وحتى في بغداد والبصرة ، فان تنظيم الاستقبالات يجري بشكل غير رسمي .» وصلت البصرة قبل يوم أو يومين من قدوم فيصل . وردا على الاسئلة المشوبة بالقلق ، اكدت أن الانتخابات ستكون حرة.

وعندما اقتربت السفينة الحربية البريطانية ، انطلقت بقارب بخاري مع كبار المسؤولين المدنيين والعسكريين لارتقائها • استقبلنا فيصل ، الذي بدا في مظهر ملكي للغاية ، بملابسه العربية مع كينهان كور نواليس[٥٦] وموظفيه الى جانبه عند رأس الممر الجانبي • ووسط الابتسامات والنية الحسنة ، نقلت تحيات المندوب السامي والحكومة الموقتة[٥٧] وهي التي رد عليها فيصل بلطف بالغ • لم يكن لديه ما يشكو منه وسط الحشد الذي رحب به على الرصيف عندما وضع قدميه للمرة الاولى على تربة بلاد ما بين النهرين ، على الرغم من انه كان هناك حماس قليل ومن المؤكد انه لم يكن هناك مرح صاخب •

مرشح من ؟

خصص اليومان التاليان للمآدب ، وحفلات الاستقبال والاحتفالات الاخرى ، وفي الوقت المحدد صعدنا الى القطار الخاص ، وحل كورنواليس

---

(٥٦) مستشار وزارة الداخلية فيما بعد •

(٥٧) وبناء على ايعاز كوكس صدر المنشور التالي :

«لقد بين فخامة رئيس الوزراء لحضرات اصحاب المعالي الوزراء في الجلسة المنعقدة يوم الخميس في ١٠ شوال سنة ١٣٣٩ المصادف ١٦ حزيران سنة ١٩٢١ نبأ قدوم سمو الامير فيصل المعظم الى العراق واظهر فخامته وجوب الاحتفال بقدوم سموه والقيام بما يليق بعظمته من التفخيم والتبجيل من قبل الحكومة الوطنية •

فقرر مجلس الوزراء باتفاق الاراء مؤازرة فخامة الرئيس في هذا الامر الهام فانتخبت لجنة من الوزراء لاختيار محل يليق بسمو الامير المعظم ووضع منهاج لاستقبال سموه واتخاذ ما يقتضي لذلك من الترتيبات بصورة فخيمة يتجلى فيها الاحساس القومي والشعور الوطني وعليه ففخامة رئيس الوزراء يدعو الامة العراقية الكريمة الى الاشتراك في هذا الاحتفال الوطني الشريف الذي تقوم به الحكومة احتراما لسمو ذلك الامير المعظم •

١١ شوال ٣٣٩	حسين افنان
بغداد	سكرتير مجلس الوزراء
١٧ حزيران ٩٢١	جريدة العراق، ١٨ حزيران ١٩٢١



مادبة في دار الاعتماد بعد قدوم فيصل الى العراق ١٩٢١ : الخاتون وعن يمينها ساسون وكورنواليس وعن يسارها احد زملائها وعبد المحسن السعدون وعزت الكركوكلي ورستم حيدر • يبدو عبد المجيد الشاوي ، امين العاصمة ، واقفا بينها وبين ساسون •

وانا في صالون واحد • وبذا توفرت لي الفرصة لجعله على دراية باوضاع البلاد والاحتمالات المفتوحة أمام بطله • وصلنا الناصرية في وقت مبكر من الصباح لنجد في استقبالنا المتصرف ومستشاره وعدد قليل من الموظفين ، وبخلاف ذلك كانت المنصة خالية وغير مريحة • ربما كانت الساعة مبكرة جدا ، ومع ذلك ظل الوضع على حاله طوال اليوم ، في السماوة ، الرميثة ، الديوانية وجميع المحطات في الطريق • لقد قرر الناس عدم الترحيب بملكهم المرتقب ، ولم يكن هناك عرض ما الا في الحلة ، حيث تقرر تمضية الليلة ، وقد نظم بشكل صحيح من جانب «دكسون» •

اندفعنا خارجين من المحطة ، وقد أسدل الظلام استاره كلية ، الى سرادق كبير حيث اتخذنا ، جميعا ، مجلسنا على الارض لتناول عشاء فخم • كانت تجارب ذلك النهار ، أو شحتها ، قد فتت في عضد فيصل الى حد ما • امضينا ، كور نواليس وانا ، معظم ذلك النهار معه في صالونه ونحن نبحث الامور حول أقداح الوسكي والصودا • اوضح فيصل ، دون لبس أو ابهام ، انه لم يأت الا بناء على دعوة الحكومة البريطانية وانه توقع المساندة الفعالة من قبل جميع المسؤولين البريطانيين في ترشيحه للعرش • كنت صريحا تماما معه• من الواضح تماما ، ان الحكومة البريطانية تريده ملكا ، ألم يكن تشرشل طيبا كما قيل عنه ؟ ألم يصل البصرة على ظهر سفينة انكليزية ـ وما الى ذلك ؟ أما انا فقد قلت ان الانتخابات ستكون حرة كلية ، فهذه هي التعليمات الصادرة الى جميع المسؤولين البريطانيين في البلاد • واضفت بأنه اذا اراد الحصول على اصوات الشعب على أساس أنه مرشح الحكومة البريطانية ، فان حظه من النجاح ضئيل •

فلا عجب ، اذن ، ان يخاطب الضيوف المجتمعين بعد العشاء كرجل متعب ، خائب الأمل • وفي اليوم التالي ، توجهنا بالسيارات الى النجف لكي يحتفى بنا من قبل مجتهدي الشيعة في تلك المدينة المتعصبة(٥٨) ، موقع دفن

---

(٥٨) لا نعرف الغاية من اطلاق «فيلبي» هذا الوصف على «النجف» ولعله يشير الى دورها في ثورة العشرين وهو أمر معروف •

آدم وعلي ، في السراديب العميقة لقصورهم الفخمة • وهنا أيضا ، تناولنا الطعام بشكل ملوكي وامضينا ليلة • كان كور نواليس وانا قد ابتعدنا ، بحذر ، عن المسرح تاركين لفيصل ان يعالج امر المتعصبين بطريقته الخاصة ، فهنا على الاقل ، عليه ان يبذل كل ما في وسعه لابعاد الانطباع الشعبي بأنه أختير من جانب الحكومة البريطانية • وفي اليوم التالي سافرنا الى كربلاء ، قاطعين طريق الصحراء ، حيث اصابتني نوبة مخيفة من الملاريا ارغمتني على التزام الفراش ، الامر الذي سبب لي الشلل لمدة اسبوع أو عشرة ايام • نقلت الى الحلة حيث جاءت زوجتي للاشراف على شفائي ، مع تقرير كامل عن الاستقبال الملوكي الذي حظي به فيصل عند وصوله الى بغداد •(٥٩)

كوكس يرمي القناع

لم يكد يمر اسبوع على ذلك حتى وجه المندوب السامي البلاغ التالي :

الى عموم العراقيين

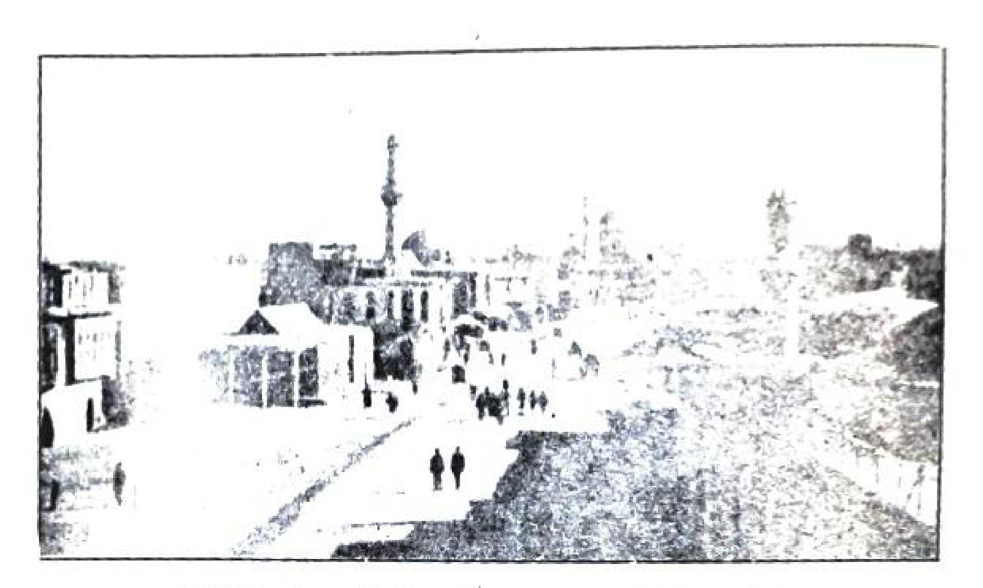
وافانا من ديوان فخامة المندوب السامي البلاغ الاتي :

لاشك أنه غير خاف على العموم انه قد انتهي الى بغداد في ١٦ حزيران (الموافق ٩ شوال) بيان خطاب القاه جناب المستر شرشل في مجلس العموم البريطاني يوم ١٤ حزيران (الموافق ٧ شوال) وقد شرح فيه وزير الدولة المذكورة لسامعيه الحالة السياسية في بلدان الشرق الادني ثم اعطى بيانا شافيا عن سياسة حكومة جلالة الملك فيما يتعلق بهذه البلدان •

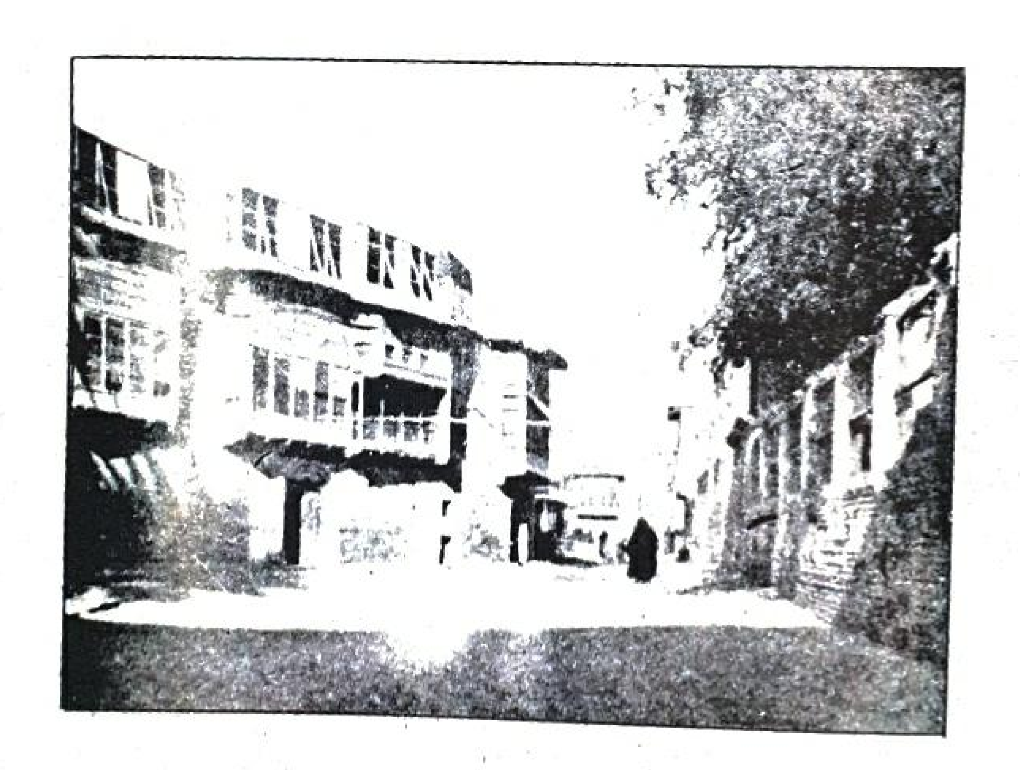
ان ما ورد في ذلك الخطاب بشأن العراق قد صار نشره في الحال بأذن مني بصفة كوني المندوب السامي ، في الجرائد الانكليزية والعربية في بغداد والبصرة وقد ظهر ان ما نشر قد أتى ببيان واضح عن سياسة الحكومة البريطانية • على أنه بعد نشر ذلك البلاغ عرض علي تكرارا بأن الاهالي يرغبون شديد الرغبة في تصريح مني بصفة كوني المندوب السامي ورئيس

---

(٥٩) Philby, Arabian Days, pp. 173-203.



شارع الرشيد من باب المعظم عام ١٩١٧



دار النقيب جوار مرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني

الحكومة العراقية الموقتة ، اشرح فيه بوضوح النقاط المهمة كما وردت في الخطاب المذكور فبناء عليه رأيت ان من الواجب علي ان أقوم بذلك فأقول :

مما يذكر انه بعد بدائة[٦٠] الحرب العظمى قطعت العهود مرارا لاهالي العراق ولجلالة ملك الحجاز بأنه لن يسمح بوجه من الوجوه أن تعود العراق أو اي مقاطعة من المقاطعات المحررة الى السلطة التي كانت تابعة لها عند نشوب الحرب وان الحكومة البريطانية تقصد المحافظة على هذه العهود بحزم وثبات • وتشعر بأنها تكون مقصرة في القيام بواجباتها بموجب هذه العهود فيما لو اهملت تقديم المساعدة للعراق في هذا الدور الابتدائي من حياته وانها تتركه باهمال كهذا فريسة للاضطراب وعدم النظام • وفي ذات الوقت ان بريطانيا العظمى غير مستعدة للاستمرار على حمل العبء المالي الثقيل والتبعة (المسؤولية) السياسية بمراقبة الادارة (ادارة العراق) للحد الذي كان ضروريا ريثما تعاد الامور الى احوال السلم •

ان الحكومة البريطانية كانت دائما ولا تزال ترى ان افضل طريقة للقيام بعهودها وواجباتها هي مساعدة اهالي العراق على أقامة حكومة وطنية منهم بمساعدتنا فتنشأ بذلك دولة عربية مصادقة[٦١] تكون بغداد عاصمة لها• اما حكومة جلالة الملك نفسها فترى ان افضل انواع الادارات للعراق هو حكومة دستورية برئاسة وازع (حاكم) مقبول لدى اهل البلاد • على ان حكومة جلالة الملك ترغب في ان تبين بوضوح كما سبق فبينت تكرارا بأن ليس لها قصد أو رغبة ما في اكراه الشعب على قبول وازع ما معين بل الامر بالعكس فانها ترغب في وجود الحرية التامة في الاختيار وابداء الرأي • ومع ذلك ان الحكومة البريطانية بصفة كونها الدولة التي تحملت مصاريف طائلة في العراق في اثناء السنوات السبع الاخيرة لا يمكنها ان تقف موقف العديم

---

(٦٠) بداية • يعود الخطا الى ركة الترجمة • أما الاقواس في النص فهي منقولة منه •

(٦١) صديقة •

الاكثرات امام هذه المسألة فلها الثقة بأن الشعب العراقي سيستعمل الحكمة والحرية معا في اختياره للوازع •

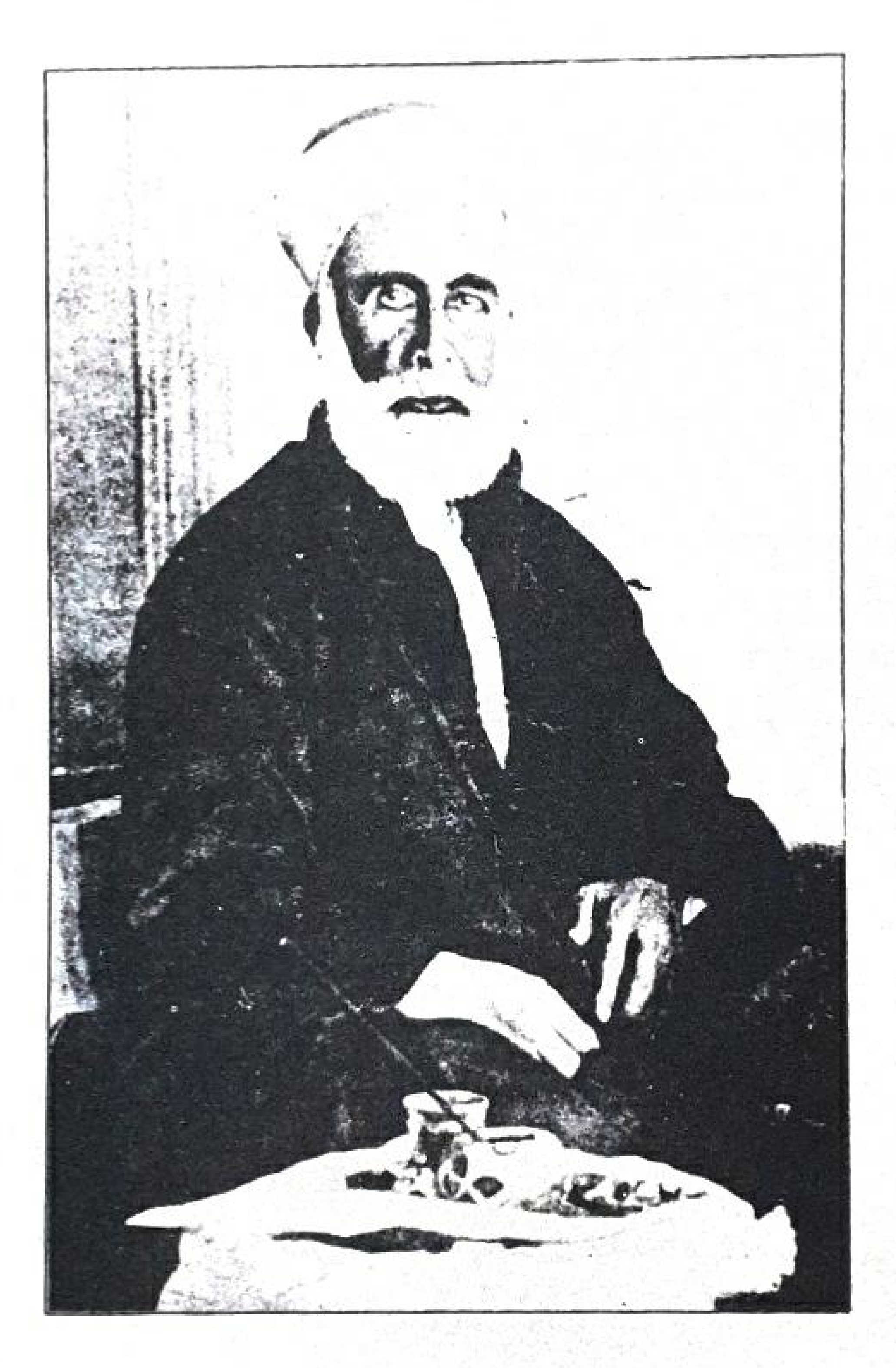
وهنا أودان اشير بايجاز الى قدوم سمو الامير فيصل الى العراق فأقول أن موقف حكومة جلالة الملك في هذا الصدد هو كما يأتي :

ان عائلة الشريف هي العائلة التي نشرت اللواء العربي في صف الحلفاء اثناء الحرب التي لعبت دورا ذا شأن في ربحها وان القضية التي من اجلها دخلت في صفوف المحاربين كانت قضية حرية العرب يعني عين القضية التي تعهدت بريطانيا العظمى بمظاهرتها ونجاحها في العراق فبناء على ذلك عندما سأل انصار عائلة الشريف في العراق عن موقف الحكومة البريطانية ازاء دعوتهم للامير فيصل ليأتي للعراق اجيبوا على ذلك بأن حكومة جلالة الملك لم تضع عثرة في سبيل ترشيح سمو الامير لعرش العراق واذا وقع عليه انتخاب الشعب سيلقي تأييد بريطانيا له • فبناء على ذلك بينما وزير الدولة (المستر تشرشل) يورد رغته في ان يستعمل اهالي العراق الحرية في الاختيار يرى ان ليس هنالك من سبب للامتناع من ان يبين بوضوح أن حكومة جلالة الملك تعتبر أن الامير فيصل هو مرشح موافق لا بل حقا اوفق مرشح في الميدان وترجو ان ينال معاضدة اكثرية الشعب العراقي •

واذا تم انتخاب الامير فيصل فتعتقد حكومة جلالة الملك أنه يكون قد توصل بذلك الى حل ينطوي على اكبر الامال في مستقبل سعيد مقبل لهذه البلاد •

ان حكومة جلالة الملك تعلم انه قد بحث في حلول أخرى ممكنة منها :

اولا : ــ تأسيس جمهورية • ــ وثانيا عرض امير تركي • اما فيما يخص الاول فمن رأي حكومة جلالة الملك ان درجة العراق من الرقي غير موافقة قطعا لتأسيس جمهورية واما فيما يخص عرض امير تركي فهذا حل ليس الحكومة مستعدة لافساح المجال له •



حسين شريف مكة : ناصر قضية الحلفاء .

ومن المؤمل ان العبارات التي اوردت اعلاه تفسر بوضوح سياسة حكومة جلالة الملك وهي سياسة قد استحسنها بالاجمال الجمهور البريطاني والصحافة البريطانية حسب ما بينت في خطاب المستر ونستون تشرشل واني اوافق عليها كل الموافقة بصفتي المندوب السامي الذي من واجبي وواجبات وظيفتي تفسيرها بدقة .

بغداد في ٥ تموز سنة ١٩٢١ ».[٦٢]

قضي الامر

لقد قطعت جهينة قول كل جهير . نشرت نفس الجريدة مقالا افتتاحيا بعنوان : «حول بلاغ المندوب السامي» نقتطف منه ما يلي : «فنقول لقد قضي الامر الذي كان (العراقيون)[٦٣] فيه يستفتيان ولم يبق لهم وراء ما جاء في بلاغ المندوب السامي مذهب اخر لانه انكشف به الغطاء وبرح الخفاء وتبين الرشد من الغي ... وفي الختام نقول ان بيانات المستر تشرشل وبلاغ المندوب السامي كلاهما رضيعا لبان سياسة الحكومة البريطانية الاخيرة اوجبتها الموازنة العامة والتي قضت بتأسيس حكومة عربية مستقلة دستورية في العراق برئاسة وازع عربي شريف المحتد طيب الاصل والفرع وباستحسان كون ذلك صاحب السمو فيصلا وقطعت دابر الشك والتردد في هذا الامر ... والسلام على من تبع الحقيقة وترك الخيال ».[٦٤]

من الافضل ان نرى ما حل بالحاج فيلبي : «وعند عودتنا قابلت كوكس، الذي بدأ الحديث بأسئلة رقيقة عن صحتي وسرعان ما انتقل الى العمل الجدي اذ قال : «يبدو انك لم تنسجم جيدا مع فيصل ، فقد كان يشكو بمرارة من موقفك اثناء الرحلة الى هنا . انه يعلن بأنه لن يبقى ما لم يضمن المساندة الفعالة من جميع المسؤولين البريطانيين ». رددت : «انني لا ادرك كيف أنه

---

(٦٢) جريدة العراق ، العدد ٣٣٦ ، ٦ تموز ١٩٢١ .
(٦٣) هكذا بالنص .
(٦٤) المصدر السابق ، العدد ٣٣٨ .

يتوقع ذلك ، خاصة على ضوء الاوامر الرسمية ، وأوامرك بالذات والتي لم تكن مطلقا موضعا للالغاء أو التبديل ، فيما يتعلق بحرية الانتخابات .

« لقد اكدت كثيرا للنقيب وغيره اننا ننوي المحافظة على الوعود المعطاة لهم . ومن الطبيعي ان فيصلا ادرك انه اذا كانت الانتخابات حرة ، فان لديه حظ ضئيل من النجاح . وفي الواقع ، فانني اخبرته بذلك في غاية الصراحة .» قال كوكس : «انا اعرف انك فعلت ، ولكن من المؤكد ان تعرف الان ما تريده الحكومة البريطانية .» رددت : «من الطبيعي انني اعرف ذلك. لقد ادركته منذ زمن طويل رغم جميع التأكيدات التي اعطيتها ، انت ، والتي تقول بالعكس . غير ان الشيء الذي لا استطيع فهمه انه اذا كانت الحكومة تريد ان يكون فيصلا ملكا ، فلماذا لاتبادر الى تعيينه بطريقة مستقيمة لا مواربة فيها ، بدلا من الاصرار على مهزلة الانتخابات . وعلى اية حال ، فانا ملزم بجد بالتأكيدات التي اعطيتها في كل مكان بحيث لا استطيع المشاركة في تزييف الانتخابات .»

قال كوكس : «انني افهم ، ولكنني لأرى كيف يمكن التوفيق بين موقفك هذا وبقائك في منصبك .» رددت : «اذا كان المراد مني ان ازيف الانتخابات ، فلا توجد لدي رغبة في البقاء في منصبي . وفي حالة قيامك بترشيح من يخلفني ، فانني سأخرج من هنا ، مباشرة ، والقي بمقاليده له .» قال : «شكرا ، فيلبي ، انني آسف لانك لا تستطيع رؤية طريقك للاستمرار في مساعدتنا .»

وبعد بعض الحديث الودي للغاية حول المرشحين الملائمين ، وكان كورنواليس الرجل الواضح رغم ان اختياره الان سيكون شائكا للغاية ، غير انه سرعان ما حكم بدلا مني مستشارا لوزارة الداخلية مدة اربعة عشر عاما(٦٥) ، فاستقر رأينا على جي . آر . تومسون ، مساعد المستشار في وزارة

---

(٦٥) اقصاه «رشيد عالي الكيلاني» وزير داخلية «ياسين الهاشمي» عام ١٩٣٥ مما اثار حفيظته وحقده عليه ، وتجلى ذلك في غضون ثورة مايس ١٩٤١.

في نزهة بجبال حمرين في محافظة ديالى ١٩٢١ : الخاتون والى الامام منها قليلا فيصل الاول ثم نوري السعيد وبعض المرافقين ٠ اما الاول من اليسار فهو الجنرال هالدن ٠

المالية .(٦٦) توجهت بالسيارة مباشرة الى هناك واخبرت «سليتر» انني قدمت استقالتي واصطحبت تومسون لتنصيبه موقتا بدلا مني .

قلت لزوجتي وانا ادخل غرفة الاستقبال : «لقد استقلت ..» وسرعان ما انتشر النبأ في طول المدينة وعرضها . وعند موعد الشاي ، اندفعت جير ترود بيل الى الغرفة بقدم متعثرة وهي تبدي عجبها قائلة : «جاك ، كم أنا آسفة لسماع هذا الخبر ..» فقالت زوجتي بلهجة خشنة ، وهي تمر الى جوارها مباشرة ، في طريقها الى خارج الصالة : «كلا ، انكِ لستِ كذلك ..»

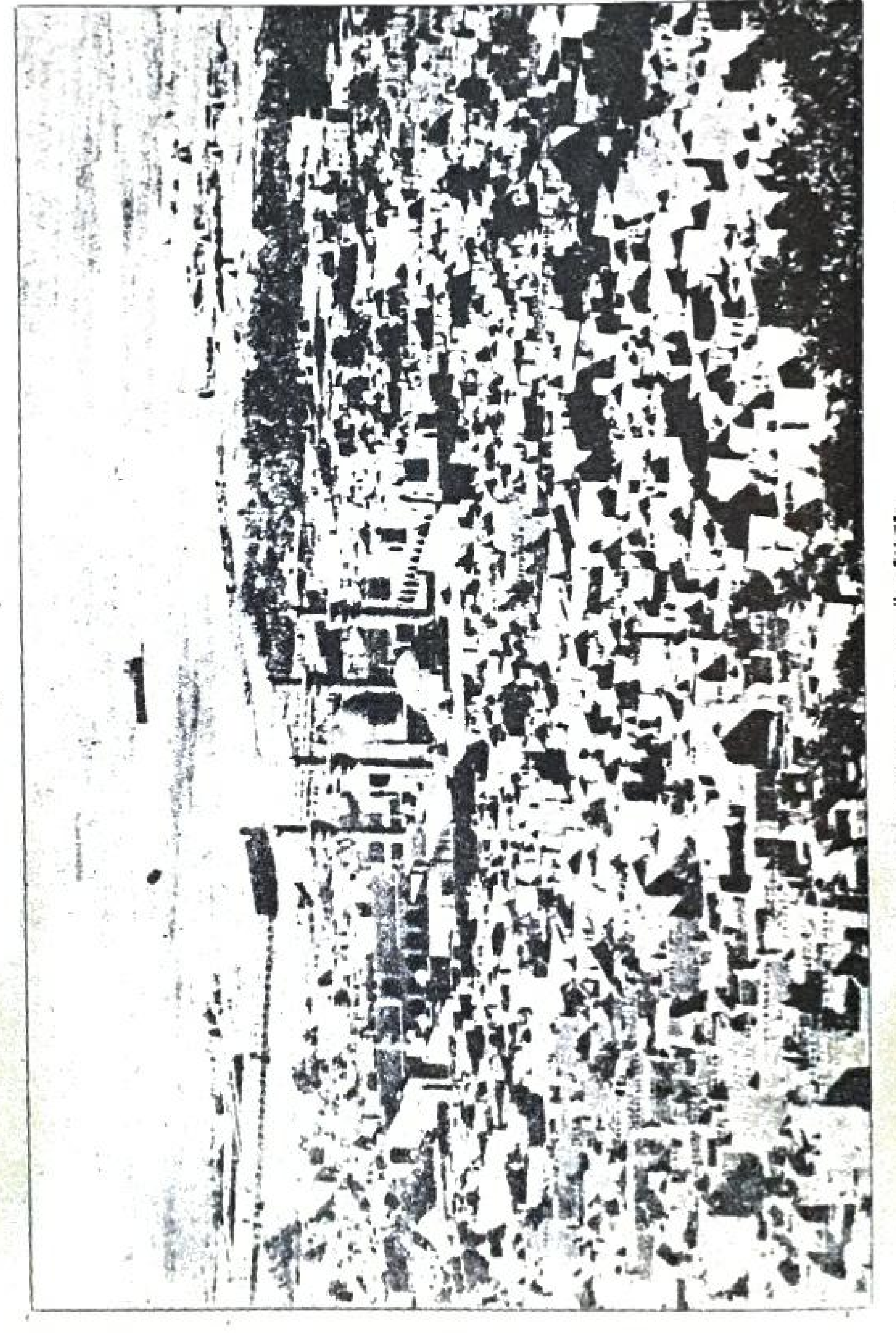
قمت بتهدئة جير ترود بتقديم قدح من الشاي لها واخبرتها عن مدى سروري وابتهاجي لخلاصي من جميع هذه الدسائس التي تبعث الكآبة في النفس . كانت زوجتي تتوقع طفلا في تشرين الثاني ، فوافق كوكس على أن نبقى في منزلنا أي وقت نشاء . وفي غضون ذلك ، ولغرض ازالة الحرج الذي يسببه وجودي في بغداد ، اقترحت التمتع باجازة امدها ثلاثة شهور في بلاد فارس ، وبذا انتهت صلتي الرسمية مع العراق وكوكس . أما قانون الانتخابات، الذي بذلنا الجهد من اجله ، فقد رمي في سلة الازبال ..»(٦٧)

عندما عاد سفيرا لبريطانيا لدى العراق (راجع كتابينا : اسرار عراقية ، ومحمود سلمان) .

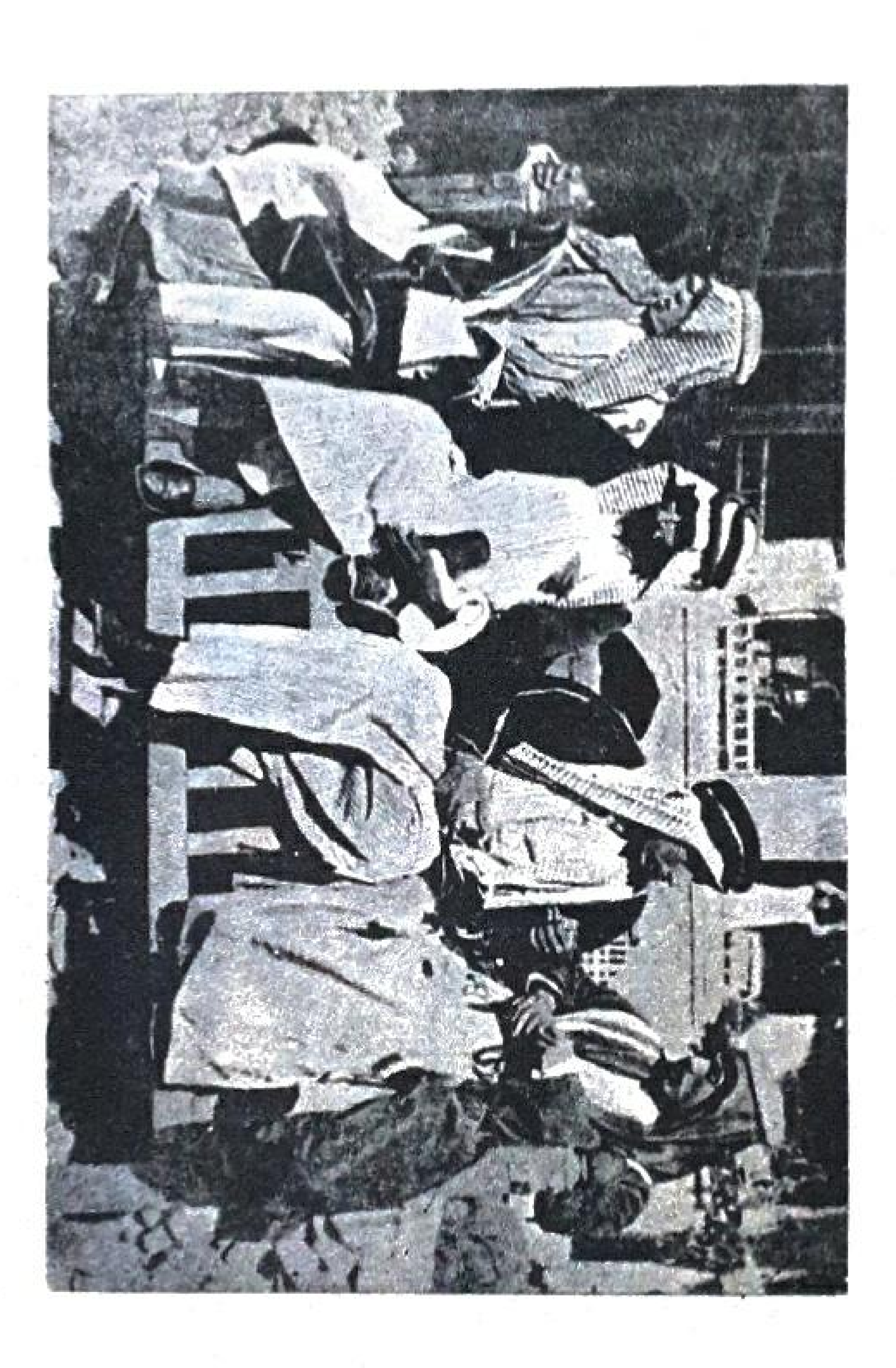
(٦٦) ـ «سلم المستر فيلبي وظيفة مستشار الداخلية الى المستر تومسون : اتصل بنا ان المندوب السامي وجد أنه من الضروري ان يعيد النظر في توزيع موظفي الهيئة الاستشارية البريطانية وبناء على ذلك فقد سلم المستر ه . سنت جون فيلبي سي . أي . جي . أي . سي . أس ، مهام وظيفة مستشار وزارة الداخلية الى المستر تومسون جي . أس . أي . أس . وذلك وفقا للاوامر التي اصدرها فخامة المندوب السامي .» العراق ، ٧ تموز ١٩٢١ .

(٦٧) The Arabian Days, pp. 203-206.

بغداديات ...



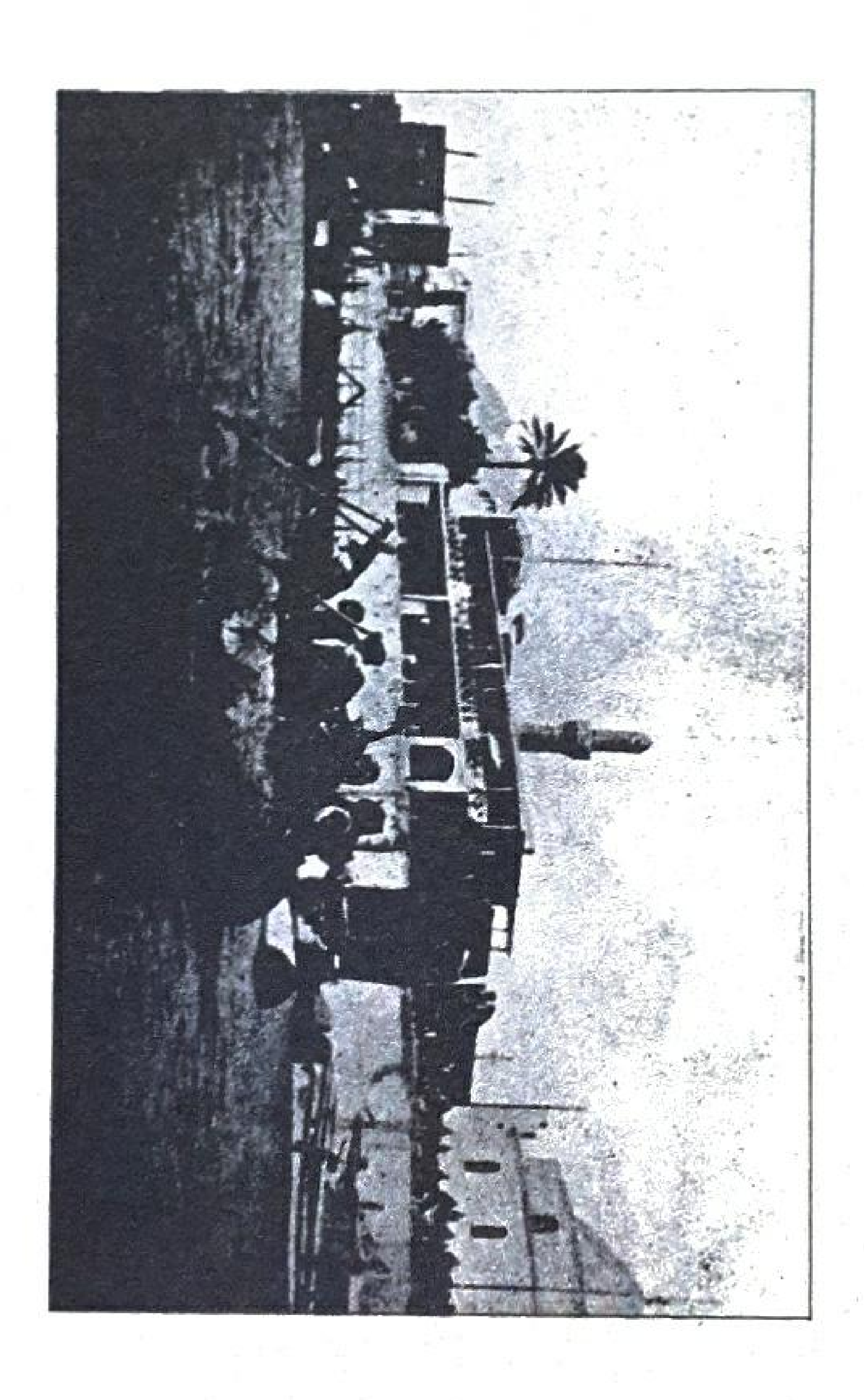
الكاظمية من الجو ١٩١٧



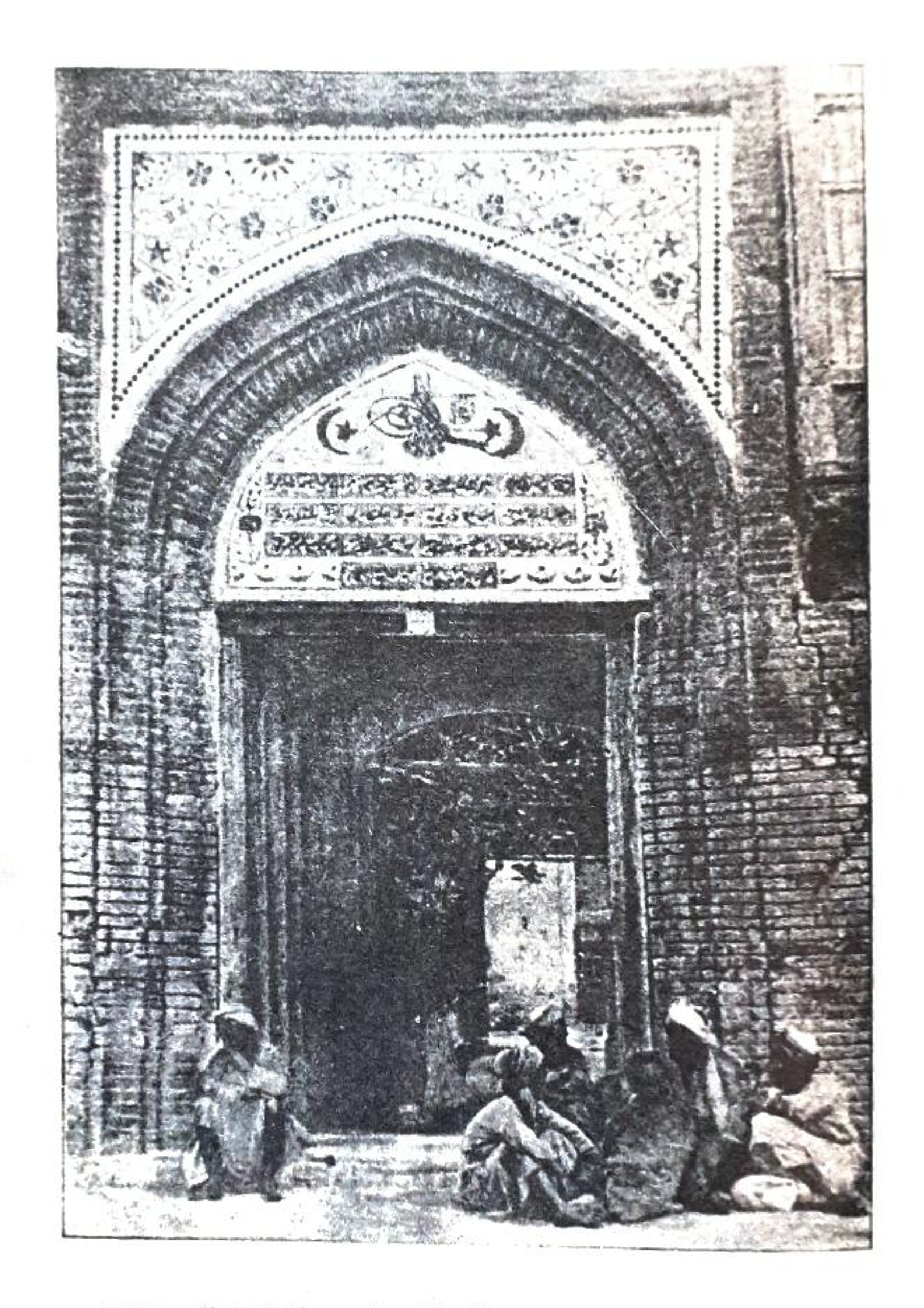
مقهى بغدادي في منطقة الميدان ١٩١٧



ضاحية الاعظمية في لقطة من الجو ١٩٨٦ م

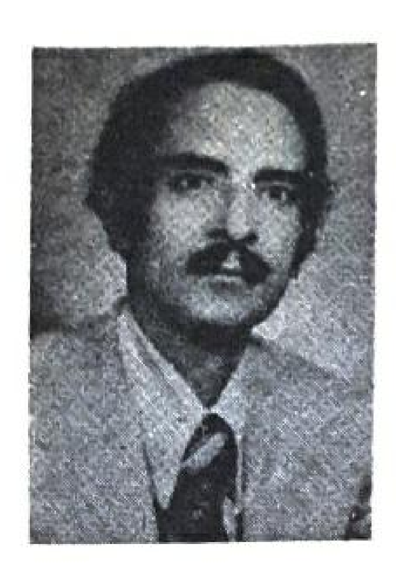


مشهد من دجلة على مقربة من جسر القوارب



الجامع السليماني مقابل دار الضباط جنوب وزارة الدفاع ١٩١٦

الفهـــرس



عـــن المؤلـف

● من مواليد محافظة ذيقار ـ العراق ـ ١٩٣٥ .
● حاصل على بكالوريوس لغات اجنبية من جامعة بغـداد وشهادتـين في تقدير مستوى اللغة من جامعتي لندن وكامبرج .
● شغل مختلف الوظائف لدى الدولة .
● عمل في جميع المجالات الاعلامية في العـراق .
● صدرت له الكتب التالية :

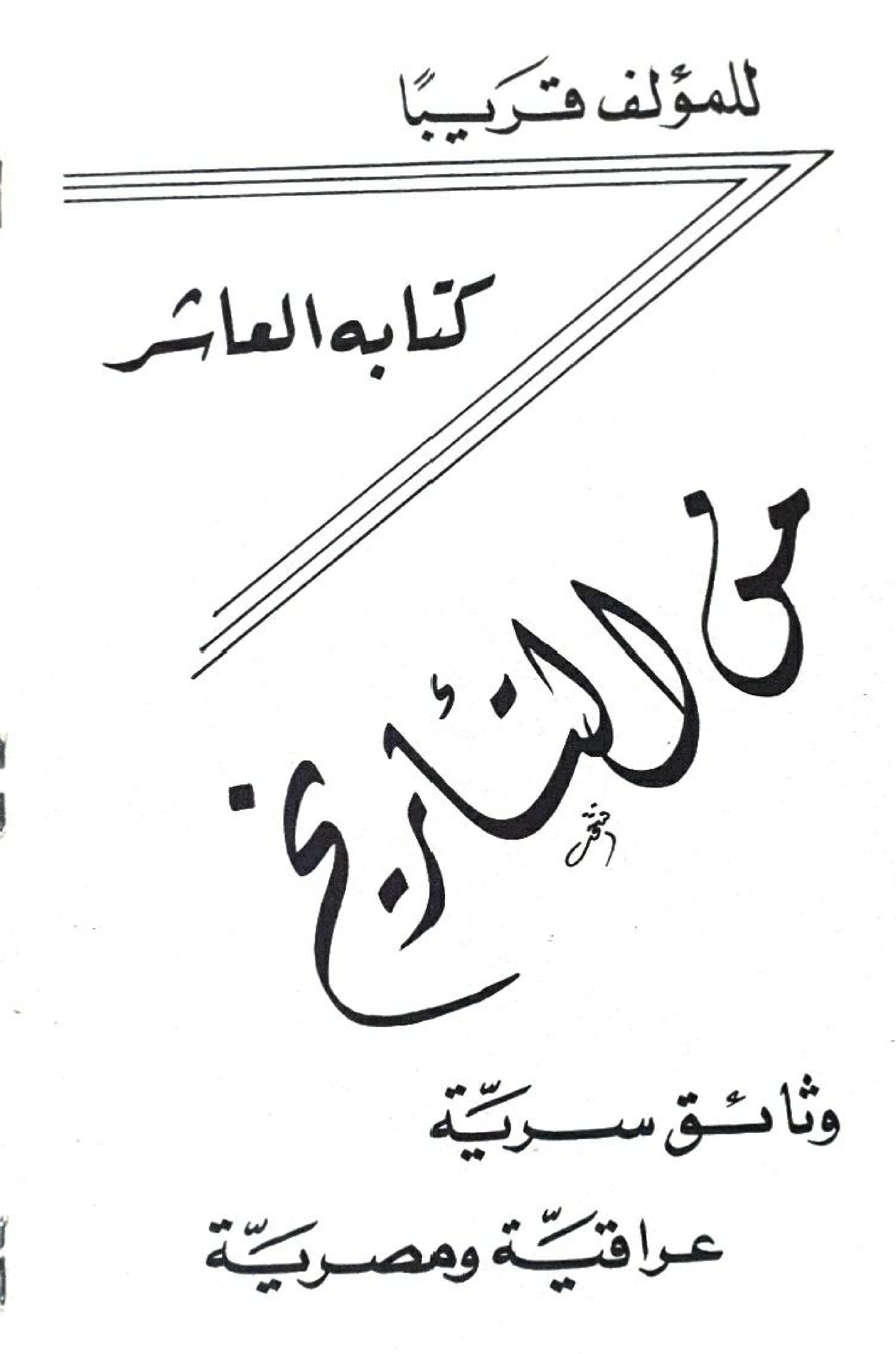
١ ـ محمود سلمان ... طريق المجد الى ارجوحة الابطال (طبعة ثانية).
٢ ـ اسرار عراقية في وثائق عربية وانكليزية والمانية (نفد) .
٣ ـ جوانب مثيرة من تاريخ العراق المعاصر (طبعة ثانية) .
٤ ـ صفقة جواسيس في برلين (طبعة ثانية) .
٥ ـ صفحات مطوية من تاريخ العراق (نفد) .
٦ ـ قضايا ملتهبة في السياسة العراقية (نفد) .
٧ ـ اسرار عراقية وعربية وعالمية (لدى المكتبات) .
٨ ـ غوامض من تاريخ العراق والعرب والعالم (لدى المكتبات) .
٩ ـ حكايات تاريخية عراقيـــة (نفد) .

● عنوانه ص.ب ٥١٦٥ بغـداد ـ العـراق .

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٣٩٦ لسنة ١٩٨٥

عــدد النسخ المطبوعة ٥٠٠٠ نسخة

تاريخ الانتهاء من الطبع ٣١/٣/١٩٨٥


للمؤلف قريباً
كتابه العاشر
من التاريخ
وثائق سرّيّة
عراقيّة ومصريّة

هذا الكتاب

سجل دقيق وامين لفترة بالغة الغموض من تاريخ بلادنا الامر الذي تطلب المزيد من الانكباب على دراستها لاماطة اللثام عن الجوانب المجهولة فيها ٠

لقد امضيت سنوات طويلة في جمع المعلومات وتكديس الوثائق والصور وتصنيفها حتى ارفقها بكتابي لتكون شواهد حية على كل ما ذكرت ٠ والتاريخ ـ وخصوصا الحديث منه ـ اذا لم يكن مقرونا بالحقائق الملموسة والصادقة يبقى ناقصا بل مبتورا ٠

وانه ليسعدني ان اتقدم بالشكر الجزيل والعرفان بالجميل لابناء وطني الذين تلقفوا نسخ كتبي السابقة ، بشهادة جميع اصحاب المكتبات والشعب هو الحكم الاول والاخير على النجاح او الاخفاق ٠

محمود

م. سرمد حاتم شكر

الثمن ديناران

توزيع : مكتبة دار الكندي

هاتف : ٥٤٢٣٨٨١

شركة الشابندر للطباعة والنشر المساهمة
شارع الرشيد ـ السنك ـ بغداد هاتف 8888957

محمود شبيب

جوانب مثيرة من تاريخ العراق المعاصر

الطبعة الثانية